

بؤساء المعبد

أحمد حاتم

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى

الكتاب : بؤساء المعبد

المؤلف : أحمد حاتم

تصنيف الكتاب : رواية

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ١٧١٥٢ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : 2 - 263 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف



بؤساء المعبد هي رواية تاريخية تدور أحدثها في اواخر القرن ١٨ قبيل دخول الفرنسيين مصر . الرواية مستوحاه من قصص حقيقية و كل أسماء الشخصيات في الرواية حقيقية. و المرجع الرئيسي لهذه القصص و المعلومات هو كتاب "عجائب الآثار في التراجم و الأخبار" لعبد الرحمن الجبرتي .

الغرض الأساسي من كتابة هذه الرواية هو استعراض تحليلي لبعض المشاكل المتجذرة في مجتمعنا . والهدف من ذلك ليس احباط الأمل في التغيير للأفضل , ولكن الهدف هو البدء في معالجة هذه المشاكل بطرحها بشكل واضح أمام أعين أفراد المجتمع لتكون دافعا حقيقيا للتغيير للأفضل .

عنوان الرواية : بؤساء المعبد.

المؤلف : د.أحمد حاتم .

الايميل : ahmedhatem88@live.com

او المراسلة علي whatsapp رقم ٢٠١٠٠٧٠٥٧٥٦٨+



٢٢ يونيو ١٧٩٨:

البحر الابيض المتوسط و الشمس تغطس في البحر من وراء مجموعة بوارج و ٤٠٠ سفينة تنقل ٣٢ الف من العساكر تتوسطهم سفينة اوريان العملاقة ذات التسعة اشترعة و ثلاثة ادوار من نوافذ المدافع و علي سطحها من الخلف غرفة عمليات القيادة علي جانبيها ممران ينتهيان بعدة سلالم مؤدية لغرفة الزبان و قائد الاسطول يتلوها السطح الذي يتوسطه أعمدة الاشرعة و نقاط التجمع و في الوسط بين الاعمدة سلالم للطوابق السفلية . باب غرفة العمليات مفتوح واقف عليه من الداخل رجل قصير القامة ذو عيون زرقاء و انف طويل و شفاه تكاد تختفي من صغرها و صلح خفيف يقول لرجل طويل يقف امامه و العساكر تركض ذهابا و ايابا خلفه

صاحب العيون الزرقاء : اسمع يا دومرتين , في ظرف ٥ دقائق تكون قد قرأت هذا المنشور علي قواد الفرق بحث قبل ان تغيب هذه الشمس يكون هؤلاء القاده قد انتشروا علي سفنهم و قرأوا هذا المنشور علي عساكرهم .. مفهوم ؟

دومرتين(رئيس الطبجية : المدفعية) يعطي التحية العسكرية و بصوت عالي : نعم سيدي .

صاحب العيون الزرقاء يضرب علي ذراع دومرتين : اذهب .

و يدخل الغرفة و يغلق الباب , و يلتفت لضباطه الجالسين علي دكك خشبية ملتصقة بجدران الغرفة تتوسطهم طاولة عملاقة مثبتة في الارض تتكاثر الخرائط و الاوراق المليئة بالتقارير فوقها

و يقول لأحدهم : اميرال برويس , كم بقي لنصل ؟

برويس (قائد الاسطول): ٨ ايام سيدي.

صاحب العيون الزرقاء ينظر لآخر : و ما اخبار الانكليز يا بريته ؟

بريته (رئيس اركان الجيش البري) : لقد ذهبوا الي محمد كريم و عرضوا مساعدتهم عليه لصندا , و لكنه رفض , ثم طلبوا منه الاستزاده بالمؤمن , فرفض ايضا , فذهبوا لبيحثوا عن غيره ليستزيذوا بالمؤمن .

صاحب العيون الزرقاء و هو ضامم ذراعاه علي صدره : و اين ذهبوا ؟

بريته : لا نعلم , و لكن ربما ذهبوا للشام او للعثمانيين.

صاحب العيون الزرقاء لبرويس : و ما رأيك ؟

برويس : شيان مؤكدان , الاول : انهم سيحاولوا التحالف مع الجزائر (حاكم الشام) او مع سليم الثالث (سلطان الخلافة العثمانية) ضدنا . الثاني : انهم بعد نجاح او فشل تحالفهم سيرجعون الينا في الاسكندرية ليحاربونا .

صاحب العيون الزرقاء يفك ذراعاه من علي صدره و هو يتنهد و يستنير لينظر للنافذه المطله علي سطح السفينه المملوء بالجنود الذين يتحركون كخلية النحل و في وسطهم دومرتين واقف امام اربعة طوابير قصيرة من قادة الفرق في الجيش البري

يقول لهم : اسمعوا جيذا لما سأتلوه عليكم . و حتي انتهي من تلاوتي سيكون قد وصلت نسخ المنشور الذي سأتلوه و كل منكم سيأخذ نسخه و سينطلق لمركبه ليوزعها علي جنوده ثم يتلوه عليهم . و بعد كل هذا ستثرفون بأنفسكم علي تطبيق الجنود لما في المنشور . ولو خالف جندي واحد ما في المنشور سأقتله هو و قائده بنون ادني تردد .

ثم يرفع دومرتين الورقة التي بين يده :

منشور الي الجيش البري .

من نابليون بوناپرت قائد عام جيش مصر , ايها الجنود : انكم ستخوضون غمار حرب سيكون لها تأثير عظيم علي المنية و تجارة العالم أجمع . و ستضربون انكثرا ضربة حساسة في صميم فؤادها علي امل ان تتمكنوا من ايصال هذه الضربة للقضاء علي حياتها . و بعد وضع اقدامنا في مصر ببضعة

ايام ستمحي من الوجود اولئك البكوات المماليك الذين يساعدوا التجارة الانكليزية و يهنون تجارتنا و يعاملون سكان وادي النيل بالظلم و الاستبداد .

اعلموا ان الشعب الذي سنعيش معه يدين بنين الاسلام و أول قواعدهم "لا إله الا الله محمد رسول الله " فلا تعارضوهم في معتقدهم و عاملوهم كما عاملنا اليهود و الايطاليين و احترموا مشايخهم و علمائهم كما احترمنا الرهبان و القساوسة .

و ليكن في نفوسكم التسامح مع تقاليد الشرع و المساجد مثملا كان لكم من التسامح مع الكنائس و الصوامع و البيع و مع المتدينين بنين عيسى و موسي . و لقد كانت الجيوش الرومانية قبلكم تحمي الاديان و ترعاها . و ستجنون في هذه الديار عادات تخالف عادات اوروبا , فالفوها و تعودوا عليها . و أعلموا ان هؤلاء الناس يعاملون النساء علي غير مألوفنا . و قد اجمعت الامم علي ان من يعتدي علي حرمة المرأة انما هو حيوان وبهيم . اما النهب و السلب فلا يغني الا فئة قليلة من الافراد و لكنه يحط من قدرنا و ينقص شرفنا و ييغض فينا قلوب الناس الذين ان نكون معهم علي صفاء ووداد .

١ يوليو ١٧٩٨ :

جندي علي ظهر سفينة ينادي زملائه بصوت عالي : قوموا ايها البائسون ,
ها هي الاسكندرية .

فقام الجنود يتسابقون للسطح و يتجمعون علي جانب السفينة لينظروا الي اشعة
الشمس تنزل تدريجيا علي مآذن الاسكندرية ثم اسطح المباني و البيوت
والحوانيت ثم رملة الشاطئ ثم البحر و امواجه .

بعد ساعة من الشروق , خرج رجل من وجهاء مصر ضخم الجثة و طويل و
وجهه عريض و لحيته كثيفة من بيته الكبير المطل علي الشاطئ علي
استعجال و هو يرتدي جلباب النوم الابيض الواسع و رأسه عريانه بدون
عمامة بعد ان سمع جلبة الناس في الخارج ليجد جمهور غفير من الناس
مجتمع علي الشاطئ بالقرب من منزله يشاهدون المراكب و السفن التي تلوح
بالأفق واذ برجل من كبار تجار مصر متوسط الطول عادي الجسم يلبس افخم
الملابس يقف جانبه يجهز حصانه يقول : نعم . انهم هم .

الوجيه : هم من ؟

التاجر ينظر للوجيه و بصوت غاضب : سليمان , انك تعرف من هم .

سليمان الجوسقي (شيخ العميان) يضرب علي رأسه من الحسرة و يلقي
بجسده علي المصطبة بجانب باب المنزل و يلقي برأسه علي الحائط و يقول
: يا بنت الصرمة . ثم ينظر للتاجر و يقول : و ماذا سنفعل يا حاج محمد ؟

حاج محمد المغربي (تاجر كبير) : سنرجع حالا للقاهرة .

فقام سليمان من المصطبة و قال : و ماذا سنفعل ان ذهبنا للقاهرة ؟

حاج محمد : لا اعرف .

فسمعا صوتا غاضبا قادما من وسط الجماهير : افسحوا الطريق , الا تسمعون
, افسحوا , مالكم تحذقون كالاصنام .

ففتح الجماهير طريقا خرج منه ٧ جنود و ٣ ضباط فرساوين بلبسهم الازرق و بناطيلهم البيضاء و معهم ٣ مغاربة وجوهم تخير بتاريخ طويل من الاجرام لهجتهم غير مصرية يتكلمون العربية والفرنسية و مروا بجانب حصان الحاج محمد المغربي وهو و سليمان الجوسقي ينظران لهم . و بعد ان مروا نظر الحاج محمد لسليمان و قال له : ماذا تنتظر , اريدك فوق حصانك بعد دقائق و ان لم تفعل سأذهب و اتركك .

و في ساحه واسعه خاليه يقف مجموعه من وجهاء البلد خلفهم خيولهم و خلفهم بمسافه المسرح الروماني و يتقدمهم كبيرهم ذو جسد و وجهه نحيل و لحية بيضاء و شنب غليظ و لباس فخم . يدخل عليهم الضباط و الجنود الفرنسيين و معهم المترجمين المغاربة بعد ان تجولوا بعدة شوارع في الاسكندرية ويقولون : ايكم السيد محمد كريم ؟

قال كبيرهم : انا .

قال الضابط الفرنسي : و انا دمورتين .

قال محمد كريم في غضب مكتوم : ماذا تريد ؟

قال دومرتين : ارسل معي القنصل ماجلون الفرنسي .

قال محمد كريم : لا .

و استدار و ذهب .

فجري نحوه احدي المغاربة المترجمين و بأسلوب مؤدب : سيدي , ان هؤلاء القوم لم يأتوا في شر , و كل ما يطلبونه الان هو مقابلة قنصلهم , و لربما اخبرهم قنصلهم بتجمعكم و اعتراضكم علي مجيئهم فيعودوا من حيث أتوا .

قال محمد كريم : ما الذي اتني بهم اصلا ؟

قال المغربي : سيدي , ان هؤلاء القوم قامت عندهم ثورة منذ ٩ سنوات , و قد قامت تطالب بالعدل و الحرية و المساواه بين الخلق , و نجحت ثورتهم و شكلوا حكومة اسموها حكومة الادارة , و قد حملت هذه الحكومة علي اعناقها

مسؤولية نشر تلك القيم و المبادئ في كل ارجاء العالم , و قد رأوا ان اهل النيل اكثر الناس الذين طحنهم الاستبداد و الظلم علي يد البكوات و قرروا تحريرهم . هذا ما جاؤا من اجله . و كما قلت لك ربما ابليهم قنصلهم انكم غاضبون فيصالحونكم او حتي يعودوا لديارهم , فارجوك ارسل القنصل ماجلون معهم .

فنظر محمد كريم لاحد الوجهاء : ارسل للقنصل .

بعد نصف ساعة ... محمد كريم واقف يتكلم مع الوجهاء و المترجم المغربي معهم و الفرنسيين واقفين علي بعد اقدام منهم يتكلمون مع المغاربة و فجأة يسكت الجميع و ينظرون لاحدهم قادم مع القنصل ماجلون الفرنسي و هو شخص في الاربعينيات ذو ملامح اوروبية و يلبس ازياء النبلاء الفرنسيين ..

و يتقدم محمد كريم نحوه : اسمع انا لم اكن مرتاحا ابدا لك وما اريدك فعله الا ان تقع اقاربك القادمين الينا ان يعودوا من حيث جاءوا و الا لن يصير خيرا ابدا .. اتفقنا ؟

قال القنصل ماجلون : نعم .

في سفينة اوريان نابليون واقف في الممر بجانب باب غرفة العمليات المفتوح في حر الشمس قبل غروبها بعدة ساعات ينادي بصوت عالي و متوتر : يا برويس لماذا تأخرت تعالي الي حالا . ثم يدخل و يغلق الباب بعنف .

فيخرج برويس من غرفة الزبان مسرعا و يقفز علي السلاسم قفزا و يطرق الباب ..

نابليون بتوتر واضح : ادخل ... ها ما الاخبار ؟

برويس : اقترب نيلسون و اسطوله من الاسكندرية .

نابليون يضحك متحديا : ها ها ايها الانجليز .. لن تسبقوني للاسكندرية ابدا ايها المعاقون .

برويس و علي وجهه كل علامات الدهشة : ماذا يعني هذا ؟

نابليون و هو في اقصى حالات الاثارة و الجنون ينظر لبوريس : يعني بالتاكيد الاسراع في الانزال .

بدأت الدهشة و الغضب يمتزجان علي وجه بوريس : و لكن بعد ايام من الانزال و توغلهم في هذه البلاد سيكتهمنا الاسطول الانجليزي في ساعات .

فلكمه نابليون علي وجهه ثم شد شعره و صرخ في وجهه : ايها المختف الضعيف . بالتاكيد سيكتهمونك طالما انك تصنق هذا . و جزاء لكمتك هذه سأتركك لهم, فإن صمدت امامهم و هزمتهم ستستحق ان تبقي معي وان التهموك فساكون سعيدا بأنني تخلصت منك .

ثم دفعه الي الخلف فاصطدم بالطاولة وسقط علي الارض , ثم استدار و نظر من النافذه فوجد دومرتين يصعد للسفينه و معه القنصل ماجلون و الجنود و المغاربة , فقال لبوريس بصوت هادئ دون ان يذير له وجهه : لقد اعطاني الحظ ٣ ايام فإن لم انتهزها خسرنا كل شئ . اتجه الان للعجمي و بحلول الليل نكون قد وصلنا , حينها أمر بالانزال .

حينها نظر دومرتين لنابليون فور نزوله علي سطح السفينه فأشار نابليون له من غرفة العمليات بأن يصعد اليه . فإنطلق دومرتين و معه القنصل ماجلون و فقزا علي السلاسل فوجدا بوريس ينزل مسرعا و هو يوارى وجهه عنهما فنظر دومرتين و القنصل ماجلون له مستغربين ثم نظرا لبعضهما من الدهشة و التوتر فوصلا امام الباب و طرقاه فسمعا الصوت : ادخل يا دومرتين .

فدخلوا فوجدا نابليون ينظر للنافذه و يضع يديه علي خصره و الشرر يتطاير من عينيه فنظر اليهما و قال لهما : اجلسا .

فجلس القنصل ماجلون ثم دومرتين علي جانب الطاولة و جلس نابليون امام الطاولة و القي ظهره علي الكرسي و قال للقنصل : حسنا , اخبرني ما اهم النقاط التي يجب ان يشملها المنشور الذي سنبعث به للسكان ليطمأنوا و لا يهبوا للمقاومة ؟

القنصل ماجلون : ثلاثة نقاط سيدي , الاولى : الامان علي ارواحهم , الثانية : الامان علي احتياجاتهم الاساسية مثل ماكلهم و مشربهم و مساكنهم و تجارتهم , و ثالثا : استمالة عواطفهم , و اكثر ما يستميل عواطفهم هو " المظاهر الدينية " المتمثلة في مثايخهم و مساجدهم و مقامات اوليائهم و طقوسهم الدينية مثل المواد و الاعياد و شهر رمضان و الحج و هكذا .

رفع نابليون ظهره من علي الكرسي و القي ب صدره و ذراعيه علي الطاولة و نظر للقنصل بخبث و قال : و ما رأيك ان اخبرناهم اني مسلم و ان الفرنسيين مسلمين ؟

فابتسم القنصل ماجلون و نظر لدومرتين و نظر دومرتين له ثم رجع فنظر لنابليون و قال : بالتأكيد سيفرحون , صحيح لن يصدق الجميع , و لكن علي الاقل ستدخل هذه الإشاعة في القيل و القال و لن يحاربك معظمهم الي ان يثبت لهم العكس . بالاضافة الي الخوف من جيشك و فرصة الامان التي ستوفرها لهم و كرههم من المماليك ..

نابليون ينهض من علي الطاولة و يرجع ظهره للكرسي و هو مثار بشده و يصفق بيده صفقة ثم يشير للقنصل : هذه هي .. هذه هي العوامل التي أريد الاستفادة منها .. صحيح صحيح .. أكمل أكمل..

القنصل ماجلون : ستؤول هذه العوامل كلها بهم الي عدم مقاتلك اثناء توغلك في البلاد حتي و ان كان لفترة زمنية قصيرة و لكن ستكون كافية للسيطرة علي الامور .

فقفز نابليون من علي كرسيه سعيدا يصرخ : هذا ما اردته ... هذا ما اردته بالضبط . ثم ذهب لزاوية الغرفة و سحب ورقه من عمود طويل من الورق المرصوص فوق بعضه و اعطاها للقنصل و قال له : اقرأ هذا المنشور و اسمعني .

بدأ القنصل ماجلون يقرأ و أستار نابليون و نظر للنافذه ليلقي نظرة علي السفن و هي تقترب من الرسو عند العجمي و الشمس تغيب من ورائهم و الجنود كخاية النحل علي اسطح السفن .

في احد شوارع الاسكندرية بعد صلاة العشاء في احدي المنازل الكبيره الخارج منها ضوء القناديل الاصفر يقف محمد كريم في مجلس كبير في داره امام وجهاء المدينة جالسين علي كنب يشبه المصاطب و في ظهورهم جدران فيها نوافذ من الارابيسك معلق عليها عدد من القناديل للانارة ,

يقول لهم و هو في منتهي الدهشة و الغضب : أنتم صادقون فعلا فيما تقولون ؟ أجنتم ؟ ستهبون لبيوتكم و الصباح رباح ؟ أیوجد خلق في العالم يغزوهم عنو و يذهبون للنوم ؟

احد الوجهاء : من قال اننا سنذهب للنوم , نحن سنستعد بالتاكيد , و لكن كل يستعد في بيته , و في الصباح نتجمع لنحاربهم .

اخر : نعم هذا ما قصدته من كلمة "سنذهب لبيوتنا و الصباح رباح" . ثم لماذا انت منزعج ؟ كلنا نعلم انه لم يحصل امر كهذا من قبل الا و نزلوا في ابي قير و استغرقوا عدة ايام لافراغ حمولاتهم و تنظيم انفسهم للهجوم , فلم العجلة؟

الحاج مصطفى (احد الوجهاء) : خست انت و هو ..

ثم نظر لمحمد كريم المندھش : انت تعلم ان هذان لا رجاء فيهما .

محمد كريم و هو يضحك مستهزءا : هااا و ماذا عنك انت ؟ انت اذا السبع الذي سيخرج لقهز الفرنسيين .

الحاج مصطفى ينظر مغاضبا مترددا : بالتاكيد , قل لي ماذا افعل .

محمد كريم : سارسل معك ولدي و تعطيه من مالك و سلاحك لنجهز به جيشا .

الحاج مصطفى ينظر للارض و يهرب بنظره يمينا و شمالا : المال , ليس معي مال الان , و السلاح , لا استطيع اعطائه لكم الا اذا اعطيتموني ايجاره , فأني استرزق من هذا السلاح ..

محمد كريم يرجع للخلف محبطا و يلقي بجسده علي الكرسي : انتم لستم الا ثله من المتخاذلين لا فائده منكم . و بالفعل لا يمكن ان نستنهض همة امة ليلة غزو عنوها لها . فالامم التي تقهر اي غاز لها لادب ان تعمل علي الاستعداد للقائه

ليل نهار قبل ان تسمع خبر وصوله لها بسنين , هذا اذا افترضنا انها ستنتظر الي ان تسمع هذا الخبر اصلا . اذهبوا من بيتي اكرمكم الله , مع السلامة .

فقام الوجهاء من المجلس و عند اقترابهم من الباب سمعوا جليه في الخارج ففتحوا الباب فوجدوا مجموعه من الشباب يحملون بنادق يدوية الصنع و نابيت و سيوف و سواطير فكان قائدهم هو ابن الحاج مصطفى فاقترب الاب من ابنه و امسك بذراعه غاضبا و قال له بصوت منخفض : ماذا تفعل هنا ايها الابله ؟

فصرخ الابن بصوت عالي : نحن سنحارب معك يا شيخ كريم , دعك من هؤلاء المستميتين علي الدنيا , نحن هنا ننتظرك .

فأمسك الاب بذراع ابنه و دفع الوجهاء و دخل لمجد كريم الواقف يشاهد الموقف : ارأيت هذا ابني اقمه للجهاد في سبيل الله , ارأيت اني لست متخاذلا مثل هؤلاء العجائز؟

مجد كريم يهز رأسه من العجب : لم اري إنتهازيا مثلك في حياتي .

و اقترب من الولد و وضع يده علي كتف الولد و قال له : بارك الله فيك يا ولدي , و لكن انت و زملائك لا تتجاوزون ال ٢٠ شاب لم يعلموكم اباؤكم حمل السلاح و القتال و لو دخلتم اي معركة لن تزيدونا الا حسرة علي فراقكم . ارجع يا بني لاهلك . و استار و رجع لكرسيه.

الشاب لمجد كريم و هو في قمة الدهشة : ما هذا , هل ارحت ضميرك بهذا ؟ هل ستظل تنتظر هؤلاء الاصنام ليتحركوا ؟ ثم ترجع و تبكي بعد ان نجد الفرنسيين فوق رؤوسنا . والله انك لست الا صورة اخري منهم . انت لا تريد القتال اصلا و تعلم مسبقا انهم سيخذلونك . و لذلك تجمعهم و تطلب منهم القتال فيتهربون ثم تلقي بنفسك علي كرسيك و تقول ها انا حاولت , ها ها ها كم انا سعيد بشيخنا.

ثم استار و دفع اباه و دفع الوجهاء و خرج و ذهب وراءه باقي الشباب , و مجد كريم جالس علي كرسيه ينظر للارض كالصاب بالنوبة القلبية من هول ما سمعه و الحاج مصطفى و الوجهاء ينظرون له بهشة شديدة .

٢ يوليو ١٧٩٨

الساعة ٢ صباحا البحر هائج و المياه تضرب السفن و تغرق اسطحها و نابليون مجتمع بالقادة اجمعهم و التوتر علي اشد و نابليون يقول بكل حده لقائدين يقفان بجانبه : كليبر , بون , اصدرا اوامر الانزال الان و انا سأنزل بعد نزول العساكر .

فأشار كليبر (قائد القلب) بيده وقال : لكن سيدي ...

فامسك نابليون بوجه كليبر من ذقنه بكل عنف و قال بصوت شديد الغضب شديد الاختناق : سأغرقك بيدي ان قلت انك خائف علي جنودك من الغرق .

فقال كليبر : حاضر سيدي .

فصرخ نابليون في رجاله : في ظرف ساعه اريد ان اكون انا اخر من ينزل من علي السفن . هيا اذهبوا .

وبعد ان خرجوا صرخ نابليون وحيدا في الغرفة و قال : ما هذا , هل بدأ حظي يخونني ام ماذا؟

الساعة الثالثة صباحا نزل بونابرت علي البر , و كان هو و رجاله علي اقدامهم و بدأ البحر يهدأ شيئا فشيئا و شعر الجميع بالراحه و قال نابليون في سعادته : اياه ايتها البك اللعين , كل من علي كرة الارض يريد امتلاك شلالات كنوزك . و لكن هيهات لاحد غيري ان يسبقني اليك فانا احق اهل الارض بكنوزك .

فقال احد القادة : فلنشكر الرب علي ذلك .

فنظر باقي القاده للقاتل و هم يضحكون عليه استهزاء فرد نابليون مبتسما متفاخرا : ها , كفي الله فخرا ان يعبد احدنا مثلي .

كليبر ينظر خلفه و ينادي علي احد الضباط : هل انتهيت من طباعة المنشورات ؟

احد الضباط : انهم في طباعة العدد الثالث سيدي

نابليون لكبير : و كم يحترى العدد ؟

كبير : ١٠ الاف

نابليون : حسنا اطبع ليل نهار , لا تتوقف , اريد ان اغرق بيوت هذه الديار
بالمنشورات

كبير : حاضر سيدي .

ينظر نابليون لبون (قائد الجناح الايمن) و بجانبه منو (قائد الجناح الايسر)
و يقول لهما : بون , منو , اسمعا , اريد بمجرد نزول الخيل علي البر تشكلا
من الجناحين الايمن و الايسر قوة استطاع تسبقنا الي قلب الاسكندرية ,
مهمتها الاولى الاستكشاف , مهمتها الثانية هي قراءة هذا المنشور علي الشيخ
محمد كريم و وجهاء المدينة و يوزعوه عليهم و علي الناس ثم يعودوا .

مينو لنابليون : سيدي ليس لدينا معلومات كافيه عن قواتهم , و لربما كانوا
كثرة ..

يقاطع نابليون و يصرخ مناديا لماجلون و هو ينظر لمنيو : ايها القنصل ,
يسأل هذا عن مدي قوة اهل هذه البلاد فهو خائف علي رجاله ؟

فيبتسم القنصل و يهز رأسه استخفافا فيدخل كبير بخبث : اسمع الكلام يا
مينو .

فينصرف نابليون و ينظر مينو بغضب و كراهيه لكبير و ينظر لكبير بابتسامة
الشماته و الشر .

في رشيد بعد صلاة الفجر يخرج الناس من احد المساجد الكبيرة بقرب اكبر
اسواق المدينة و اذا باثنين علي فرسيهما يهرعان ناحية المسجد و يصرخان :
يا اهل رشيد , يا اهل رشيد , هلموا الينا هلموا الينا .

فباقتريا الاثنين من ابواب المسجد و بدأت انارات القناديل تظهر ملامحهما و الغبار يغطيها هما و خيولهما و امتعتهما و توقفا امام الناس الذين تجمعوا امام باب المسجد و اذا بهما الحاج محمد و سليمان الجوسقي , وقال الحاج محمد : يا اهل دمنهور , ان الفرنسيين وصلوا ثغر الاسكندرية يريدون غزو مصر . فهبوا يا اهل مصر ايها المسلمون الي نجدة بلادكم و اعراضكم و دينكم .

فقال احد الواقفين علي باب المسجد : من انتما ؟

قال الحاج محمد : انا الحاج محمد المغربي نسيب الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الازهر .

و قال سليمان : و انا الشيخ سليمان الجوسقي شيخ العميان .

قال احد تجار المدينة الكبار الواقفين بالقرب من المسجد يدعي الحاج محمد البواب : ألت صديق الشيخه أمونة ؟

فشهر سليمان الجوسقي سيفه و ضرب حصانه ليذهب و يقتل الحاج محمد البواب فظهر من وسط الظلام ١٠ و اشهروا سيوفهم استعداداً لقتاله , فأمسك الحاج محمد المغربي يد سليمان و قال له : هذا ليس وقته . و نادي في الناس : هذا ليس وقت الثماته او المعاييرات , هذا وقت الاصطفاف لقتال الكفار .

فصرخ مجموعة من الناس معظمهم شباب و كبار في السن من متوسطي الحال : الله اكبر الله اكبر .

فشهر الحاج محمد المغربي سيفه و رفعه و رفع سليمان الجوسقي سيفه ايضا و قال : الله اكبر الله اكبر هيا هبوا لقتال اعداء الله . ثم ضربا خيولهما و تحركا .

فناداهم الحاج محمد البواب : الي اين انتم ذاهبان , لن تقتلا الكفار ؟

فقال سليمان للحاج محمد المغربي : دعني اقتله ارجوك .

فقال الحاج محمد المغربي بصوت عال ردا علي الحاج محمد البواب : سنذهب الي القاهرة لنبلغ اهلها و الحكام .

في الاسكندرية الشيخ محمد كريم و بعض الوجهاء خارجون من صلاة الفجر و يفاجئون ببديوي يأتي مسرعا علي بغله من بعيد يصرخ : يا شيخ كريم , يا شيخ كريم.

و بمجرد ان وصل امام باب المسجد و قفز من فوق البغلة و وقف امام الشيخ محمد كريم و قال بصوت يملئه الرعب : نزل الفرنسيين علي شاطئ العجمي منذ ساعة و بعد عدة ساعات سيصلون الي هنا .

الشيخ محمد كريم : اسمع , اذهب الي ممالك الانكشارية (قوات المشاه) و استدعهم للشاطئ و انا سألق بهم و اذهب لكاشف (مأمور) البحيرة و بلغه اني اطلب منه ان يجمع الاهالي و يذهب ايضا للشاطئ ليلحق بنا , فهمت؟
البديوي : نعم يا شيخ .

بعد ساعة الشيخ محمد كريم يقف بالقرب من المدخل الشمالي الغربي للمدينة , البحر من امامه و المدينة خلفه و معه حوالي ٢٠ مملوك من الانكشارية معهم بنادق قديمة و كاشف البحيرة و وجهاء المدينة و الاهالي معهم بنادق يدوية الصنع و سيوف و سواطير و نابيت و تتقدم نحوهم قوات المقدمة لجيش نابليون و باقي الجيش لم يكن قد تحرك بعد . فرفعوا ايدهم و بنادقهم امام الشيخ كريم الي ان وصلوا بالقرب منه و توقفوا و تقدم قائدهم و معه المترجم المغربي و قال للشيخ : سيدنا الشيخ , لم أتى لاحاربك , انما جئت فقط لأقرأ عليك هذا , و رفع المنشور وقال والمترجم المغربي يترجم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا اله الا الله لا ولد له و لا شريك له في ملكه

من طرف الجمهورية الفرنسية المبنية علي اساس الحرية و التسوية و من السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنسية بونايرته

يعرف اهل مصر جميعهم أن من زمان منيد يتسلط المماليك في البلاد المصرية و يتعاملون بالذل و الاحتقار في حق الفرنسيين و يظلمون تجارهم بأنواع الايذاء و التعذيب , فحضر الان ساعة عقوبتهم . و كنا نعرف من مدة عصور طويلة هذه الزمرة من المماليك المجنوبين من بلاد الالبازة و الجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الاحسن الذي لا يوجد في كرة الارض كلها مثله فإن رب العالمين القادر علي كل شئ قد حكم علي انقضاء دولتهم .

فتحرك ممالك الانكشارية لينقضوا عليه فسكت الضابط و نظر لهم ثم للشيخ محمد كريم فأشار الشيخ كريم لهم بالتوقف و قال للضابط : اكمل .

يا ايها المصريون قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا البك الا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه , و قولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين و انني أكثر من المماليك ايمانا بالله سبحانه و تعالي و احترم نبيه و القران العظيم .

فابتسم بعض الاهالي و هزوا ادمغتهم و نظروا لبعضهم البعض بارتياح , بينما التجار يسترقون النظر للأهالي خلفهم و أمامهم المماليك الانكشارية و كاشف البحيرة يغلون من الغضب و الشيخ محمد كريم يبتسم و يغمض عينيه و وجهه لوجهه للارض و يهز رأسه يمينا و يسارا .

و قولوا ايضا لهم إن جميع الناس متساوون عند الله وإن الثنى الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل و الفضائل و العلوم فقط . و بين المماليك و الفضائل و العقل تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتي يستوجبوا أن يتلوكروا مصر و حدهم و يختصوا بكل شئ حسن فيها من الجواري الحسان و الخيل العتاق و المساكن المفرحة . فإن كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم . ولكن رب العالمين رؤوف عادل و حلیم . ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا يياس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجرجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم: إن
الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون؛ وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما
الكبرى وخربوا فيها كرسي الباب الذي كان دائمًا يحث النصارى على محاربة
الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردها منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون
أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

فزاد ابتسامات الاهالي و ابتسم الوجهاء ايضا و نظروا لبعضهم البعض في
نظرات سريعة , و المماليك الانكشارية و الكاشف علي حالهم .

و فجأة قفز الشيخ محمد كريم من علي فرسه و اشار للمترجم وقال له : اخرس

ثم ذهب للضابط وضرب الورقه بيده اليمين و امسك رقبة الضابط بيده اليسار
فسمعت اصوات تعميم بنادق الفرنسيين و قابلها اصوات تعميم بنادق
الانكشارية و الكاشف و اشهار سيف الوجهاء و تعميم بنادقهم ,

وصرخ الشيخ محمد كريم في وجهه الضابط و قال : علي من تضحك ايها
الكافر , ايظن زعيم عصابتكم اني سأصدق انه مسلم و ان الفرنسيين مسلمين و
انكم آتون الي مصر لتحيوا امجاد عمرو بن العاص ؟

فجأة سُمع صوت خيول كثيرة قادمة و صوت صراخ وراء غبار كثيف قادم
من الخلاء باتجاه البحر و مع اقترابهم خرج من بين الغبار مجموعه من
الشباب يتقدمهم ابن الحاج مصطفى بجانبه شيخ قبيلة عرب الهنادي وخلفه
عربان قبيلته رافعين البنادق و التفوا حول الجنود الفرنسيين و ضابطهم ,

فابتسم الشيخ محمد كريم و قال للضابط : بما انك مسلم سأسلك الان للاخرة و
هناك سيستقبلونك الملائكة بأحر ترحاب .

فألقي به و ركض الي حصانه فتقمت القوة الانكشارية و الكاشف و الاهالي
لينقضوا علي جنود الفرنسيين من امامهم و الشباب و عرب الهنادي من خلفهم
ففرع الجنود الفرنسيين و القوا اسلحتهم ليظهروا الاستسلام لكن انهال عليهم
بارود البنادق ثم توقف ثم انهالت عليهم السيوف الي ان تمزقت اجسادهم و
فصل الشباب رأس الضابط

و بعد ان انتهوا ذهب ابن الحاج مصطفى مترجلا للشيخ محمد كريم الراكب علي فرسه و كان يكلم الانكشارية و يقول لهم : خذو رأس ذلك الكافر و طوفوا بها شوارع الاسكندرية ليحتفل الناس بالنصر علي الفرنسيين ,

فقال الشاب له : شيخ كريم ..

فنظر الشيخ كريم للشاب و قال : نعم

الشاب : انا اسف .

فابتسم الشيخ و قال : ابليت حسنا علي كل الاحوال .

و ذهب .

فانقض الحاج مصطفى علي ولده مداعبا له و نادي في الناس : انظروا الي ولدي يا خلق , اني ربيته علي الجهاد و النضال . لعكم تربون اولادكم مثل ما ربيته لنقهز الاعادي .

ثم مسك رأس ولده من الخلف و وضع وجهه في وجه ابنه و قال له بصوت منخفض و بغیظ : من تظن نفسك يا ابن الكلب , ها , ما الذي جمعك هؤلاء العربان الجذاريع ؟ اصلا كيف اقنعت هؤلاء قطاع الطرق الذين لا مله لهم و لا دين يدافعون عنه بقتال الفرنسيين ؟

فتصنم وجه الشاب و قال و هو فاتحا فاه : ها ؟

فجاء احد صبيان الحاج مصطفى مهرولا مفزوعا يصرخ : يا حاج مصطفى يا حاج مصطفى الحقني يا حاج .

فترك الحاج مصطفى رأس ابنه وقال لصبيه : ماذا حدث يا وجه الفقر ؟

الصبي : لقد قُتحت حوائيتك و مخازنك و فُرغ منها كل السلاح و المال .

فصُدم الحاج مصطفى و استوعب الوضع فالتفت لابنه و اذ به يركض بأسرع ما لديه نحو الصحراء .

قبل غروب الشمس في العجمي الجنود ينزلون الخيول التي تجر المدافع من علي المراكب و علي بعد ٥٠ مترا من الشاطئ نصبت خيمة لانتظار القادة حتي يتم الانزال و التنظيم تمهيدا للتحرك و القادة مجتمعون في وسط الخيمة علي طاولة عليها خرائط يتناقشون حولها و نابليون في الداخل يجلس علي كنبه في زاوية الخيمة و امامه ثلاثة من علماء الاقتصاد السياسي القادمين مع الحملة جالسين علي كراسي يقول لأيمتهم : شولكوسكي , لماذا تظن ان نُظُم رسوم تسجيل العقارات هذه ستكون عائقا لنا اكثر من كونها معينا لنا ؟

شولكوسكي (رئيس لجنة الاقتصاد السياسي في مجلس علماء الحملة) :
لعدة اسباب سيدي , اولها ان هذه صورة من صور الضرائب , واكثر ما أغضب اهل النيل علي الممالك هي تلك الضرائب بصورها الشتي . ثانيا : هذه الرسوم ستطلب اجراء احصاء للعقارات و تسجيل اثباتات ملكية , و هذا ما لم يعهده اهل تلك البلاد قبلا , و بالتالي هذا سيثيرهم . ثالثا : عندما رفع قنصلنا في الاسكندرية تقاريره عن المصريين اوضح لنا ان من اهم ما يستमित عليه المصري و لا يطيق اقتراب احد منه هو داره او عقاره , فلو طلبنا منه المجئ لتسجيله ثم اخذ رسوم عليه سيعتبر اننا اخذنا عقاره منه و اجبرناه علي دفع ايجاره , وهذا اثت ما سيثيرهم

نابليون يغمض عينيه و يهز رأسه بابتسامة استخفاف : شولكوسكي , انا اكرهك من كل قلبي , ما من مرة سألتك فيها عن شئ الا و تفلسفت و توقعت الاسوء .

شولكوسكي مستغربا : ما علاقة الحب و الكره بالحقائق و الوقائع علي الارض ؟ الم تأتي الي هنا لترفع الظلم من علي الناس ؟ فإذا جئناهم فرضنا عليهم زياده عما كان يفرضه عليهم الممالك ؟ هذا الظلم بعينه .

فقام نابليون غاضبا و اقترب منه و قال له : صدقي لن تمر عجرتك امامي هذه علي خير يا شولكوسكي.

فجأة دخل ضابط الخيمه مفزوع يصرخ : سيدي سيدي , المصريون ذبحوا كل من كانوا في قوة الاستطلاع .

فصّدم نابليون و نظر لمينو، فنظر كل القاده و العلماء لنابليون الذي ضرب علي جبينه و القي بجسمه علي الكنبه قال : آآآه , ما هذا الحظ .

وبعد دقائق من الحسرة تمالك نفسه و قام ووضع يداه خلف ظهره و تحرك خطوتان الي ان وقف امام مينو وكليبر ثم لكم مينو اسقطه علي كرسي بجانب الطاولة ثم نظر للقاده و قال بصوت هادئ : هذه لمن يفكر الشماتة بي ان اصاب رأيه و اخطأ رأيي .

ثم سكت قليلا و تنهد و قال : آه حسنا , لا بأس , ابدأوا الان بتنظيم قواتكم كليبر في القلب و بون في الجناح الايمن و مينو في الايسر الي ان ينتهي انزال المدافع ثم نتحرك .

٣ يوليو ١٧٩٨

الشمس تشرق من جهة البحر اتجاه الشرق و نورها ينزل تدريجا علي عمود السواري الذي ينحت عليه بعض الاشخاص بالزي العسكري الفرنسي و يقف خلفهم شخص يلبس زي النبلاء الفرنسيين و يقول للنحاتين : يجب ان تنتحوا الاسماء كما في الورقة امامكم , لا تقدموا اسم علي اسم , ولا تنسوا اي اسم و اريد الاسماء واضحة يقرأها اي احد بسهولة ..

ثم تركهم و ذهب لكبار القادة الذي يقف امامهم نابليون فاقترب من ظهر نابليون و قال بصوت منخفض بعد ان اصدر صوت كحه خفيفة : سيدي ..

فاستدار له نابليون و قال له : ها يا بنون ..

بنون (عضو لجنة الادآب و الفنون في الحملة) : باقي ساعة علي الاكثر .

فاقترب منه نابليون خطوة وقال : اسمع يا بنون , اريد ان تنقش اسماء جنود قوة الاستطلاع بخط واضح فوق بعض , ثم يكتب اسم قائد القوة بخط اكبر بجانب اسماء الجنود و ليس معهم , ثم تكتب كلمة رثائهم بجانب اسم الضابط . اريد للناظر للاسماء ان يشعر بمقدار الفخر و الشرف الذي يناله المضحى بنفسه معنا .. واضح ؟

بنون : حاضر سيدي .

نابليون يضرب بخفه علي ذراع بنون مشجعا له : احسنت.

ثم ينظر نابليون ليجد عساكره قادمون نحوه و هم شاهرين بنادقهم في ظهر الشيخ محمد كريم و كاشف البحيرة و الممالك الانكشارية و بعض الاهالي ثم اشار لبعض الجنود ان يأتوا بكراسي و طاوله فجاءوا بها , ثم وصل الشيخ محمد كريم و الباقون فاستهل وجه نابليون و رفع يده مرحبا و تقدم نحو الشيخ وبصوت عالي قال و يترجم له احد المغاربة : اهلا اهلا بالشيخ كريم .

ثم ضرب بيده فوهة البندقية التي كانت في ظهر الشيخ لينزلها ارضا و قال بصوت مسموع : اخفض هذه .

ثم وضع ذراعه فوق كتف الشيخ كريم و قال له و هما يتقدمان خطوات للكراسي و الطاولة : اهلا بالشيخ البطل اني سعيد جدا بلقائك سيد كريم , تفضل اجلس تفضل .

و سحب الكرسي للشيخ و اجلسه ثم دار حول الطاولة و جلس علي الكرسي المقابل . ثم قال: اهلا بك شيخنا الفاضل .

الشيخ كريم ينظر له و هو ساكت .

نابليون استوعب نظرة الشيخ ثم اظهر للشيخ علامات تفهم الموقف علي وجهه ثم قال : لو وضعت نفسي مكانك يا شيخنا و فكرت بنفس عقاك كنت سأصبح اكثر الناس يؤسا في هذه اللحظة . بالتاكيد , بلدي يدخل عليه اغراب لا اعرف لهم اصل و لا فصل و معهم بعض البنادق و مدافع , ساكون حزينا طبعاً . لكني لو مكانك كنت سأفكر بطريقة اخري , سأري كيف هو شعبي , هل فعلاً يريد مقاومة هذا الغريب ؟ ولو اراد مقاومته , هل يملك القدرة علي ذلك ؟ فإذا نظرت لاجابة السؤال الاول سأجدها : لا . الم تري كيف ذهبوا ليناموا في بيوتهم بالامس بعد قضائكم علي قوة الاستطلاع و لم يشعروا بدخولنا و نشر قواتنا في انحاء المدينة الا بعد فجر اليوم التالي , بالله عليك هذا تصرف شعب يعلم ان هناك اغراب علي ابواب بلاده ؟ هذا لو افترضت اني لن اصدق المعلومات التي اخبرتنا عن تخاذل وجهاء المدينة معك في مواجهتنا.

ثم اشار لرجاله بإشارة فظهر من بينهم شاب طويل خمري البشرة مقتول العضلات زعيم لعصابة من العربان هجّامين بالاجرة و قطاعين طرق فقام له نابليون وسلم عليه وقال له بالفرنسية دون مترجم : اهلا بك يا شيخ عمر , هل سلمك رجالي حقك ؟

قال عمر القلقجي و المترجم يترجم للشيخ كريم : نعم .

نابليون : حسناً . اشكرك علي تعاونك . تفضل مع السلامه .

ثم رجع نابليون للشيخ وجلس علي الكرسي : اتعلم ما حقّه يا شيخ ؟ ١٠ ؟
الاف فضة و ١٠٠ بندقية و بالتاكيد تعلم ان امثاله المتهلفين لا حصر لهم .
ولا اارينك ان تقول هؤلاء عربان لا ذمة لهم و لا دين , فلو ذهبت لاصحاب
الطرق الصوفية سيرضون بشئ كهذا او غيره و لكن في النهاية سيرضون . و
اذا ذهبت للتجار و فعلت نفس الشئ سيرضون , يكفي التجار ان اكف عنهم
الماليك , و العامة اغلبهم يلعون الحكم و الحكام و لا يعينهم لا امور الاماره
و لا غيرها , كل ما يههمهم ان يأكلون و يشربون و يلبسون و يسكنون , و فقط .
و ستجد في النهاية ان من يغير علي بلاده و دينه و عنده حس المقاومة و
النضال ليس الا قلة لا حول لهم و لا قوة لن يبقوا امامنا اكثر من بضعة
ساعات.

ثم استرخي في كرسيه و قال : أما السؤال الثاني , لا داعي للكلام عن قدرة
شعبك علي مقاومتنا , فحتي لو عندهم حس المقاومة و النضال , لا يمكن
استنساخه في يوم و ليلة , فحس المقاومة و النضال لابد ان يكون مشتعل في
قلوب و عقول الناس في السلم قبل الحرب ليجمعوا قواهم و يبنوا دفاعاتهم و
يجهزوا عندهم و عتادهم .

ثم يقوم من علي الكرسي قائلا : و لذلك بعد أن احسبها بتلك الطريقة سينتهي
بي الامر الي ان الزم بيتي و اختفي عن الانظار .

فقال الشيخ كريم : ما المطلوب الان ؟

نابليون اشار بيده فأحضر له احد الجنود شارة الجمهورية الفرنسية هي ٣
دوائر من الحرير مربوطين ببعضهم بالخيط, الدائرة الخارجية بالازرق و
داخلها دائرة ابيض و داخلها دائرة احمر تعلق بدبوس علي الملابس , ثم
قدمها نابليون للشيخ و قال: ان تعمل لصالح الجمهورية الفرنسية و تعلق هذه
علي صدرك مثل هؤلاء .

فنظر الشيخ خلفه فوجد وجهاء المدينة داخلون عليهم بخطوات هادئة منهم
من يهندم عباتته و منهم من يضبط عمته و منهم من يفتح زجاجة عطر
صغيرة يرش منها و كلهم علي صدورهم شارة الجمهورية الفرنسية و علي
يمينهم و يسارهم و خلفهم عساكر فرنسيين فرجع و نظر لنابليون فقال له

نابليون وهو ينظر اليهم : صحيح اني انا من امرت بان يضعوا الشارة علي صدورهم , لكن لم اكن اتوقع انهم سيتقبلون هذا بهزة السرعة .

قام الشيخ و مشي خطوات في طريقه للذهاب ثم نظر لنابليون و قال : أتعرف عمر ابن الخطاب ؟

قال نابليون : نعم .

قال الشيخ : بكي عندما بشره اقدمهم بالنصر بعد تأخير في احدي الغزوات , فعندما سألهم اقدمهم : أتبكي بعد النصر ؟ قال : انا لا ابكي علي النصر و لكن ابكي علي تأخير النصر فوالله ان الباطل لا يصمت أمام الحق طوال هذا الوقت إلا بذنب أذنبتموه أنتم أو أذنبته أنا , ثم قال نحن أمة لا نتنصر بالعدة والعتاد ولكن نتنصر بقلّة ذنوبنا وكثرة ذنوب الأعداء فلو تساوت الذنوب انتصروا علينا بالعدة والعتاد . فأنت لم تتنصر بذكائك , انت انتصرت بذنوبنا التي اضعفتنا , هذا اولا . ثانيا : بالتاكيد جال في خاطري طريقة التفكير التي ذكرتها و سألت نفسي هذان السؤالان و عرفت تلك الاجابات . و اي شخص عادي ليس ذكيا كان سيصل الي نفس النتيجة التي وصلت اليها انت بأن اخفي في بيتي . لكن هناك سؤال ثالث لا تعلمه انت , و هو سؤال الله لي , سيسألني الله بقول لي : ماذا فعلت انت عندما جاء عنوي ليحارب ديني و يقتل عبادي , فمقاومتي لكم سواء أيديني هؤلاء الخائبين ام خذلوني فقط لأرد علي سؤال الله لي ليس اكثر .

فأظهر نابليون علامات الاستغراب الشديد المخلوط بالغضب و الحيرة فابتسم له الشيخ ابتسامة الحزين ثم مشي ليغادر المكان و مر بجانب مجموعة الوجهاء فامسك بيد اقدمهم و وضع في يده الشارة و ذهب .

القاهرة ليلا القمر مضئ و الشوارع الهادئة في منطقة باب الشعرية و اذا بالحاج محمد المغربي و سليمان الجوسقي داخلان بسرعة يقفان امام احدي الحوانيت و يقفز الحاج من علي فرسه ليفتح الحانوت فقال سليمان للحاج محمد : ماذا تفعل يا حاج محمد ؟

الحاج محمد : سأخفي كل ما امالك .

سليمان الجوسقي : لماذا ؟

الحاج محمد بعد فتح باب الحاتوت يلتف و يقول بكل غضب بصوت مكتوم : الي متي ستظل معتوها ؟ ها؟ اذهب بعيد عني , اذهب لامونة و بشرها بقنوم اصحابها ايها العاشق.

فقفز سليمان من علي فرسه و جري و امسك بيد الحاج محمد يقبلها و هو مفزوع : ارجوك يا حاج محمد قلني ماذا افعل انت احكم و اعلم مني .

الحاج محمد : الا تعلم ان الممالك سيصلهم الخبر خلال ساعات ؟ و ماذا سيفعلون بعد ذلك ؟ الن ينقضوا علي الحوانيت و البيوت ليجمعوا كل ما يحتاجونه لحرب الفرنسيس؟ فاذهب ايها المغفل و اجمع الغالي عنك و اخفيه قبل ان لا تجده غدا .

فقبل سليمان يد الحاج محمد مره اخري و قال له و الرعب يدب فيه : شكرا .
ثم جري و قفز علي حصانه و انطلق .

الموسكي بعد ساعة يدخل سليمان الجوسقي في ساحة دار كبير فذهب إلي غرفة خارجية جانيبه و ايقظ ٣ غلمان و قال لهم : استيقظوا ايها البقر .

و ضرب كل واحد فيهم برجله ليستقظوا ثم صرخ فيهم : قوموا ايها الكسالي .

فقام الغلمان مفزوعين و قالوا : سيدي .. ماذا هناك , ماذا يجزي ؟

فأشار لإثنين منهما و قال : انتما , في ظرف ساعه تجمعان لي كل العميان في ساحة بيتي هنا , هيا , اذهبا بسرعه .

و نظر للاخر و قال له : تعالي معي .

فخرجوا كلهم من الغرفة , غلمان منهما جريا وسليمان و الغلام ركضا الي الباب الرئيسي للدار فدخلاه ثم ذهبا الي باب مجلس الضيوف علي يمين صالة الاستقبال الصادر من ورائه ضحكات و قهقهات فركله سليمان برجله ففرع الجالسين في مجلس طويل يملئه السجاجيد الفخمه و الكنب و

المفروشات المختلفة والشيشة في كل ركن من الاركان و صواني الفواكه و
المأكولات المختلفة مصفوفة بجانب بعضها في وسط المجلس فقال احدهم :
ابي , ماذا هناك يا ابي ؟

فانظر سليمان للاخرين وصرخ فيهم : اخرجوا من داري .

فخرجوا راكضين ثم نظر سليمان لغلامه و قال له : انتظري بالخارج و اغلق
الباب .

فانفرد الاب بابنه فقال الابن لأبيه مفزوعا : ماذا هناك يا ابي ؟

الاب : الفرنسيس قادمون .

الابن : ماذا؟ متي ؟ و اين ؟ و كيف ..؟؟

الاب : ليس هذا المهم , المهم انهم بالتأكيد لم يتحركوا من الاسكندرية , و
بالتأكيد ان مراد بك و ابراهيم بك هما و عصابتهما لم يصلهم الخبر حتي الان
و اول ما سيفعلونه بعد وصول الخبر هو نهب كل ما يحتاجونه لحرب
الفرنسيس من متاجرنا و منازلنا . و لذلك لابد من جمع كل قشه لدينا في
حوائطنا و دورنا و اخفائه في مكان لا يعلمه لا انس و لا جن .

الابن : و انا عندي ذلك المكان .

الاب : حسنا , هيا الان نجمع كل ما في هذا البيت .

بعد ساعة سليمان الجوسقي يقف عند باب الدار فوق بضع سلاسل و أمامه
اكثر من مائة شخص يخطب فيهم : ايها العميان , ان مراد بك و ابراهيم بك
سيعلنون الحرب غدا , و انتم اكثر الناس علما بمعنى ذلك من خلال التجارب
السابقة , فهم سيخون كل بيت و حانوت لنا و سينهبون كل شئ ليجهزوا
لحربهم . ولذلك اذهبوا الان و في ظرف ساعات اجمعوا كل شئ تملكونه و
انا مثلكم لنعطيه لابني ليخفيه في مكان لا يصل اليه جن و لا انس . هل
فهمتموني؟

ردوا بصوت واحد : نعم شيخنا و سيدنا سليمان .

سليمان : احسنتم . هيا انطلقوا .

ثم نظر لابنه وقال : انهي انت مهمتك انت و حريم الدار ، و انا سأذهب و أتي بسرعة .

و تركه و ذهب .

فقال ابنه بصوت عالي مستاء : بالله عليك هذا وقته ؟؟

فترك ابنه و ذهب و لم يكثرث .

بعد نصف ساعة يقف سليمان عند دار كبيرة و يطرق الباب فقالت فتاه من خلف الباب : من ؟

فقال : انا سليمان .

فقالت الفتاه : سيدتي ، انه سليمان .

ففتح الباب و دخل سليمان في صالة إستقبال كبيرة فيها كتب محيط بالصالة من كل الجوانب و في الوسط مبخرة ضخمة عليها فحم و سيدة المنزل ترش من اجود انواع البخور علي الفحم و الدخان يتصاعد و يملئ السقف و سيدة المنزل ذات الاصول التركية بيضاء البثره ذات وجهه طويل و انف صغير مدبب تلبس بنطال احمر واسع و فوقه لباس اسود لا بالضيق و لا بالواسع عليه قماش ابيض عريض ملفوف علي البطن قريب من اللباس العثماني و شعر طويل فوقه قماشه شفافه لا تخفي الشعر و لا تظهر تفاصيله

سيدة المنزل : اهلا سليمان .

فنظرت كبيرة الخدم للخاديمات و اشارت لهن بالتجمع عندها للانصراف و اقترب سليمان و هو ينظر باضطراب شديد يمينا و يسارا و ابتسامه السيدة بدأت ترتسم علي وجهها . ثم التف الي ان وقف خلفها بعد ان كانت اكتملت ابتسامتها و هي ترش البخور و يرد هو بصوت منهك مختق و يرد : اهلا أمونة .

و فجأة ضربها بكل عزمه بكفه علي اذنها و رقبتها و خدھا الايمن فسقطت علي الارض و انفعت الي ان اصتمت بكنبه و نزل الدم من فمھا و رأسھا و غابت عن الوعي ثم انصرف وهو يري ان يخفي وجهه المنظر من البكاء و خرجت الخادمآ فاطلقن اقوي الصرخات .

في جانب اخر منطقة المشهد الحسيني (الحسين و خان الخلي) في نهاية
احد الشوارع الجانبية الضيقة المضيئ بنور القمر يقع بيت من طابقين يظهر في احد النوافذ المصنوعة من خشب الارايبسك في الطابق الارضي انارة القناديل من الداخل . و فجأة يظهر شخص علي فرس يسرع نحو البيت و يقف امام بابه و ينزل من فرسه و يطرق الباب بقوة و بسرعه ، فقال بصوت ضعيف من الداخل : من يطرق بهذا الشكل في هذا الوقت ؟

الطارق : انا الحاج محمد المغربي يا شيخ عبد الله .

الشيخ عبدالله و هو يمشي للباب : ماذا حدث يا ولدي لطرق الباب هكذا ؟

ثم فتح الباب شيخ عجوز بعمة ضخمة و وجهه مستدير و عينين ضيقتين و انف طويل و لحية بيضاء ضخمة خشنة الشعر ملفوفة نصفين من نهايتها .

الحاج محمد : كارثة يا شيخ .

الشيخ عبدالله : لا اله الا الله , ادخل يا ولدي ادخل .

و دخل الحاج محمد ليجد ممر صغير في نهايته سلم علي اليمين يسبقه باب غرفه مفتوح و انارة القنديل خارجه منه فدخل فيه الحاج محمد و الشيخ عبدالله بعده ثم اغلق الباب , وكان هناك شخص في الخمسينات من عمره جالس بجانب النافذه يدعي الشيخ محمد العشوبي (شيخ الغورية)

فقال الشيخ عبدالله للحاج محمد : اجلس يا ولدي , ماذا حدث كفانا الله الشر ؟

الحاج محمد : الفرنسيس احتلوا ثغر الاسكندرية.

ففزع الرجلان وضرب الشيخ العشوبي علي عمامته و رفع الشيخ عبدالله يده من الفرع قاتلا : سلم يا رب سلم . متي كان هذا ؟

الحاج محمد : قبل يومين .

الشيخ العشوبي : و كيف عرفت الخبر ؟

الحاج محمد : كنت هناك و رأيتهم بعيني يا شيخ محمد العشوبي .

الشيخ محمد العشوبي ينظر للشيخ عبدالله : ما الحل يا شيخ عبدالله ؟

الحاج محمد : انت يا شيخ عبدالله شيخ الازهر و انت يا شيخ محمد شيخ الغورية فلو بعثتم للمشايخ و التجار و الوجهاء و دعوتهم للصطفاف لجهاد اعداء الله سيستجيبون لكم ونوح قرانا مع مراد بك و ابراهيم بك لنواجه الفرنسيين .

الشيخ عبدالله و الشيخ محمد العشوبي ينظران لبعضهما ثم يضرب الشيخ محمد العشوبي يده فوق عمامته و يرجع الشيخ عبدالله و ينظر للحاج محمد قائلا له : والله يا ولدي ليت الامر بيدنا لنجمع الناس بتلك السرعة كما تقول . نحن في النهاية لسنا الا مستشارين ولاة الامر و لا يصح ان نتصرف بدون الرجوع لهما .

الحاج محمد يقوم من مكانه و علي وجهه علامات الغضب و الاستغراب : حقا ما تقول ؟ ولاة الامر !! اتعلم ما سيفعله هؤلاء ولاة الامر الساقطين اولاد الساقطات ؟ في خلال ساعتين او ثلاثة بعد وصول الخبر لهم سيطلقون كلابهم البشرية لتذهب كل ما يمتلكه الناس ليهبوا هم و الحشاشون الذين معهم لقتال الفرنسيين . و لن يجد الاهالي ما يحملونه ليدافعون به عن انفسهم بعد ان يغتصب الفرنسيين هؤلاء المخنثون . اما لو قمتم انت و المشايخ و الوجهاء للدفاع , سيقوم الناس للدفاع عن شرفهم و عرضهم و سيستميتون في صد الفرنسيين .

الشيخ عبدالله ينظر للارض و يهز دماغه يمينا و يسارا و يقول : لا طاقة لي بهذا . لايت من الرجوع لولاية الامر .

و فجأة ظهر صوت خيول و تكسير و صراخ , فنظر الجميع للنافذه فأروا
خيول رجال المماليك يكسروا الابواب و يقتحموا البيوت , فنظر الحاج محمد
للشيخ عبدالله بنظرة الحسرة و خرج من الغرفة ثم فتح باب الدار ليجد جندي
مملوكي يهم بكسر الباب و اخر يمنعه و يقول له : ايها الابله هذا بيت شيخ
الازهر ابتعد عنه .

ثم نظر للحاج محمد و قال له : هل هذا حصانك .

الحاج محمد : ها , لا ليس حصاني , هذا للشيخ .

فذهب العسكريان من امام الدار

فخرج الحاج محمد وهو يتواري جانبا ليهرب بعيدا عن جنود المماليك و فجأة
ظهر في وجهه ثلاثة خيول لثلاثة اشخاص ممن يشرفون علي عمليات النهب
فحاول كبيرهم و هو شاب طويل مقتول العضلات المدعو عمر القلقيجي
محاصرة الحاج محمد فجعل ظهر الحاج محمد لحائط بيت و وجهه لعمر القلقيجي
الذي قال وهو يبتسم بخبت : الي اين يا حاج محمد ؟

الحاج محمد : لا شئ كنت عند نسيبي الشيخ عبدالله الشرقاوي .

عمر القلقيجي : و من كان معكم ؟

الحاج محمد : الشيخ محمد العشوبي شيخ الغورية .

عمر القلقيجي : و فيما الجمع ؟

الحاج محمد : لا شئ فقط زيارة .

عمر القلقيجي : حسنا يا حاج محمد , سأرسل معك هذان الرجلان لتعطيهم ما
عندك من سلاح و اموال .

الحاج محمد : الان ليس عندي سلاح و لا مال , كل ما لدي راح بعد ان سطى
العربان علي قافلة لي .

فنزل عمر من علي فرسه و شهر خنجره و امسك بملابس الحاج محمد و دفعه الصقه بالحائط و وضع الخنجر علي كتف الحاج محمد بحيث أن رأس الخنجر في رقبة الحاج محمد و مقبض الخنجر علي بداية ذراعه و قال عمر له بصوت هادئ : كيف لشريك عبدالله المغربي ذراع مراد بك الايمن في ادارة امواله , ان يقول ليس معي , اتظنني ابله لاصتق هذا ؟

الحاج محمد : عيب عليك يا عمر ما تفعله معي . اولاً انت تعرفني جيداً منذ ان كنت صاحب المقهي التي بجانب حانوتي , فمنذ متي عهدت عليّ الكذب ؟ ثانياً هل هذا رد الجميل , الا تذكر عندما دفعث عنك رجال مراد بك و ابراهيم بك سابقاً و قد كان اسم عمر القلقجي المطلوب الاول ؟

عمر القلقجي مبتسماً و متراجعا : صدقت يا حاج .

ثم انزل خنجره و ابتعد خطوه للخلف و هندم لباس الحاج محمد و قال : اذهب و اختبئ في اي مكان حتي لا يأتيتك رجالي و يحطمونك .

الحاج محمد : و مالك انت و رجالك بجمع ما في جيوب الناس لصالح المماليك ؟

عمر القلقجي و هو يمشي ليرجع لحصانه : طلبوا مني ذلك و دفعوا لي وانت تعلم منذ ان تركت المقهي وانا اصبحت هجوماً بالاجرة .

الحاج محمد : حسناً .

عمر القلقجي بعد ركوبه الفرس : كما قلت لك , اختفي من امام رجالي .

ثم اكمل الحاج محمد السير بجانب حوائط البيوت يتواري فيها و ظل يدخل في الشوارع يمينا و يسارا الي ان وصل لدار كبير و وجد علي بابة اربعة شباب ضخام الاجسام اولهم جالس علي كرسي و الثاني جالس علي حجر و الثالث واقف متكئ علي الباب و الرابع ظهره للحائط فقال لهم الحاج محمد : اريد الشيخ السادات .

الجالس علي الكرسي : الشيخ لن يستطيع مقابلة احد .

الحاج محمد : لماذا ؟

قال المتكى علي الباب : لديه امور مشغول بتبويرها .

الحاج محمد : يا ولدي اريده في امر شديد الخطورة .

قال الجالس علي الكرسي : اعرف , تريده من اجل امر الفرنسيين , ولكنه سيذهب غدا لاجتماع المشايخ مع المماليك و مراد بك و ابراهيم بك .

الحاج محمد : و لكني اريده هو وليس المماليك و لا المشايخ .

فتحرك المتكى علي الباب و المتكى علي الحائط خطوة للامام اظهارا للغضب و قال احدهم : الم تسمع ما قاله لك , اذهب يا حاج من هنا الله يسهك طريقك .

فقال الجالس علي حجر : اذهب للشيخ خليل .

فضحك و معه الاثنين الواقفين وابتسم الجالس علي الكرسي ثم تركهم الحاج محمد و ذهب عائدا لشارع الشيخ عبدالله فوقف علي بداية الشارع و نظر فوجد ان عمر القلقجي و رجاله ذهبوا تاركون حصانه مكانه فركض نحوه و فكه و ركبه و ذهب مسرعا .

بعد ساعة وصل الحاج محمد بداية الطريق الصاعد للقلعة فإذا به يجد بشر كثيرين مجتمعين عند القلعة . ثم نظر يساره فوجد سليمان الجوسقي قادم نحوه علي فرس ثم وقف بجانبه و قال للحاج محمد : أذهب إلي هناك؟

فهز الحاج محمد دماغه اشارة بنعم و انطلق بحصانه و تبعه سليمان و صعدا الي الجمهور المتجمع عند القلعة فوجدوهم اكثرهم الشباب و كبار السن متوسطي الحال و بعض التجار و الوجهاء الممسكين بقناديل و شعلات و ملفين حول شخص ذو عمة كبيرة فوقها شال كبير ينزل علي ظهره و اطراف الشال ملفوف حول رقبته و ذو لحية مختلطة من الشعر الابيض و الاسود و شنب رفيع و عيين صغيرتان راكب فوق حصانه و يمسك علما كبير اسود في منتهي الفخامة من الحرير مخيط علي حوافه خيوط ذهبية و مكتوب عليه بنفس الخياطة الذهبية "لا اله الا الله محمد عبده و رسوله " يطلق عليه الناس " البيرق النبوي " و يخطب فيهم هذا الرجل و خلفه مجموعه من ثلاثة اشخاص اولهم

الحاج محمد : لانهم عندهم روح العلم و الجهاد و كانوا سنده منذ ايام ثورة القاهرة ١٧٩٥ ضد مراد بك و ابراهيم بك.

بعد اسبوع في رشيد قبل غروب الشمس بساعة في احد الشوارع في وسط المدينة الجنود الفرنسيون واقفون صفين علي جانبي الشارع و امام احد البيوت الكبيرة في الشارع مجموعة خيول عليها كبار قادة الفرنسيين ماعدا فرسين يمسك بهما احد الجنود و صاحبهما يدخلان الدار في المقدمة اثنان من العساكر ثم الجنرال جاك مينو بوجهه الأحمر وسنوات عمره الثماني والأربعين ثم خلفه نابليون ليجدا امامهما سلم من حوالي ٢٥ درجة علي رأس السلم يقف شيخ تجار رشيد يسمي السيد محمد البواب أحد كبار تجار الأرز في رشيد.

ويصيح محمد البواب مرحبا : شرفتم الدار ايها السادة الجنرالات

ويدخل الضيوف بلباسهم الغريب وقبعاتهم الحمراء ذات الريشة البيضاء إلي صالة استقبال يطلقون عليها اسم المندرة ويجلس الجنرالات فوق كنب فخم ، ثم جلس الشيخ محمد البواب بجوارهما , ومن حولهم وأمامهم تناثر العسكر مع نفر من أهل الدار.

قال المترجم : هذا هو الجنرال عبدالله مينو, وقد دخل الإسلام في قلبه.. وينوي أن يصبح مسلما ويشهر إسلامه علي الجميع. ومن تقاليدكم في رشيد ألا يظل الرجل المسلم بلا زوجة, ولقد اختار سراي عسكر رشيد الجنرال جاك مينو بعد أن يصبح مسلما أن يتزوج من بنات رشيد.

ويسكت المترجم لحظة ثم نظر للجنرالات لينقل لهم بالفرنسية ما قاله للحاضرين بالعربية, والشيخ محمد البواب فاتحا فاه مبتسم ابتسامه بلهاء وينظر للمترجم و الجنرالات ثم ينظر له المترجم : نعم , إنها زبيدة ابنتك .

أسقط في يد الشيخ محمد البواب و علامات الاستغراب و الفرحه و الحيره و المفاجأة علي وجهه فقام نابليون وقال له : أعلم انه في دينكم لابد ان تأخذوا موافقة بناتكم اولا قبل الزواج , و لذلك سنعطيك بعض الوقت لتتأخروا .

ثم نظر لمينو و قال : هيا .

وينصرف الجنرالات و خلفهم عساكرهم ..ثم ينزل الشيخ خلفهم و هو يقول :
نورتم دارانا , لا تغيروا علينا .

ثم صعد الشيخ بسرعة الحصان إلى الدور العلوي و فتح باب غرفه نوم إبنته
الذي خلفه كرسي عليه فتاة فاتنة الجمال , بيضاء , واسعة العيون التي يملئها
البكاء , يمكن للناظر ان يري حمرة الدم من تحت بثرة خديها , رقبه طويلة ,
متوسطة القامة , لا بالسمينه و لا بال نحيله , تلبس فستان ريفي بني اللون . و
تضع فوق رأسها شال مربوط علي شعر بني لامع طويل يهرب منه بعض
الخصل من تحت الشال

و يقول لها الشيخ البواب وهو يقفز من السعادة : افتحتك طاقة القدر يا
زبيدة , طلب الجنرال مينو ينك , لقد أحبك هذا المجنون .

فجاءت الام مسرعه و قالت : ما هذا الذي سمعته يا ابو زبيدة ؟

فنظر لها الشيخ محمد : كما سمعتي يا ام زبيدة , لقد اسلم هذا المجنون من اجل
ان يتزوج إبنك , لقد وقع مساعد كبير الفرنسي في حبها .

فقفزت زبيدة من علي الكرسي و هي تبكي و تقول لابويها : هل صدقتما انه
اسلم فعلا , هذا اسلم فقط من اجل ان يتزوج بنت عين اعيان رشيد , وانا اقطع
ذراعي ان كان يحبني , مؤكدا ان قائده هو من امره بذلك.

قال الوالد ساخرا : لماذا لم يقل لكليبر او بون أيتها الزكية؟ لماذا اختار مينو
تحدينا ؟ اكيد ان مينو وقع في حبك فطلب من قائده الزواج منك فوافق .

فصرخت زبيده : اقسم لكم هذا ظلم ما بعده ظلم , كيف تزوجني من رجل من
آخر بلاد الدنيا لا اعرف له لغه ولا دين ولا عادات و لا تقاليد . وقد فعلتم هذا
بي في الزواج الاول من سليم اغا ذلك الملعون السكير المغزور . و قد سجدت
لله شكرا بعد ان مات . الان تعينون الكره , الا تملون ؟

فهاجم عليها ابوها و قال : ان لم تتزوجيه , سأجعلك تتمنين الموت ولا تجدينه.

ثم تركها و ذهب .

الجمعة ١٣ يوليو ١٧٩٨ :

مجموعة من الفرسان المماليك في البر الغربي لنهر النيل رافعين بنادقهم و بعضهم شاهرين سيوفهم يهجمون بخيولهم بأقصى سرعه باتجاه الفرنسيين و هم يكبرون و يهللون , يتقدمهم قاتنين اولهم رجل سمين ووجه غليظ و لحية كثيفة من الشعر الملتوي يمينا و يسارا و يلبس عمامة ملتفه حول طاقية مثل طواقي الصوفييين الاتراك و الثاني رجل بجسم عادي ذو لحية صغيرة و يلبس عمامة مثل عمامة زميله , وخلفهم مجموعة ضخمة من قوات المشاة أغلبهم من الثوام و المغاربة و مماليك البلقان في اوروبا رافعين بنادقهم و سيوفهم يركضون خلف الفرسان بأقصى سرعة هجوما علي العدو . و في نهر النيل بجانبهم الايمن مراكب حربية تابعة للمماليك تهجم بكل قوتها علي مراكب الفرنسيين .

و عندما إقترب قائدان المماليك و فرسانهما من طلائع الفرنسيين , توقف قائد هذه الطلائع الفرنسية و أمر عساكر البنادق الذين علي الخيول و المشاة بالتقدم امامه و انتظر الامر منه للإطلاق , و بالفعل نفذ الجنود الامر وقال القائد : لا تضربوا الا بعد امري , اصبروا .

ثم انتظر بضعة دقائق ثم صرخ و قال : اضرب .

ففوجئ قائدان المماليك و فرسانهما بوابل من الطلقات من بنادق آلية و متتابعة الرمي فتوقفوا جميعا و بدأوا يطلقوا من بنادقهم الغير آلية و غير متتابعة الرمي و التي لابد حشوها بطلقة بطلقة . فوجدوا انه بعد اول طلقة اطلقوها كان قد نزل عليهم مطر من الطلقات و مات منهم الكثير , فصرخ القائدان لفرسانهم و هم يلتفوا للهروب : اهربوا!!! .

فقال قائد طلائع الفرنسيين لجنوده : توقفوا!!! .

اثناء رجوع القاتنان و فرسانهما وجدوا ان قوات المشاة قد سبقوهم الهروب بمسافة كبيرة و علي الجانب الايسر نظروا وجدوا ان مراكبهم الكبرى تحترق و عدد قليل من المراكب الصغرى تهرب فقال القائد السمين لالاخر : ماذا يحدث يا ابراهيم ؟

فنظر ابراهيم بك له باستخفاف و احتقار فاستغرب السمين ثم غضب و صرخ فيه و قال : كيف تنظر لي هذه النظرة ايها الخسيس .

فثب ابراهيم بك لجام فرسه و ابتعد عنه .

في الجامع الازهر يجلس الشيخ عبدالله الشرقاوي علي كرسي مرتفع خلفه من يساره محراب الجامع ثم المنبر بعد المحراب و امامه الشيخ محمد العشوبي و بجواره شيخ يلبس عمامة خضراء ملفوفة علي طربوش احمر ذو وجه صغير و عيون صغيرة و فم صغير و لحية بيضاء صغيرة و يلبس افخر انواع العباءات مخطط فيها الفرو من ناحية الرقبة و الصدر و بجوارهما شيخ ذو عمامه بيضاء كبيره و وجهه طويل و عيناه خضراء و لحيته طويله من شعر متعرج يلبس عباءه تساوي درجة فخامة الشيخ الذي قبله و بجوارهم الحاج محمد المغربي و الشيخ سليمان الجوسقي و خلفهم جمع لا يعد و لا يحصى من الناس يجلسون علي هيئة مجموعات بعضها ترفع لافتات , احد اللافتات مكتوب عليها " مشايخ الاحمدية " و اخري مكتوب عليها " مشايخ الرفاعية " و اخري " مشايخ الابراهيمية " و اخري " مشايخ السعيدية " و هكذا , و اصحاب اللافتات هؤلاء يهزون رؤسهم و اجسادهم اكثرهم جالسون علي الارض وبعضهم واقف و يهمهمون ويقولون : يا رب يا رب , يا لطيف يا لطيف .

سليمان الجوسقي ينظر باستغراب شديد للحاج محمد المغربي وهمس في اذنه : ما هذا الكتاب الذي اعطيتني اياه ؟ ولماذا نحن هنا اصلا و الفرنسيين علي ابواب مصر ؟

الحاج محمد : هذا كتاب البخاري . هذا ما قاله مشايخنا و علمائنا فافعل كما يفعلون و انت ساكت .

الشيخ عبدالله الشرقاوي يقبل في صفحات الكتاب و المشايخ و العلماء و الوجهاء الذين امامه و المجموعات التي لا ترفع لافتات , كل منهم ممسك بكتاب في يده و يقول لهم الشيخ عبدالله : افتحوا باب الجهاد و السير حديث فضل من جهز غازيا او خلفه بخير .

ثم نظر لهم و قال : حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا الحسين قال
حدثني يحيى - قال حدثني أبو سلمة قال حدثني بسر بن سعيد قال حدثني زيد
بن خاك رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ) قال من جهز غازيا في سبيل الله
فقد غزا ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا

ثم نظر الشيخ عبدالله للشيخ محمد العشوبي : هيا يا محمد اعد علي المسامع هذا
الحديث .

فكرر الشيخ محمد العشوبي الحديث.

ثم نظر الشيخ عبدالله للشيخ صاحب الوجه الصغير و قال : شيخنا السادات ,
تفضل .

فكرر الشيخ السادات الحديث .

الشيخ عبدالله : كرروا في سركم الحديث مع المشايخ , هيا افتحوا باب المظالم
, حديث " ألا لعنة الله علي الظالمين " . ثم نظر لهم وقال : حدثنا موسى بن
إسماعيل حدثنا همام قال أخبرني قتادة عن صفوان بن محرز المازني قال بينما
أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما " أخذ بيده إذ عرض رجل فقال كيف
سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله
يذني المؤمن فيضع عليه كفه ويستره فيقول أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا
فيقول نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال سترتها
عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته وأما الكافر
والمنافقون فيقول الأشهاد (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على
الظالمين)

ثم نظر الشيخ عبدالله للشيخ ذو الوجه الطويل : الشيخ خليل البكري , تفضل .

فكرر الشيخ خليل البكري الحديث و صوته متقطع و متوتر , يكاد يغمي عليه
من الزعب .

ثم نظر للحاج محمد المغربي و قال : تفضل يا حاج ..

فقاطعه سليمان الجوسقي و قال للشيخ عبدالله : هلا شرحت لي ما الذي نفعله هنا , اليس واجبا علينا ان نهب لقتال الفرنسيين ؟

فقال له الشيخ عبدالله : سذهب فعلا , و لكننا نقرأ البخاري لينصر الله جنودنا المرابطون لهم هناك .

سليمان : حقا , و متي ستذهبون ؟ بعد ان نجد الفرنسيين علي باب الجامع , ها؟

فاستغفر الشيخ عبدالله و الجالسون من كلام سليمان فوغزه الحاج محمد المغربي و قال له بغضب مكتوم : اسكت يا سليمان اسكت .

فغضب سليمان و قام و تركهم فتبعه الحاج محمد ولحقه خارج ابواب الجامع عند مربوط الخيول فقال له : سليمان انتظر .

فرد عليه سليمان بغضب و استخفاف : إعتبرتك قوتي في كل شئ , و الان تجرني كخروف لانضم لقطيع من الخراف بعد ان كنا بالأمس خلف عمر مكرم القائد البطل حامل بيزق النبوه ...

فضحك الحاج محمد ساخرا و مقاطعا له : ها ها ها , من الذي يتكلم عن البطولة و بيزق النبوه , صاحب الشيخة أمونه ؟ من الذي كان ينقل لماجلون كل دبة نملة في البلاد , اليس هي ؟ كنت تعلم انها تنقل الاخبار لهم , لا بالعكس كنت تغريها بالاخبار التي عندك حتي تأتيك و تسهر معها الليالي , و عندما كنت احذرك , كنت تقول لي و ماذا سيستفيد الفرنسيين من تلك الاخبار اكثر من ان يقتنصوا تجارة من هذا التاجر او ذاك ...

فقاطعه سليمان بلكمه علي وجهه أردته أرضا و بثق عليه و قال : ماذا أنتظر من متقرب و منتفع من مشايخ النفاق و مماليك الفساد الا المعاييرة و الشماتة .

و ذهب و تركه.

على بعد بضع كيلومترات من موقع هزيمة المماليك امام طلائع الفرنسيين
يقف ابراهيم بك بحصانه علي شاطئ النيل و تقترب منه المراكب الاتية لانقاذ
الهاربين ,الي ان رست امامه اول مركب و قال احدهم لابراهيم بك وهو يهم
بركوب المركب : اين مراد بك يا سيدي ؟

ابراهيم بك و علي وجهه الاستياء : انقلع من هذه الجهة.

الجندي : واين انت ذاهب سيدي؟

فدفعه ابراهيم بك من وجهه و قال له : أتستجوبني ايها النكرة ؟

وطلع للمركب و قال للمراكبي : اذهب بنا للبر الشرقي .

فالتف المركب و بدأ التجديف ، ثم رست باقي المراكب التي ركبوها جنود
ابراهيم بك ، و نادوا علي جنود المشاه في مؤخرة جيش مراد بك : الي اين
انتم ذاهبون ؟

فرد احدهم : الي انبابة . فإتبعونا .

على البر الشرقي ينزل ابراهيم بك قرب زاوية علي بك ببولاق و هي جزء
من بيت كبير ملك علي بك احد كبار المماليك مطل علي النيل عبارة عن اربع
اعمدة علي الطراز العربي و سقف من الاخشاب بها اربعة اسوار قصيرة بين
الاعمدة و الارضية بها افخر انواع السجاد و بها ثلاث كنبات من الكنب
الملكي جالس علي احدها ابو بكر باشا حاكم مصر من قبل السلطان العثماني
في الاستانة , فدخل عليه ابراهيم بك و قال متلهفا : اين العلماء و الوجهاء ؟

قال ابو بكر باشا و هو يرتجف من الخوف : لم يأتوا بعد ؟

ابراهيم بك و هو غاضب : لماذا لم ترسل لهم .

ابو بكر : قالوا انهم سيجتمعون في الازهر يقرأون البخاري لحل الله يفرج عنا.

ابراهيم بك يضرب علي رأسه متحسرا : ااااا , اهذا وقته , وهل انتقنا هذا ؟
من قال لهم يفعلوا ذلك ؟

ابو بكر : مراد بك .

ابراهيم بك : لعن الله هذا الخنزير .

فظهر من بعيد الشيخ عبدالله الشرقاوي و السادات و خليل البكري و محمد العشوبي و الحاج محمد المغربي و عدد من المشايخ و وجهاء المدينة فقال ابراهيم بك : هاهم مشايخ الغفلة .

ورمي بجسمه علي الكنبه منهكا .

بعد دقائق دخل الشيخ عبدالله الشرقاوي و السادات و خليل البكري و محمد العشوبي و هموا بالجلوس و الباقون واقفون فقالوا بعد تنهيدة العجائز : السلام عليكم .

ابراهيم بك : اين عمر مكرم ؟

فنظر المشايخ لبعضهم و قال الشيخ خليل البكري غاضبا : و لماذا تريد ..

فقاطعه ابراهيم بك و قام غضبانا و قال : لا تفتح فمك يا شيخ الغناء و و ليالي السهر .

فقام الشيخ خليل البكري من المجلس و ذهب غاضبا ,

ثم نظر ابراهيم بك للشيخ عبدالله الشرقاوي و اقترب من وجهه و قال له بصوت غاضب مكتوم : قل لي ان عمر مكرم لن يأتي .

فقال الشيخ عبدالله : لا اعلم .

فالتف بجسده غاضبا و ضرب برجله رجل الكنبه و رفع يده متحسرا و قال صارخا : انتم لا قيمة لكم في قلوب الناس التي تريد الجهاد , انتم شيوخ كنا نحمد الناس بكم , و قد جاء اليوم الذي نحتاج فيه الشيوخ القادرون علي استنهاض روح البطولة في الناس , ولكن هيهات , فقد اشترينا عداوتهم سنوات بعد سنوات .

ثم التفت للمشايخ و للباشا وقال : قولوا لي ايها الخارقون ماذا نفعل ؟

فقال الحاج محمد المغربي: ليس عندنا الا التترس , فكل ما نملكه هو بناء المتاريس من بولاق الي شبرا .

فنظر اليه ابراهيم بك صامتا عدة ثواني ثم نظر لهم و قال : هل عند احدكم فكره من اين سيأتون ؟ هل سيكملون في البر الغربي ؟ ام سيعبرون الي الشرقي ؟

فقاطعه الحاج محمد قائلا : الاثنين , اعمل حسابك انهم قادمون من البرين , و جهاز قوات علي البرين , فإذا جائوا من البر الشرقي او الغربي يجدونا مستعدين .

فقال ابو بكر باشا و هو مرعوب : و هل لدينا ما يكفي لتأمين البرين ؟

فنظر له ابراهيم بك غاضبا : ااه , لا ينقصني الا هرطقة هذا المدلل .

فنظر ابو بكر باشا له مجروحا و نظر المشايخ و الوجهاء لبعضهم و للارض اخرجوا من هذه الكلمة , ثم نظر ابراهيم بك للحاج محمد و قال له : اكمل

الحاج محمد : نسق مع مراد بك بأن يأمن هو البر الغربي و انت تؤمن الشرقي و تقسمون المدافع علي كل بر لقسمين الاول موجه للنيل و الاخر موجه للشمال جهة قوم العدو .

قال ابراهيم بك : احسنت , و ستكون انت رسولي لمراد , فاذهب الان .

ثم خرج ابراهيم بك و نادي احد مساعديه , و ابتعد قليلا عن الزاوية و وضع ذراعيه فوق كتف مساعده و قال له و هم يمشيان بعيدا : اسمع , ليس لك دخل بكل هذا الهراء , لك مهمة واحدة لو نفذتها سأعطيك ما لا تحلم به من المال , مهمتك ان تنزل علي قصري الذي تعرفه و تأخذ كل قطعة فيه كبيرة كانت او صغيرة و انقله الي بيوت صغيرة لي في اماكن مختلفه من البلد ستبلغ زوجتي زخيلة بأماكنهم , و اذا لم تستوعب هذه البيوت كل مقتنياتنا فستذهب بالباقي الي اقاربنا و من نثق فيهم و زخيلة ايضا تعلم اماكن هؤلاء .

انهي هذه المهمة ثم عد و بلغني . ها ، سمعتي ، لابت ان تأتي و تبلغني حتي و إن رأيت نابليون واقف بسيفه فوق رأسي . اتفقنا ؟

هز المساعد رأسه و قال : امرك سيدي .

في مكان هزيمة المماليك مع طلائع الفرنسيين في ارض صحراوية خالية علي بعد ربع كيلومتر عن شاطئ النيل تحت مظله كبيرة تشبه رأس خيمة مثبتة في بأربعة اعمدة حديدية مغروسة في الارض و عمود في الوسط ، يقف نابليون وقادته تحتها متلفين حول طاولة عليها خرائط ، يقول نابليون : كلير و مينو و بون ، انتهوا لما سأقله بالحرف الواحد ، الخطة كالآتي : سيتكون الهجوم من هجوم بري و هجوم بحري . فقوات البرية ستسير علي البر الغربي بمحاذاة شاطئ النيل علي تشكلة " الجناح الايمن - القلب - الجناح الايسر " . و عند مقابلة العدو سننفذ خطة التطويق التي وضعنا ملامحها سابقا و هي مكونة من ١٢ نقطة :

١. قوات القلب ستقسم الي اربعة اجزاء متساوية ، الجزء الاول سيلتحم مع قوات الجناح الايمن و سيلتحم معهم قوات الجناح الايسر .
٢. سينبأ الجزء الثالث من قوات القلب بتجميع مدافعه و البدء بالقصف .
٣. ستنتزل مدافع "جريبوفال" المتحركة من المراكب علي الشاطئ في نقطة تكون مقابلة للعدو و بمجرد نزولها يبدأ القصف باتجاه المماليك .
٤. ستتشغل قوات المماليك بالقصف من الشمال من قوات الجزء الثالث من القلب و من الشرق جهة النيل من مدافع المراكب حينها تتحرك القوات الملتحمة (الجناح الايمن و الجناح الايسر و الجزء الاول من القلب) جنوبا من الجهة الغربية للعدو .
٥. بمجرد الوصول الي الجانب الغربي للعدو تنقسم قوات الجناح الايمن الي نصفين و يتوقف النصف الاول و يبدأوا بالهجوم علي المماليك من جهة الغرب بينما باقي القوات تكمل مسيرها جنوبا ثم تبدأ بالالتفاف شرقا من خلف المماليك .
٦. في هذه اللحظة يتحرك الجزء الثاني من قوات القلب لتحل محل الجناح الايمن و تبدأ بشن هجوم علي المماليك من الشمال الغربي .
٧. بينما يتحرك الجزء الرابع من قوات القلب لتحل محل الجناح الايسر و تبدأ شن هجوم علي المماليك من الشمال الشرقي .

٨. مع بداية التفاف القوات المتحدة شرقا يتوقف النصف الثاني من قوات الجناح الايمن و يبدأون الهجوم علي المماليك من الجنوب الغربي .
٩. بعد التوغل شرقا يقف الربع الاول من قوات القلب في الجنوب و يشنوا هجوما علي المماليك من الجنوب بينما تكمل باقي القوات مسيرها ثم تبدأ بالالتفاف لتتجه شمالا من الناحية الشرقية .
١٠. حينها تنقسم قوات الجناح الايسر نصفيين و يقف النصف الاول في الجنوب الشرقي للمماليك و يشنوا عليهم هجوما و تكمل باقي القوات مسيرها متجهه شمالا.
١١. تعطي باقي القوات المتحركة انذارا للمدفعية القادمة من السفن بالتوقف عن القصف.
١٢. يقف النصف الثاني من قوات الجناح الايسر شرق المماليك و يشنوا هجوما عليهم , من امامهم المماليك و ظهرهم للنيل تحميمهم المراكب الفرنسية.
- هل من سؤال ؟
- القادة : لا**
- نابليون : اهم شئ بالنسبة لي , اريد مجزرة في البداية لا ينسوها , لكن إن انهزموا , افتحوا لهم طرق متفرقة للهروب , ليس طريقا واحدا يهربون منه كئله واحده , لا, طرق مختلفة . و اذا انهزموا قبل ان تكملوا خطة التطويق , اكملوها لكن دون قصف . و بعد ان يهربوا جميعا ارجعوا الي ما كنتم عليه قبل تنفيذ الخطة يعني قوات الجناح الايمن ترجع مكانها و هكذا القلب و هكذا الجناح الايسر . مفهوم ؟
- القادة : نعم .**

الأربعاء ١٨ يوليو ١٧٩٨ :

على اطراف القاهرة عمر القلقجي راكب علي فرسه وسط مجموعة من الفرسان يقول لهم : لا تلتفتوا للحوانيت , فالحوانيت من المؤكد ان احدهم نهبها او اصحابها افرغوها لعلمهم انها ستهب . ركزوا علي البيوت و خصوصا بيوت و قصور المماليك , فإنهم أخذوا كل رجالهم للقاء الفرنسيين و بيوتهم الان عارية . و بالتأكد تعلمون ان كل ما اخناه من بيوت و حوانيت اهالي الارياض الايام الفائتة لا يعد شيئاً بالنسبة لما هو موجود في بيوت أولئك الخزائير . فلا اريد تقاعسا او اهمالا . مفهوم؟

احد فرسانه : و لكن يا سيدي ثقلت غنائمنا من اهالي الارياض علي دوابنا و لا نجد ما سنحمل عليه ما سنأخذه من بيوت المماليك و وجهاء هذه المدينة , فإن غنائم بيت واحد منهم ربما تعادل كل ما جمعناه من بيوت الرقيقين جميعهم .

عمر القلقجي : صحيح , ولهذا سأذهب أنا و ثلاثة او أربعة من الرجال مع الغنائم نخبها في الجبل خلف القلعة . و بعد ان نعود ننطلق جميعنا لبدء مهمتنا .

احد الفرسان : وهل تظننا سنج لنتركك تذهب بالغنائم وحك ؟ نحن معك خطوة بخطوة الي ان تنتهي من هذه المهمة و نتقاسم و كل حي يأخذ نصيبه .

فأظهر عمر علامات الاستغراب علي وجهه و قال لهم : ماهذا؟ اتشكرون في ؟

قالوا في صوت واحد : نعم

عمر : الا يكفيكم ضمانا اني كأني عاقل لن التفت الي غنائم الرقيقين الضئيلة و انتظر مثلكم غنائم المماليك النسمة ؟

قال احدهم : لا يكفينا , نحن لا نضمك و لو تركت عندنا يدك و رجلك و ذهبت بدونهما .

فطارت علامات الاستغراب و الخبث من علي وجه عمر و قال : ماذا سنفعل اذا بهذه الغنائم ؟

فقال احدهم : سنذهب معك نخبأها في الجبل ثم , ننزل معنا لنقتضي مهمتنا .

عمر : حسنا , اذهبوا انتم بالغنائم خبئوها و اتركوا منكم اثنين معي لتتجول و نتفحص البك لنجمع المعلومات عن البيوت التي نستهدفها , فبمجرد رجوعكم من الجبل سأتيكم و نطلق . هل هذا جيد ؟

قالوا : نعم جيد .

عمر : حسنا .

ثم أشار لاثنيين منهم و قال لهما : اتبعاني . ثم انطلق .

فدخل عمر المدينة و ظل يتجول في شوارعها فوجدها خالية و القنورات مرمية في كل مكان و القناديل غير مضائة , فقال في استياء : ما هذا القرف , لماذا لا يكتس احدا امام بيته او حانوته و لماذا لا يرشون الماء و يضيئون القناديل ؟

فابتسم احد الفارسين اللذان معه و قال : الست من هذه الدنيا ؟ الناس منذ ايام و هم يتجمعون و يرابطون عند البر الشرقي في بولاق ليتمتروا استعدادا للقاء الفرنسيين.

فنظر له عمر مستاءا : و لماذا تبسم ايها اللابله ؟

فقال : لان فتوه مثلك تارك الرباط مع المجاهدين و يعس علي السرقة .

فضحك عمر و قال : و لماذا لم تسأل نفسك هذا السؤال ؟

فابتسم الفارس و نظر امامه متحسرا : لأنني قذر مثلك .

فاستغرب عمر ثم نظر امامه فرأى جمع من الناس في ساحة السوق الذي في نهاية الشارع الذين يمشون فيه و الحوانيت مغلقة و امام الناس اربعة اشخاص يخطبون فيهم فأشار الي الفارس الذين معه بأن يتوقفوا و ينزلوا من علي خيولهم فنزل هو من فرسه و تلثم و اخفي وجهه و مشوا بهوء إلي ان انضموا لمؤخرة الجمع فوجدوا الاربعة الذين يخطبون في الناس يظهر عليهم علامات الغني و الوجاهه يقفون امام الناس

و يقول احد الاربعة : ان التجار الاجانب في بلادنا اتحنوا مع نصاري الثوام و الاقباط المصريين و الاروام و نقلوا اخبار كل كبيرة و صغيرة للفرنسيس علي مدي سنين طويلة سابقة تمهيدا لغزوهم لنا . ولم يكتفوا بذلك فقط , اغنق عليهم الفرنسيين برؤوس اموال و بضائع ليبتلعوا اسواقنا و يجعلونا شحاذين لا نجد ما نشتريه و نبيعه ثم نحول لأدلاء لهم . ولولا تضيق ولاية الامر عليهم لكان تحقق ما ارادوا . و لهذا عندما فشلوا في تركيعنا تجاريا , جاثونا بعسكرهم ليركعونا بالسلاح . ولذلك وجب علي جنود بلادنا محاربة عساكرهم , اما نحن , فواجب علينا ان ننقض علي اذرعتهم في بلادنا و هم النصاري و نأخذ كل ما عندهم في حوائثهم او بيوتهم او كنائسهم او اديرتهم .

فصرخ الناس و قالوا : الله اكبر الله اكبر

فقال الرجل : هيا انطلقوا و لا تتركوا شيئا.

فنظر عمر القلقجي للاثنتين اللتان معه و استار و رجع لفرسه و هم معه و ركبا خيولهم و انطلقوا الي المكان الذي تركوا فيه زملائهم .

وصل عمر القلقجي و الفارسان فوجدوا زملائهم قد وصلوا لتوهم فقال احد زملائهم لعمر : ما الخبر ؟

عمر : سيذهب الناس للبيوت النصاري و حوائثهم و كنائسهم لينهبوا ما فيها .

فقال الفارس : حسنا فلنذهب معهم .

عمر : اصبر لو ذهبتا مع الناس لن نحصل الكميات التي نريد , ما في بيوت المماليك اكثر مما في بيوت المصريين كلهم من الاسكندرية الي الصعيد .

الفارس : و لكننا اذا دخلنا بين الناس سنختفي وسطهم و لن يكشفنا احد .

عمر : رجال المماليك في الحرب و لن تجد علي بيوتهم الا أنفار قلائل سنقتلهم بضربة سيف واحده .

قال باقي الفرسان للفارس : نعم صدق عمر .

قال الفارس : اذا هيا بنا , بمن سنبدأ ؟

عمر : بقصر مراد بك .

في احد الطرق القريبة المؤيدة لقصر مراد بك , عمر القلقجي و زملائه لابسين ملابس عادية و يمشون بخيولهم بهدوء حتي لا يستتفروا الناس ضدهم و ينظرون يمينا و يسارا و اذا بالناس في حالة هياج شديد والناس تكسر في الحوائت و يسرقونها

و هناك من يركض و هو يحمل شوالين فوق ظهره و اخوته يلحقونه بمثله و كبيرهم واقف علي باب حائوت مكسور بقنيل للاضائه ثم بعد ان انتهو هرب و لحقهم

و اخر يقفز من سلالم بيت و هو يهرب و في يده صنوق يتساقط منه قطع ذهبية و النساء في البيت يصرخن

قال احد الفرسان اللذان كانا مع عمر في اجتماع السوق : هذة ليست بيوت نصاري , فلماذا ينهبونها ؟

فابتسم عمر و قال له : و هل صدقت ان ذاك التاجر الخنزير امر الناس بنهب بيوت و حوائت النصاري عقابا لهم علي تعاونهم مع الفرنسيين فعلا ؟ هذا التاجر لو بحث في اسراره ستجده نفع تجار و جواسيس الفرنسيين اكثر من النصاري . ان هؤلاء الغوغاء الذين امامك و هذا التاجر و غيرهم يستغلون الفراغ الذي احثه غياب رجال المماليك , فانطلقوا ليحققوا حلمهم في النهب و السلب الذي كان المماليك يحرمونهم منه بسبب نهب المماليك لكل كبيرة و صغيرة في البك .

فضحك احد الفرسان و قال لعمر : و ماذا نفعل نحن ؟

قال عمر مبتسما : نأخذ حصتنا من النهب .

و بعد انتهاء الطرق ظهر امام اعينهم قصر مراد بك و امامه نفر من الحرس , فأشار عمر لزملائه بالتفرق يمينا و يسارا و تقدم هو في اتجاه مستقيم و دخل علي الحرس و قال : هااا اهلا بالبائسون .

فقال كبيرهم و هو يتلفت يمينا و يسارا و يشير لحرسه بالانتشار يمينا و يسارا و قال لعمر : عمر , هذا ليس وقتك يا عمر .

فأظهر عمر علامات الاستغراب الماكر و قال : ما بك يا رجل , لماذا انت حاد هكذا ؟

فعندما اقترب الحرس من زاويا السور الامامي للقصر , ظهر رجال عمر بالبنادق مشهرة و معمره في وجهه الحرس ففزعوا و فزع كبيرهم ثم نظر لعمر و قال : عمر , لا تطلق النار , المنزل فارغ , مراد بك افرغه لم يترك فيه الا الرخام علي الارض و الحوائط .

فطار عقل عمر من الغضب أمسك برأس كبير الحرس و قال : ماذا تقول ايها الساقط ؟

كبير الحرس : ادخل و انظر بعينيك .

فدخل بفرسه بسرعة و تبعه بعض من فرسانه و كسر باب القصر و دخل فوجد القصر فارغا تماما , فلطم من دخلوا معه علي وجوههم و بعضهم نزل علي ركبتيه و ضرب عمر علي رأسه ثم خرج و شهر بنقيته في رأس كبير الحرس و قال له : طبعاً لو علمت ان احدا من رجال مراد بك علم بقنومي , سأسلكك حيا انت و شبابك هؤلاء , اتفقنا ؟

فقال له : اتفقنا .

فجري عمر و تبعه فرسانه فقال احدهم لعمر : هيا الي قصر ابراهيم بك .

فقال له عمر : لا بل سنذهب الي بيوت المماليك الصغار الذين ليس لديهم رجال ينقلون لهم متاعهم . وليس مستعبدا ان نجد هؤلاء الخنازير الكبار ارسلوا متاعهم لخنازيرهم الصغار .

الخميس ١٩ يوليو ١٧٩٨ :

علي البر الشرقي للنيل بجوار بولاق الخيم منصوبة و اصحاب الحرف و
التجار و متوسطي الحال و الشباب من أهل بولاق والقسطاط و مصر القديمة
مجتمعين يتعاونون علي اقامة المتاريس و التجهيز الخيم للمرابطة للقاء
العدو و بعض الشباب يجمعون الاموال من المتبرعين المتراحمين ليشترعوا
بكل ما يملكون من اموال في سبيل الله , و مقول يشرف علي العمال و هم
يشيدون اسوار صغيره من اشولة الرمل ليختبوا خلفها و يطلقوا النار علي
العدو منها . و في ظل كل هذا يعبر بجوارهم الشيخ عمر مكرم و بيده العلم
الاسود الكبير المسمي بالبيريقي النبوي و خلفه الشيخ عبد الوهاب الشافعي
الشيخ الازهري الفقيه و ابن عمه الشيخ الازهري عمدة احدي الحارات
الشيخ اسماعيل الشافعي و الشاب الازهري يوسف الشافعي و معهم سليمان
الجوسقي و خلفه ابنه و خلفهم جيشان يمشيان في كتلتان متوازيتان و ينادي
الشيخ عمر مكرم : حي علي الجهاد حي علي الجهاد .

فتصبح الجماهير : الله اكبر الله اكبر .

وبعد مسافة مر الشيخ عمر مكرم و من معه امام زاوية علي بك الجالس فيها
الباشا الوالي و المشايخ و الوجهاء وهو ينادي : حي علي الجهاد حي علي
الجهاد .

فقال الشيخ السادات : من هذان الجيشان اللذان معه ؟

فقال احد الوجهاء : الاول جيش العميان اتباع سليمان الجوسقي و الثاني جيش
من الأرئود (جنود من دول البلقان تابعين للمماليك) قادمون من دمياط .

قال الشيخ محمد العشوبي : و من جمع الشامي علي المغربي ؟ فلم يجبه احد .
وظلوا سائرين بهذا الشكل الي ان وصلوا الي المعنية وانتظروها قليلا لي ان
وصلت فوجدوا شخصا نازل منها فامعن سليمان الجوسقي النظر فوجد الحاج
محمد المغربي ينزل من المعنية و يتجهه للزاوية فأتجه له سليمان جاتبا و
اوقفه و قال له : من اين الي اين ؟

الحاج محمد : كان قد ارسلني ابراهيم بك لمراد بك لابلغه بالتجهيز في البر الغربي و اننا سنجهز في البر الشرقي لاننا لا نعلم من اي بر سيأتون . و قد فعلت .

سليمان : و ماذا قال لك مراد بك .

الحاج محمد : لم اجده و لكني ابغيت مساعديه .

سليمان : الم يسبوك و يسبوا ابراهيم بك معك وقالوا لك ساخرين من ابراهيم بك هذا ليعطينا الاوامر , انقلع انت و ابراهيم بك بعيدا عنا .

الحاج محمد : لا لم يقولوا ذلك و لكنهم ابغوني انهم يعتقدون ان الفرنسيين قادمون من البر الغربي لانهم هزموا امام طلائعهم من عدة ايام في البر الغربي , و في الغالب سيسيروون في نفس البر الي ان يصلوا لانبابة , ولذلك علي ابراهيم بك ارسال قوات من عنده لزيادة تأمين البر الغربي .

فسمع الجميع صراخ ابراهيم بك و هو يركض نحوهم و الشيخ عمر و ثلاثة مساعديه الازهريون يشرفون علي ركوب جنودهما في المعديّة و يقول ابراهيم بك صارخا : حاج محمد حاج محمد .

فوصل ابراهيم بك امام حاج محمد و سليمان الجوسقي و تظاهر انه لم يري الشيخ عمر وقال للحاج محمد : ها ماذا فعلت ؟

حاج محمد : ذهبت فلم القي مراد بك فبلغت مساعدينه بما قلته لي ..

فقاطعه ابراهيم بك فجأة و نظر للشيخ عمر و قال : شيخ عمر , ماهذا ؟

و تقدم نحوه بلهفه و قال له : شيخ عمر ارأيت ما الم بنا ..

فقاطعه الشيخ عبد الوهاب الشافعي(شيخ ازهري) : ارجوك يا ابراهيم بك ابتعد عنا و كفي ما حدث من تحت رؤوسكم .

فتجاهله ابراهيم بك و نظر للشيخ عمر و قال : شيخ عمر ارجوك ليس هذا وقت ..

المساعد : انهم قادمون من البحيرة و دمياط و دمنهور و الشرقية و الغربية و وجه بحري كله و من الصعيد ايضا , لذلك يأخذ الوصول وقتا , و مع هذا علي الاكثر سيأتون غدا او بعد غد .

ابراهيم بك : يا الهي , غدا او بعد غد !! و هل فيهم قبائل الهنادي و اولاد علي؟

المساعد : نعم سيدي .

ابراهيم بك : و اين عمر القلقجي ؟ هذا ليس بعيدا !! لماذا لم يأتي ؟

فتوتر المساعد و نظر للارض يمينا و يسارا . فأمسك ابراهيم بك بملابسه من صدره و قال مفزوعا : ما بك ؟ لماذا لم ترد علي ؟

فقال المساعد : هجم عمر علي بيوت المماليك و قتل الحراس و سرق كل ما وقعت عليه يداه .

فضرب ابراهيم بك علي رأسه و تراجع للخلف و هو يترنج إلي أن سقط جسده كالجثة الهامدة علي الكنبه امام اعين الشيوخ و قال : ايها السافل ابن السفلة .

على الجانب الاخر في البر الغربي في قرية باشتيل انبابة , يدخل مراد بك خيمة القادة و هو يصرخ في بعض اتباعه الداخلين خلفه : ليتني اتخذت خرافا تساعني كانت ستفنعني اكثر منكم , اربعة ايام ؟ اربعة ايام لكي تفرغون قصرا واحدا و تنقلون متاعه الي بيوتي الاخري ؟ و الله اني نقلت المدافع من البر الشرقي للبر الغربي و ذهبت و حاربت طلائع الفرنسيين و رجعت و تترست في البر الغربي في اقل من اربعة ايام . لا و الأدهي ان كبيركم , البقرة الكبرى , يأتي الان ويقول ان البيوت الصغيرة إمتلئت و لن تستطيعون نقل متاع قصري في الجزيرة , ماذا تريدوني ان افعل , هل اتركهه للفرنسيين ليتلوعونه ؟

فدخل احدهم قائلا : سيدي , الشيخ عمر مكرم و رجاله جاءوا .

فغضب مراد بك اكثر و دفع مساعديه و خرج يمشي نحو الشيخ عمر مكرم
الراكب علي فرسه : ماذا تفعل هنا يا عمر , اذهب بعيدا عن معسكري .

فمر الشيخ و اتباعه دون ان يردوا عليه ثم توقفوا اقصي جنوب المتاريس ,
فضرب مراد بك الارض غيظا ثم ذهب .

السبت ٢١ يوليو ١٧٩٨ :

بشتيل انيابة البر الغربي , النهار غائم و الرياح تشتت قادمة من الشمال تضرب في وجه مراد بك وعساكره الواقفون خلف المتاريس الخارج منها فوهات المنافع و البنادق و خلفهم بمسافه قليله الشيخ عمر مكرم و رجاله منحرفين لجهة الغرب قليلا و العواصف تضرب في وجههم ايضا . و علي البر الشرقي إستعدادات مثل هذه و لكن ابراهيم بك واقف و خلفه عدد من الخيم و جمهور المعتصمين فيها من اصحاب الحرف والشباب ومتوسطي الحال وبعض جنوده و مماليكه .

ابراهيم بك واقف يغلي من الغضب و يصرخ في رجاله : يا ويلي من البهائم , حتي وقتنا هذا لم يأتي اولاد علي و الهندي و باقي العربان , اذا متي سيأتون؟ بعد ان اجد الفرنسيين في بيتي ؟

فلمح احد جنوده يضحك غير مبالي مع زميله في خفية خلف العساكر الواقفين خلفه , فنادي عليه وقال : ما هذا , تضحك ؟ والله لو كنت في رحلة صيد ستكون في جد أكثر من هذا .

فقال الجندي : سيدي انت تعرف ان الفرنسيين مغلوبون لا محاله , فنحن مقاتلون اشداء غلبنا من سبقوهم , و ليس ادل علي هذا من غزو حسن باشا القبطان و من بعده اسماعيل بك , ظلوا في بلادنا سنوات قليلة ثم رجعنا علي رأس البلاد مره اخري , فلما الخوف ؟

فابستم ابراهيم بك و قال : نعم اصببت . ثم تركه و التفت للمراقبه .

في البر الغربي . مراد بك واقف يراقب و الجنود خلفه واقفين غير منظمين كل ثلاثة او اربعة مع بعضهم يتسامرون و الرياح القادمة من الشمال تشتت فطيرت الرياح قربة ماء لاحت الجنود واقف مع ثلاثة من اصحابه فأصدمت بظهر احد الجنود الجالسين علي الارض يلعب مع زملائه بالاحجار , فضحك زملائه فاستشاط غضبا و قام و ضرب صاحب القربة , فهجم اصحاب صاحب القربة عليه و اشتعل التضارب بينهم ,

فالتفت مراد بك دون ان يتحرك و صرخ فيهم : يا اولاد الكلب اصمتوا لعنة الله علي من اراني تلك الوجوه المسخ .

فهذبوا و سكتوا .

ثم نادي مراد بك علي احدهم فجاء ووقف بجانبه و قال مراد بك له : اسمع جهاز مجموعه من ١٠ او ٢٠ جنديا ممن معك و قف في نهاية جيشنا , وبمجرد بدء القتال التف و اذهب و اقتل عمر و ثلاثة الشيوخ الذين معه .

فقال الجندي : و الحاج محمد المغربي و سليمان الجوسقي ؟

مراد بك : لا , دع هؤلاء , هؤلاء لهم تفاهات معنا منذ زمن , و لكن مؤكد ان بريق عمر مكرم مؤثر عليهم في هذه الظروف لهذا وقفوا معه , و سينتهي تأثيره بعد ان تنتهي هذه الظروف و حينها سنتفاهم معهم مجددا .

في الخلف يقف الشيخ عمر مكرم منحرفا للغرب قليلا بعيدا بمسافه بسيطه عن جيش مراد بك , فتقدم له الشاب الازهري يوسف الشافعي و قال له :
شيخ عمر لماذا نقف في هذا المكان , لماذا لا نتقدم مراد بك و نقف امامه ؟

الشيخ عمر : لو كنت مكان نابليون لفكرت في اسلوب تطويق الخصم لسحقه , و هذا لأسباب كثيره , اهمها : التشكيل العسكري الذي يقف به مراد بك "الكتله الواحده" . لكن لو وقفنا بهذا الانحراف البسيط , سنعرف بمجرد بدء القتال انهم سيحاولون التطويق فعلا , حينها سنطلق غربا متظاهرين بالهروب حتي اذا غصوا الطرف عنا التففنا و رجعنا و كسرنا الطوق عن جيش مراد بك .

يوسف الشافعي : سيدي .. ان مراد بك يكرهك و انت تكرهه ..

فقاطعه الشيخ عمر و نظر له بحده و قال : عندما يصبح دين الله مهندا , ضع يدك في يد الكلاب ماداموا سيفعنوك في هزيمة عدو الله , ثم اذا زال التهديد , التفت لتصفية حساباتك بعدها .

في قرية ام دينار التي تسبق بشتيل مباشرة . اهالي القرية يركضون في الطرقات ليتجمعوا علي جانبي الطريق الرئيسي الذي يهتز تحت ارتال الجيش

الفرنسي الذي وصلت طلائعه في قرية بشّيل , و بدأت القوات تصل تباعا
ليأخذ كلّ موقعه .

وصل بون علي رأس قوات الجناح الايمن ووقف امام جنوده قائلا : اريدكم
في ظرف دقائق تنقسمو قسمين وانتظروا اوامري .

ثم وصل كليبر علي رأس قوات القلب ووقف امام جنوده قائلا : انقسموا
اربعة اقسام متساوين و الجزء الاول المحاذي لقوات الجناح الايمن يذهب
ويسلم نفسه لقوات الجناح الايمن و الباقون يلتزمون اماكنهم ينتظرون اوامري
.

فقسم قوات القلب انفسهم و انفصل الجزء الاول و اتجهوا الي قوات الجناح
الايمن و ذهب ادهم للقائد بون : سيدي نحن الجزء الاول من قوات القلب .
بون : حسنا .

ثم نظر لقوات الجناح الايمن وقال لقواته بصوت عالي : فليذهب القسم الثاني
من قوات الجناح الايمن و يقف خلف القسم الاول بمسافه بسيطة .

ثم نظر لجندي الجزء الاول من قوات القلب و قال له : اذهب انت و زملائك
و فقوا خلف اخر جندي من القسم الثاني من قواتي بمسافه بسيطة .

بعد ريع ساعه جاء مينو ووقف بجانب بون و قال له : ها انا ذا يا بون .

بون : هل قسمت رجالك ؟

مينو : نعم .

بون : حسنا , اجعل القسم الثاني من قواتك خلف القسم الاول و اجعل القسمين
خلف الجزء القادم من القلب .

مينو : حسنا . و انطلق .

وبعد ان اصتطفت قوات مينو خلف الجزء القادم من القلب اشار مينوليون ,
فأشار بون لفرق الطبول , فبدأ الطبل و بدأ بون بالسير و بدأت القوات
المتحدة بالتحرك فأشار بون لكليبر , فنادي كليبر علي المدفعية في قوات
القلب و قال : تقدموا و تمركزا امام قوات الجزء الثالث الاوسط في قوات
القلب الي ان امركم بالتوقف .

فتقدمت قوات المدفعية , فنادي كليبر قوات الخيالة في قوات القلب و قال
لهم: ايها الخياله, تقدموا مع المدافع , اريدكم ان تنقسموا جزئين جزء يقف
علي رأس الجزء الثاني من قوات القلب و الاخر علي رأس الجزء الرابع من
قوات القلب , و اريد ان يتزامن رمي بنادقكم مع رمي المدافع .

فتقدمت القوات كما وصف لها كليبر و فجأة سمعوا صوت قذيفه قادمة من
جهة الممالك فنادي كليبر و قال : توقفوا و ابدأوا الزمي .

علي شاطئ النيل الغربي المراكب المملوكيه محترقة و المدافع الفرنسية تنزل
من علي مراكبها , و بعد عدة امتار من الشاطئ ثمتوقفت بدأت القصف علي
الممالك .

في جهة الممالك , مراد بك واقف خلف المتاريس و امامه عدة رجال
يضعون القذيفة في المدفع و بمجرد غلق المدفع و اطلاق القذيفه انفجرت
دانة المدفع , فسقط الرجال و سقط مراد بك علي الارض فصرخ فيهم و قال:
ماذا حدث ؟

قالوا : ان المدفع غير مصاين منذ زمن فإبست دانتته .

فسقطت قذيفه فرنسية علي احد هؤلاء الرجال فمات , ففرع مراد بك و جري
بعيدا فسقط امامه احد الجنود قتيلا فتوقف و نظر اليه و ابسم و قال : علي
بك الذفتردار , كم كنت اتمني رؤية هذا المنظر منذ زمن .

و اخذ بندقيته و جري ناحية المتاريس وتواري فيها ووقف بجانب احد الجنود
و اطلق النار بالبندقية علي الفرنسيين فوجد ردت البندقية في صدره ضعيفة
لانها لا تعمل جيدا , فرماها و قال : عليك العنة .

في هذه اللحظة سقط عليه احد الجنود مقتولا فسقط هو علي الارض وعليه الجثة في مكان مكشوف خارج المتاريس ، فرأى بعينه مدافع الفرنسيين و خيالهم يتقدمون ، فرمي الجثة من فوقه و اختبئ خلف المتاريس فنظر الي الجثة التي كانت عليه فشك انها لاحد مساعديه القريبين الي قلبه فقلب الجثة ليري وجهه فنزلت عليه الصدمة و قال في فزع : عبدالله الجرف ، فأغمض عينه حسرةً و ضرب علي رأسه وقال : ااااا يا عبدالله ، لا طاقة لي بفراقك ايها الابله .

في البر الشرقي . وصل فرسان عرب الهندي و اولاد علي و عريان البحيرة و الصعيد و مروا بجانب الاهالي المعتصمين و هم متجمعين علي الشاطئ يتابعون الحرب علي البر الغربي و يصيحون : بالطيبيف ، يا لطيبيف ، يا رب يا لطيبيف ، نصركم الله يا رجال الله .

ثم مروا امام زاوية علي بك و المشايخ يتمتمون و يهزون رؤسهم و الوجهاء جالسين علي الارض يرفعون ايدهم الي السماء ، حتي وصلوا الي المعدية الواقف عندها ابراهيم بك فصرخ فيهم ساخرا : لماذا الاستعجال ، مازال الوقت باكرا ..

فقاطعه شيخ الهندي بحده : ان نطقت بكلمه اخري سذهب .

فسكت ابراهيم بك ونظر للمدافع الموجهه للنيل فوجدها لا تطلق فجري نحوها و وقف امام الجنود و قال بغضب : لماذا لا تطلقون ايها المخنثين ؟

قالوا : ان المدافع لم تصاين منذ مده و الدانات شبه مسنوده ، و لو اطلقنا منها ستفجر فينا .

فبثق عليهم ثم ذهب .

من جهة المدينة ظهرت ٣ نساء اولهن الشيخة أمونة ، و ثانيهن سيدة طويلة تلبس افخر انواع الثياب ، خمرية البشرة ، ذات رقبه طويله و شعر اسود ناعم طويل و عيون سوداء و انف صغير و شفتان صغيرتان و تضع علي رأسها شال شفاف لا يخفي الشعر ولا يبين تفاصيله غير مربوط . و ثالثهن فتاه صغيرة تلبس اعلي الملابس التركية ذات البنطال الواسع و حزام البطن

العريض , بيضاء البثره , طفولية الملامح و شعر مجعد مخفي تحت حجاب مربوط عن الرقبه لا يغطي كل الرقبه تهرب منه خصل الشعر من فوق الجبين. نزلن من علي خيولهن و تقمن لينضموا وسط الجماهير المعتصمة و الرياح و التراب اشتوا

فقال الفتاة للسيدة الطويلة : سيدة هوي , انا لا اري شيئا .

السيدة هوي : اين ابوكي يا زينب ؟

زينب : ابي خرج من عند المشايخ غاضبا و ذهب للبيت .

الشيخة امونة و السيدة هوي ينظران لبعضهما و تقول الشيخة امونة : وماذا تنتظري من خليل البكري الا هذا .

فنظرت زينب لهن و ابتسمت ابتسامة صفراء .

و بمجرد وقوفهن بالقرب من الجماهير الذين يصيحون بالطبييف , سمعن بعض الشباب الازهري يقولون للجماهير : الرسول (ص) والصحابة كانوا يحاربون بالسيف و الحراب و ضرب الرقاب لا يرفع الاصوات و النباح . فلم يكثر لهم احد .

في هذه اللحظات كان الشيخ عمر مكرم و رجاله يجرون غربا فرأهم بون و سأل احد مساعديه : هل يهرب هؤلاء ؟

قال المساعد مبتسما : نعم سيدي , اتعلم من هؤلاء؟

قال بون : لا تقل لي انه عمر مكرم .

المساعد : نعم و هذا العلم الاسود هو البيرق النبوي كما يسمونه .

ففزع بون و التف بفرسه عاتدا يتجاوز الجنود المتقدمين حتي وصل لمينو , وقال له مفزوعا : مينو , عمر مكرم يهرب غربا .

مينو متفاجئا : و العمل ؟

بون : تعالي نشتاور مع كليبر .

مينو : و هل يعرف ذاك المغفل شيئا , هذا ليس الا مطيعا لنابليون , فلنعد الي نابليون مباشرة .

بون : هذا ليس وقته يا مينو , نابليون في مؤخرة الجيش , و لكي نذهب و نعود من عنده ربما اوقع بنا عمر مكرم مصيبه , فلنذهب الي كليبر اسرع .

مينو : اسمع انا لن اذهب لهذا المتعجرف , رأي أنا ان نلغي الخطه (أ) ونطبق الخطه (ب) , اذهب و انظر ما يكون رأيه ؟

في هذه اللحظة الشيخ عمر مكرم و رجاله مازالوا يتعنون و يجرون باتجاه الغرب .

فذهب بون لكليبر و قال له : عمر مكرم و رجاله يتجهون غربا ..

فقاطعه كليبر بسرعه و قال له : ماذا تنتظر , الخطه ب فورا .

فاسرع بون و مر بجانب القوات المتحدة و هو يصرخ : قادة الاقسام و الفرق الخطه ب ... الخطه ب

فالتف الشيخ عمر مكرم و رجاله ليهجموا علي طوق الفرنسيين .

فانشقت قوات القسم الاول من الجناح الايسر وذهبت غربا , يسار قوات الشيخ عمر مكرم و بدأوا بإطلاق النار عليه من البنادق الاليه و رجال الشيخ ليس معهم الا بنادق الغيز اليه القديمه و السيوف .

و انشقت قوات القسم الثاني من قوات الجناح الايسر وذهبت غربا و التفت و اصبت خلف قوات الشيخ وبدأ إطلاق النار من يسار و خلف رجال الشيخ .

وانشقت قوات القسم الاول من قوات الجناح الايمن و ذهبت غربا يمين قوات الشيخ عمر مكرم و بدأ إطلاق النار فأصبح إطلاق النار من يسار و يمين و خلف الشيخ.

و استدارت قوات القسم الثاني من قوات الجناح الايمن و اتجهت غربا و اصبحت في مواجهة قوات الشيخ عمر مكرم و بدأ اطلاق النار فأصبحت النيران من كل الاتجاهات علي الشيخ و رجاله و اصبحت محاصرا تماما.

في نفس الوقت انطلقت قوات الجزء الاول من القلب والتفت و اصبحت خلف قوات المماليك و بدأت الهجوم عليهم بالبنادق الالية .

بينما تحركت قوات الجزء الثاني من القلب و تركزت يسار المماليك و شنت الهجوم عليهم .

و ارسلت قوات الجزء الرابع من القلب فارسا يسبقها لينثر رجال منفعية المراكب بالتوقف تمهيدا لتمرکز قوات الجزء الرابع من القلب يمين المماليك . و بمجرد توقف المدفعية تحركت قوات الجزء الرابع وانتشرت شرق المماليك بحيث المماليك امامهم و نهر النيل خلفهم .

و بهذا حوصر المماليك من الجهات الاربعه و نزل الفرنسيين عليهم بالبنادق الحديثة و المسدسات بالغه الدقة في الاصابة , الي ان اصبحت المتاريس لا تحمي الا جثا لا حصر لها ففر مراد بك و مساعديه فصرخ كبير و قال : توقفوا عن الاطلاق . دعوهم .

أما الشيخ عمر مكرم , فبمجرد اكتمال الحصار اصيب فرسه فسقط من عليه ونظر خلفه فلم يجد الا الثلاثة الازهرين اتباعه علي الارض مثله و عدد من جثث العميان و الارنؤود لا تعد و لا تحصى و الحاج محمد المغربي و سليمان الجوسقي يهربان مع بعض رجالهما. فالتف حوله العسكر الفرنسيين و علي رأسهم بون و مينو , فشعرا سيفهما , فوصل رسول من نابليون يصرخ و هو يجزي نحوهما

الرسول : سيني مينو , سيني بون .

و بمجرد ان وقف بالقرب منهما قفز الرسول من فرسه ووقف امامهما و قال: السيد عمر مكرم و المشايخ لا , هذا ما قاله القائد العام نابليون , لو قتل اي احد من المشايخ سيقتل قتلته , وسيتلني انا ايضا ان لم امنعهم .

فصرخ مينو : ما هذا الجنون ؟ رأس التحريض ضدنا نتركهم , كيف يعقل هذا؟

فقال بون غاضبا : قيدوهم و انتظرونا حتي نعود من عند القائد العام .

فركبا و انطلقا لنابليون و لما وصلا وجدا كليبر علي فرسه يصرخ في نابليون هو علي فرسه يمشي ببطئ : اتريد ان يقتلنا المصريون في شوارع القاهرة جراء تحفيز هؤلاء المشايخ للناس ضدنا , كل هذا بحجة انك تقترب من المصريين .

فإنضمنا مينو و بون لكليبر فابتعد عنهم نابليون قليلا و اطلق صافرة فاجتمع دومرتين رئيس الطبجية (المدفعية) و معه ٢٠ جندي شاهرين بنادقهم في وجوه القادة الثلاثة و قال نابليون بصوت عالي : امرنا نحن القائد العام للقوات الفرنسية بترقية الضابط دومرتين من رئيس الطبجية الي قائد الحرس الخاص للقائد العام و علي جميع الراغبين في التواصل بالقائد العام العودة اليه اولاً , و شكرا . و ضرب حصانه و انطلق.

في هذه اللحظة وصلت اول معدية عليها اول دفعة من قوات البر الشرقي علي رأسهم ابراهيم بك . و قبل ان ينزلوا من المعدية شاهدوا مراد بك يهرب و بعض جنوده و و من بعيد يهرب الحاج محمد المغربي وسليمان الجوسقي و بعض العميان و الارنؤود فصرخ ابراهيم بك لقائد المعدية و قال : ارجع ارجع بسرعة للبر الشرقي , عد بسرعة .

و بمجرد وصول ابراهيم بك للبر الشرقي و نزوله نظر فوجد البر فارغا لا يوجد به بشر و الخيام متروكة بما فيها و زاوية علي بك لا يوجد بها احد , فهز رأسه ثم ذهب .

في شوارع بولاق . الناس في منتهي الفزع و الكل يركض يمينا و يسارا , و الشيخه امونه و السيدة هوي و زينب البكري يمشيان بخيولهن بتختر و بهدوء , و الشيخة أمونة تقول للسيدة هوي : ليس من المفروض ان تكوني اكثر فزعا من هؤلاء , انك تزوجتي نصف امراء المماليك تقريبا و ربما كنتي انتي الامرءه الناهية في هذه البلدة . و الفرنسيس لو عرفوكي لقطعوكي اربا .

السيدة هوي : و هل تظنين نفسك انك اذكى نساء العالم و انت الوحيدة التي
كنتي تتسقين مع الفرنسيس . يا حبيبي انت اكثر ما كنت تفعلينه انك كنت
تتقلين الاخبار لهم. اما انا , فأنا علي موعد عشق و غرام مع واحد من اكثر
الناس تقربا للقائد العام الفرنسي .

فنظرت لها الشيخه امونه بدهشة : ايتها الخبيثة , لهذا كان ماجلون يعرف
أخباري و أخبار سليمان في أول لقاء معه

فابتسمت السيدة هوي , فقال الشيخة أمونة : و منذ متى وانت في هذه العلاقة
مع هذا العاشق ؟

السيدة هوي : منذ ان كنت زوجة لاحد هؤلاء البهائم المماليك .

الشيخة أمونة : و ما إسم هذا الولهان ؟

السيدة هوي : نقولا .

فنظرت الشيخة أمونة لزينب : طبعاً انت لا يهيك احد , فأباك الشيخ خليل
البكري سيصبح الساعد الايمن للقائد الفرنسي كما كان مع ابراهيم و مراد بك.

السيدة هوي لزينب : يا بنت المحظوظة.

فابتسمت زينب لهن .

وفجأة سقط رجل من علي فرسه علي بعد خطوات منهن و هو ين من الالم
و يضع يده علي جنبه . فصرخت الشيخة أمونة : سليمان .

فنزلت من علي فرسها و جرت نحوه و حاولت حمله فصرخت السيدة هوي :
ساعدونا . فتجمع الناس و حملوه و سألوا الشيخة أمونة : الي اين ؟

الشيخة أمونة : ضعوه علي فرسي هذا فحسب.

فوضعه الناس علي الفرس و ركبت خلفه و ضربت الفرس و انطلقت و لحقها
السيدة هوي و زينب البكري.

الاحد ٢٢ يوليو ١٧٩٨ :

جامع الازهر بعد صلاة الفجر , يقوم الامام و هو شيخ قصير القامة , بدين , اسمر البشرة , ذو انف كبير وشفتين ضخمتين , يلبس عمامة كبيرة و علي وجهه علامات التعب و الاحباط و يجلس علي كرسي الشيخ بجانب المحراب و أمامه المشايخ و الوجهاء و كبار الطرق الصوفية و جمهور كثير فقال : ماذا نحن فاعلون ايها القوم ؟

فقال احد الحاضرين : اين الشيخ عبدالله الشرقاوي و الشيخ السادات يا شيخ سليمان ؟

الشيخ سلمان الفيومي (احد المشايخ المساعدين لشيخ الازهر) : لا أعلم .

فقال احد التجار يقف باستهزاء متكنا علي عمود من أعمده الجامع : هربوا للمطرية , ها ؟

الشيخ سليمان الفيومي غاضبا : اجلس , اجلس , بلاك الله بالعمي

فنظر الشيخ سليمان الفيومي لشيخ طويل , نحيف البدن , ابيض البشرة , ذو انف طويل و اذن طويله , و عينان ضيقتان , يلبس عمامة كبيرة : ماذا رأيك يا شيخ مصطفى ؟

الشيخ مصطفى الصاوي (من مشايخ الازهر) : لا أعرف .

الشيخ خليل البكري مجيبا بسرعة : نرسل رسولا ليؤنابرته بالتأكيث

فنظر الشيخ سليمان الفيومي للباقون وقال : ها , أتوافقون ؟

قالوا في صوت جماعي : نعم .

الشيخ سليمان الفيومي : اذا من سنرسل ؟ و ماذا سيقول الرسول ؟

الشيخ مصطفى : ارسل احد يكون لديه دراية بلغتهم , و يسألهم عن اسباب قنومهم .

الشيخ سليمان الفيومي : موافقون ؟

صوت جماعي : نعم .

الشيخ سليمان الفيومي : من يعرف لغتهم ؟

لم يجب احد .

الشيخ سليمان الفيومي للشيخ مصطفى الصاوي : ما من احد يعرف لغتهم .

فقام الحاج محمد المغربي و هو يستعد للخروج و قال : انا اعرف من يعرف لغتهم .

الشيخ سليمان الفيومي : من يا حاج محمد ؟

الحاج محمد و هو يمشي ليغادر الجامع : شخص لن تعرفه يا شيخ سليمان .

البر الغربي , في خيمة كبيرة يحيطها العساكر الفرنسيون من كل اتجاه , نابليون مجتمع بكبار القادة واعضاء لجنة العلماء , ويدخل احد الجنود ويقول : سيدي بوناپرت , عمر القلقجي بالخارج يريد مقابلتكم.

نابليون : ماذا يريد هذا المجرم ؟

فابتسم القادة الثلاثة الكبار و قال كليبر بصوت منخفض : كم احب هذا الشاب .

فتجاهل نابليون رد فعلهم و قال للجندي : دعه يدخل .

فدخل عمر القلقجي و انحنى أمام نابليون ثم نهض و قال بلغة فرنسية ضعيفة : سيدي نابليون , مرحبا بكم في بلادنا

نابليون بدون مترجم : ماذا تريد يا عمر ؟

عمر : انا رسول من مشايخ ووجهاء هذه البلاد .

نابليون : و ماذا يريدون ؟

عمر : يريدون ان يعرفوا ماذا ستفعلون بالناس , و ما القصد من مجيئكم ؟

ضحك نابليون متفاجئا : حقا !!

ثم التفت نابليون للقادة الثلاثة و قال ساخرا : هؤلاء من تخافون تحريضهم ؟

ثم التفت مره اخري لعمر : و لماذا لم يأتوا هم بأنفسهم ؟ اني اريد ترتيب الامور لنعيد الامن و الراحة للناس .

عمر مبتسما : اذا بماذا اخبرهم سيدي ؟

نابليون : اخبرهم بأنني اريدهم أن يأتوا .

ففرح عمر قال : حاضر سيدي .

و هم ليذهب .

فقال نابليون : إنتظر .

و ذهب لطاولة قصيرة عليها المنشورات المطبوعة و اخذ مجموعه كبيرة منها و اعطاها لعمر وقال له : اذهب بهذه لمشايخكم و أمر كبيرهم بقرأتها بصوت عالي علي جمهور الناس . و بعد ان ينتهوا من ذلك أمرهم لياتوني , فهمت؟

عمر : نعم سيدي .

وأخذ المنشورات وانطلق.

في ساحة واسعة أمام مسجد الحسين , يقف الشيخ سليمان الفيومي علي درج صغير من الخشب ليراه ويسمعه كل الناس و أمامه المشايخ و الوجهاء كل منهم يمك نسخه من المنشور و جمهور من الناس خلفهم , و الجميع مبتسمون و علي وجوههم علامات الاطمئنان بعد أن قرأ الشيخ سليمان عليهم نصف المنشور تقريبا و يكمل و يقول :

أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البك قولوا لأمتكم: إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون؛ وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالمرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه. ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممثلين لأمره فما أطاعوا أصلًا إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم. طوبى أيضًا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب. لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجنون بعد ذلك طريقًا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء...

المادة الثانية : كل قرية تقاوم العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضًا تتصب مندوبين السلطان العثماني محبنا دام بقاءه.

المادة الرابعة : المشايخ في كل بك يختمون حالًا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلزمون وظائفهم. وعلى كل أحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئنًا. وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة. والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالي أدام الله

إجلال السلطان العثماني، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك، وأصلح حال الأمة المصرية.

يلتفت الشيخ سليمان الفيومي للناس أمامه : و ماذا بعد ؟

الشيخ خليل البكري و هو يكتّم فرحته : فلنذهب لهذا الرجل و نطلب منه عهدا بالامان .

الشيخ سليمان الفيومي ينظر للآخرين : هل توافقون ؟

الناس بصوت جماعي : نعم .

قبل غروب الشمس , المشايخ و الوجهاء علي رأسهم الشيخ خليل البكري و سليمان الفيومي و الشيخ مصطفى الصاوي (من مشايخ الازهر) ينزلون من المعذية ويستقبلهم مجموعة من العساكر يصطحبونهم لخيمة نابليون و هم ينظرون للمنافع الموجهة لهم و المرصوصه علي جانبي الطريق للخيمة و العساكر الواقفين في ارتال منظمه و البنادق الالية علي اكتافهم , وبمجرد وصولهم الخيمة و دخول الشيخ خليل البكري الخيمة قام نابليون و رفع يده مرحبا

و قال نابليون **والمترجم يترجم** : اهلا وسهلا بمشايخنا و كبارنا , نورتم خيمتنا .

فابتسم المشايخ و الوجهاء و قال الشيخ سليمان للمترجم : اهلا بكم .

فهمس احد الوجهاء لصديقه : لا اظن ان احداً من المماليك استقبل احداً من المشايخ والوجهاء كهذا الرجل .

نابليون : تفضلوا يا سادة .

بعد ان جلسوا , جلس نابليون بجانب الشيخ سليمان الفيومي و ضرب علي ركبته توددا و قال : هل وصلكم خطابنا يا شيخ ؟

الشيخ يهز دماغه قائلا : نعم .

نابليون : و هل اطمأن الناس ؟

الشيخ سليمان الفيومي : نحتاج المزيد من الضمان علي الامان .

فقام نابليون و هو يقول : حسنا يا شيخ .

فقام و مشي خطوات و اخذ من احد الجنود كميته من المنشورات الجديدة و اعطاها للشيخ و قال له : هذا ضمان جديد .

فأخذ الشيخ سليمان الفيومي المنشورات و اعطاها للشيخ مصطفى الصاوي الجالس بجانبه و اخذ احدها ليقرأه , فقال له نابليون : لا , اقرأ بصوت عالي.

فرفع الشيخ سليمان صوته قائلا :

من معسكر الجيزة خطابا لاهل مصر

يا أهل القاهرة , انني راض عن مسلككم . فقد أحسنتم عملا بالإمتناع عن الوقوف ضدي . لقد جئت للقضاء عن المماليك و لحماية التجارة و أهل البلد . فليطمئن كل من إنتابه الفزع , و ليرجع كل من رحلوا إلي بيوتهم , وليجري أداء الصلاة اليوم كالمعتاد لإنا أود أن تستمر علي الدوام . لا تخافوا من شئ علي عائلاتكم و بيوتكم و ممتلكاتكم و خاصة علي دين النبي الذي أحبه . و من المهم ان لا يعكر الطمأنينة شئ فسوف يكون هناك ديوان من سبعة أشخاص سوف يجتمعون في الجامع الازهر . وسوف يوجد منهم هناك بشكل دائم إثنين إلي جانب قائد الموقع و سوف يهتم اربعة بحفظ السكينة العامة و السهر علي الامن .

نابليون : ما رأيك بهذا ؟ هل يكفي ؟

الشيخ سليمان الفيومي : نعم .

نابليون : و لكن اين الشيخ عبدالله و الشيخ السادات ؟

الشيخ سليمان الفيومي : غابا لظروف لديهم .

فركل نابليون الكرسي الذي امامه غاضبا و قال : اسمع , لا تكذب علي والا ...

ثم تمالك نابليون اعصابه و قال : الشيخ عبدالله الشرقاوي و السادات هربا للمطرية .

فنظر الشيخ سليمان الفيومي للمشايخ الذين بجانبه و هو فاتح فاه من الدهشة : كيف عرفت هذا و انت لم تأتينا الا البارحة .

فأقرب نابليون منه و قال بهدوء : صدقي لو سألتني عن ما في غرف بيتك لقلت لك .

الشيخ سليمان الفيومي مفزوعا : الله حي ..

وضح المكان بهمهمات المشايخ ثم قال نابليون لسليمان الفيومي : ابغهم أنه بمجرد عبوري للبر الشرقي واستقرار مقر القيادة سنعد اجتماع لإنشاء الديوان .

فقام المشايخ إستعدادا للذهاب فقال نابليون : انتظر يا شيخ , اين الشيخ عمر مكرم ؟

تغير لون وجوه المشايخ و نظروا لبعضهم بعضا و قال الشيخ سليمان الفيومي و علي وجه علامات الاستخفاف و الاستعلاء : و فيم تريد هذا ؟

فقال نابليون بحده : اسمع لو لم تبلغ عمر مكرم بإجتماعي مع المشايخ , سألقيك في سجن لا تري فيه اصابع قدمك لا صباحا و لا ليلا .

فذهل الشيخ سليمان الفيومي فأمسك الشيخ خليل بيده و نظر لنابليون قائلا : حاضر حاضر سيدي .

فنظر الشيخ خليل للشيخ سليمان الفيومي و همس له بشدة : هيا يا سليمان .
و شد يده و ذهب .

بعد شهر - أغسطس ١٧٩٨

بيت الشيخة أمونة , في غرفة كبيرة جالس سليمان الجوسقي علي سرير تحت شباك كبير من الارابيسك عليه قلتين لتبريد الماء و بجانب طاولة عليها قلة ماء ثالثه و كوب من النحاس . وتدخل الشيخة أمونة وخلفها فتاة من خادماتها تحمل صنية كبيرة عليها اشكال و الوان من الطعام المحضر بأشهي طرق الطبخ , فترفع الشيخة امونه من علي الطاولة قلة الماء و الكوب و تشير للفتاه بوضع الصنية علي الطاولة , ثم تشير لها لترحل . ثم نظرت لسليمان و قالت : الان قد اكتمل شفائك , فقد كان جرحا غائرا .

ثم نظرت للاكل وقالت : تفضل كل يا سليمان .

ثم ذهبت لزاوية الغرفة و وضعت القلة و الكوب علي الارض و أتت بكرسي لتجلس بالقرب من سليمان فوجدته لم يتحرك , فتركت الكرسي وامسكت ملعقة و اكلت شيئا من الاكل , ثم نظرت له و قالت : ها هكذا اطمأنت . ثم عادت و جلست علي الكرسي و وضعت رجل علي رجل بكل قوة

نظر سليمان لها دون أن يحرك ساكنا و قال : تريدان أن تقنعيني أن ضربتي مررت هكذا بدون رد فعل ؟

أمونة بإسلوب متحضر : ومن قال انها ستمر , سأعاقبك عليها , و لكن في الوقت المناسب .

فمد سليمان يده في الاكل و قال : وهل هناك وقت افضل من هذا , اقاربك الفرنسيون فوق رؤوسنا .

قامت أمونة من علي الكرسي تتمشي ناحية الشباك الكبير و نظرت منه للشارع في شجن وهي تقول : كم سهرت عندك الليالي يا سليمان , و كم سهرت عندي و لم تفكر يوما ان نتزوج و تضميني بعيدا عن هؤلاء الكلاب , حينها كنت لن أنظر لا لفرنساوين و لا غيرهم .

فقاطعها سليمان بصوت عالي : لا لا لا , لا تلبسي ثوب الضحية رجاءً ,
فالمصالح هي التي حكمت أولاً وهي التي حكمت آخراً . رفضتي آلاف
المرات عندما كنت أشق الصخر من أجلك . رفضتي من أجل مصلحتك , و
الآن تتباكي علي اني لم اضمك بعيدا عن الكلاب .
وضحك ضحكة سخرية .

فنظرت له بغضب مكتوم : حسنا , فلماذا تلومني علي التعامل مع الفرنسيين ؟
سليمان و هو يأكل : و هل لمتك انا ؟

فقالت بصوت عالي : اذا ماذا كانت تلك الضربة , وما معني تلميحك " اقاربك
الفرنسيون "؟

سليمان : هذا التلميح اشارة انك تركية , و الاترك طوال هذه السنوات سمن
علي عسل مع الفرنسيين .

أمونة : و هذه الضربة ؟

سليمان : حسنا سأنتظر عقابك عليها .

فهذنت أمونة و نظرت للشباك مرة اخري و قالت : ألم تسأل نفسك لماذا جاء
الفرنسيين لهذه البلاد ؟

فإنتهب سليمان وقال محتاراً : هذا ما لم اجد عليه اجابة منذ ان رأيتهم في
الاسكندرية .

أمونة : لتعويض خسارتهم امام الانجليز في أمريكا , القارة البعيدة .

سليمان : و لماذا لم يعوضوا خسارتهم في مكان آخر ؟

أمونة بابتسامة خفيفة : لان هذه البلاد فيها كنوز لا تعد و لا تحصى , و في
نفس الوقت , أهلها يعيشون فوضى لا تنتهي منذ قرنين علي الاقل , و الاقوي

فيها هو الغالب , و الغالب فيها يستطيع ان يأخذ خيرها كله دون أن يقف له أحد .

سليمان : و ما اخر الاخبار ؟ شهر كامل بالبيت منقطع عن العامة اصارع الالم , لابد انه فاتني الكثير .

أمونة : لقد عبر نابليون للبر الشرقي و استقر بقصر محمد بك الالفي الهارب و إجتمع بالمشايخ و أسسوا ديوان يعتبر كحلقة وصل بين الفرنسيين و المصريين .

سليمان : و من أعضائه ؟

أمونة : حوالي ١٠ من كبار المشايخ اشهرهم عبدالله الشرقاوي , سليمان الفيومي , مصطفى الصاوي , خليل البكري . و قد عينوا الشيخ عبدالله الشرقاوي رئيسا للديوان

سليمان و هو متحفر : و هل فيهم الشيخ عمر مكرم ؟

أمونة : رفض الانضمام لهم , ثم إختفي . و عزله نابليون من نقابة الاشراف و أعطاهم لخليل البكري .

فضحك سليمان ضحكة استهزاء و قال : خليل البكري نقيب الأشراف !! انها المهزلة الكبرى . كان سيموت عليها منذ ان إستبعده الاشراف و اعطوها للشيخ عمر . إنه رجل لا يصلح لأن يكون غفير حتي .

ثم تنهد متحسرا و قال : و ماذا بعد ؟

أمونة : الانجليز طحنوا الأسطول الفرنسي في الاسكندرية .

فقفز سليمان فرحا و قال : الله اكبر

أمونة : ثم اصدر نابليون أمرا بالاقامة المستامة في مصر بسبب دمار الاسطول الفرنسي .

فبهت وجه سليمان و ألقى بنفسه و جلس علي السرير

أمونة : عينوا برطلمين رئيسا للشرطة.

ففرع سليمان و قال : لعنة الله عليهم هؤلاء الكفرة . ألم يجنوا غير هذا السفاح
ليعينوه رئيسا للشرطة ؟ لقد كان يقطع الرؤوس كما لو أنها رؤوس بصل .
الان سيقطع اكثر و اكثر دون ان يحاسبه احد.

ثم سُمع صوت خيول بالخارج و جنبه , فتوترت أمونة ثم نظرت لسليمان و
قالت في هدوء : انهي أكلك و نادي علي احد الفتيات لتأخذ الاكل و أنا سأصعد
للنوم .

سليمان في هدوء : حسنا .

فخرجت أمونة و أغلقت الباب و هزلت إلي باب البيت و وقفت أمامه تأخذ
أنفاسها و تقاوم بكائها و تمسح دموعها فجاءتها كبيرة الخادمت مسرعة و
قالت لها : سيدتي لماذا تفعلي هذا؟ أليس هذا من كنا نقضي ليالينا بحكاياتك
عنه؟

فقالت لها في غضب بعد ارتباك من قولها : اغربي عن وجهي يا بشينة و الا
قذافي .

ثم إستعادت قوتها وفتحت الباب و قالت : هيا ادخلوا من هنا , هو في هذه
الغرفة .

فدخل الجنود الفرنسيون و هرولوا بأتجاه الغرفة التي فيها سليمان و فتحوها
فوجدوا الثبأك مكسور والغرفة خالية ليس بها أحدا .

بعد عدة أيام

الازبكية . بعد العصر , الشيخ خليل البكري يدخل قصر عظيم ذو ساحة كبيرة أمامه تمثلها الأشجار والنخيل و عساكر الفرنسيين . و امام باب القصر الداخلي ساحة اصغر تعتبر مندرجة مرتفعة عن الساحة الاكبر بثلاثة درجات و محاطة بسور و أرضيتها من الرخام و زوايا السور يصلها بالسقف عمدان طويلة منحوتة بأروع ما يمكن كالتي في المعابد الفرعونية , و باب القصر الضخم مصنوع من اقوي انواع الاخشاب و مقابضه مطلية بماء الذهب . و بمجرد ان دخل وجد صاله استقبال واسعه جدا علي جانبيها سلالم للوصول للطابق الاعلي فقال له احد العساكر : اجلس هنا الي ان ياتيكَ الصاري عسكر نابليون .

فجلس الشيخ فنظر امامه فوجد مجموعه من الضباط يتحدثون مع بعض الاشخاص يلبسون لباس غير عسكري يلبسون نظارات و شعورهم منكوشه كبيرهم يحث في الكلام مع احد الضباط , وفجأة ظهر نابليون و هو ينزل علي السلالم القريبة من الضباط و قال بصوت مسموع : أراكم منغلون , فما الأمر؟

فقال احد الضباط : شولكوسكي معارض لخطط غزو الصعيث .

نابليون للضباط بغرور و إستخفاف: ديزيه , ما علاقة هذا بالخطط ؟ سؤالك لهذا عن الخطط كأنك تسأل طفل عن كيف يوقع شابة طاغية الأنوثة في حبه . اسمع يا ديزيه , اريد عزوك للصعيد يكون أشبه بقصة رعب تجعل ملوك الشرق و الغرب لا ينامون لياليهم بسببها . اريد مجازر ترعب حاكم الشام أحمد باشا الجزائر و السلطان العثماني في الاستانه حتي يتسني لنا دخول ولايات اخري بعد مصر بمجهود أقل . و بالتالي ما ستفعله في الصعيث هو ما سنعتد عليه في ذهابنا لغزة و الشام و غيرها .

ديزيه : نعم سيني .

فأشار نابليون بعينه لأحد المترجمين في خفيه , فذهب المترجم و ذهب و جلس بجانب الشيخ خليل و قال له : اتعرف ما يقولون ؟

الشيخ خليل : لا

المترجم : سيرتكوين المجازر في الصعيد .

الشيخ خليل مفزوعا : و لماذا ؟ كل هذا بسبب مراد بك و بعض هؤلاء الهلافت الذين هربوا معه للصعيد .

المترجم : بالطبع لا ايها الابله . الفرنسيين سيخلون مع مراد بك و هؤلاء الهلافت حزب عصابات بعضا من الوقت ثم سيخلقون سبيلا للتفاوض معهم , و انت تعلم ان المماليك سيلهثون وراء اي تفاهات مع قادة الفرنسيين . نابليون يريد ان يرعب أحمد باشا الجزائر و السلطان العثماني و الانجليز , و لذلك سيحرق الصعيد عن بكرة ابيه , خصوصا ان ابراهيم بك الخبيث و رجاله ذهبوا لغزة عند احمد باشا الجزائر و سيكون ساعده القوي في صد نابليون .

الشيخ خليل : و ما ذنب الاهالي المساكين في الصعيد ؟

المترجم يتسم ابتسامة استخفاف للشيخ خليل و يذهب .

شولكوسكي لنابليون : اين انت من قيم و مبادئ الثورة الفرنسية و التي قامت علي احترام ..

فقاطعة نابليون و امسك بملابسه و ضربه في صدره : اتعرف كم شخصا قتل في ليون في جنوب فرنسا دفعه واحده في ليله شغب الاهالي هناك قبل ان نصل للأسكندرية ؟ ٢٠٠٠ شخص . أتعلم كم شخصا يقتل يوميا في باريس و ضواحيها دون ان يعلم احد ؟ عند لا يعد و لا يحصى . اتعلم لماذا يقتل هؤلاء؟ لأنهم مغفلون أمثالك .

فصرخ نابليون : دومرتينيين .

فشد نابليون شولكوسكي و القاه بين يدي دومرتين وقال : القى بهذا في سجن القلعه و لا اريده ان يخرج منه الي ان يموت .

فأمسك دومرتين شولكوسكي من قفاه و دفعه امامه . و نظر نابليون الي الطرف الاخر من الصاله وجد الشيخ خليل جالس علي الكنبه عيناه تهربان

يمينا و يسارا و العرق يتصبب منه . فاستنشق نابليون انفاسه و هداً أعصابه
و هندم ملاپسه و اتجه باتجاه الشيخ خليل و جلس بجانبه و وقف بجانبهما
المترجم ليترجم , فقال نابليون : اهلا يا شيخ خليل .

الشيخ خليل البكري في منتهي الارتباك : اهلا .

نابليون : اهنا يا شيخ .

الشيخ خليل البكري : حاضر .

نابليون : لماذا ألغيت المولد النبوي هذه السنة يا شيخ ؟

الشيخ خليل البكري في ارتباك : بسبب تعطل الامور و ضيق الاحوال .

نابليون : هذا غير مقبول ابدا

و أشار لأحد العساكر فجاء العسكري و بيده كيس من النقود و أشار له
نابليون ليعطيه للشيخ خليل البكري و قال : اريده مولداً لم يسبق للقااهرة ان
رأت مثله , و لا يقل عن خمسة ايام , و اريد أن تملأ الانوار دارك و ساملئ
داري و دار حاكم القاخرة الفرنسي دبيوى بالأنوار . اريكم ان تملئوا شوارع
القاخرة بمواكب الاحتفال و الموسيقى و الغناء , واضح ؟

هز الشيخ خليل البكري رأسه و قال : نعم .

نابليون : اسمع يا شيخ , لا اريد هذا في المولد النبوي فقط , اريده في كل
مولد . و إذا قصرت معك النقود , فقط ابغني و انا سأملك بما تريد .

يوم المولد النبوي

في الساحة الكبرى أمام جامع الحسين بعد المغرب انارة القناديل في كل مكان علي حائط الجامع و مأذنته و علي البيوت و الحوانيت في كل الشوارع المتفرعة من الساحة التي تتفق إليها مواكب المحفّلين خلف المنشدّين و المنغنين و المغنيات و الراقصات و الدراويش . و بجوار الجامع مجموعه من الكراسي و الكتب يحيط بها مجموعه من الفتيان الاشداء يمنعون اي احد من العامه من غير المشايخ و الوجهاء من الدخول و الجلوس علي الكراسي . و ينتظر علي الكراسي في الصف الاول الشيخ خليل البكري و بنته زينب و هي في ابهي صورها من كحل العيون و الشعر المتطاير بعد خلع الحجاب و احمر الشفاه و سلاسل الذهب علي رقبتها .

و من احد الشوارع الفرعية تظهر جلبة كبيرة و اضطراب في الناس يتبعها خروج عساكر الفرنسيس يتبعهم نابليون و مينو و رجل عملاق أشقر الشعر أحمر الوجه من نصاري البلد يدعي برطلمين قائد الشرطة الذي يلقيه العامة بفرط الرمان . و الثلاثة يلبسون العمامه و الجلباب و العباة و خلفهم كليبر و بون و ديوي و مجموعه من القادة يلبسون لباس النبلاء الفرنسي و يتبعهم مجموعه اخري من العساكر الفرنسيس . فقام الشيخ خليل يصرخ قائلا : الشيخ بونايرته وصل , الشيخ بونايرته وصل .

فهاجت الناس و تجمعوا ليروا موكب الشيخ بونايرته و رجاله و بمجرد وصول الموكب امام الشيخ البكري , تسلمت العساكر الفرنسيين تأمين المكان بدلا من الشبان و نزل القادة الفرنسيين من علي خيولهم . في هذه اللحظة جانت مجموعه من الراقصات و المغنيات يقولون :

يا جمهور عسكريك داير فرحان في قطع دابر الغز و العريان

يا سلام يا بونايرته يا سلام ملك السلام يا سلام

أوحشتنا يا جنار يا جميل يا راخي العذار

و سيفك في مصر داير علي الغز و العريان ...يا سلام

أوحشتنا يا جمهور يا جميل يا راخي الشعور

من يوم ما جيت مصر فيها النور زي قنديل ببلور... يا سلام

فأشار الشيخ خليل للقادة بالجلوس و قال : ارتاحوا يا المنورنا , ارتاحوا .

و جلس نابليون و علي يساره كل قاداته , و هم الشيخ خليل ليجلس علي
يمينه فزاحمته زينب لتجلس بجانب نابليون فضحك الشيخ خليل و قال
لنابليون و المترجم يترجم لنابليون : ها ها ها بنتي في اشد السعادة بقومك و
تحب ان تجلس بجوارك .

فهز نابليون رأسه و هو مبتسم اشاره علي القبول فجلست زينب علي يمينه
وجلس الشيخ خليل علي يمينها و جلس باقي المشايخ و الوجهاء علي يمينه
وخلفهم . ثم اكمل المغنين و المغنيات :

ما أحسنك يا فرط الزمان (برطلمين قائد الشرطة) لما تنادي بالامان

و في يدك ماسك الفرمان تبقي الزعية قلبها فرحان.... يا سلام

أوحشتنا يا ساري عسكر تشرب القهوة بالسكر

و عسكرك دايز يسكر و في البك حبوا النسوان.... يا سلام

محبوبي لابس برنيطة و دكته عقد و شنيطة

طلبت وصاله قالي سبيطة (بمعني انتظر) ما أحلي كلامه بالفرنساوي

ياسلام من عيونه عيون غزلان

واصلني يا حلو الكلام يا سلام

يا عاذلي خايني ... حب الجمال كاويني

علي الجمر لو يسليني بالروح انا ما أسلاه يا سلام

فضحك نابليون و القادة الفرنسيين الكبار و المشايخ و الوجهاء و صفقوا للمغنين تحية لهم ،

و فجأة فزع نابليون و هو جالس و نظر بدهشة لزينب فنظرت هي للأرض بسرعه فنظر نابليون لخليل البكري و انتبه الجالسون فضحك نابليون منعا للإحراج فضحك الجالسون و إلتفت نابليون للمغنيات و الراقصات . فضرب خليل البكري ابنته في كتفها و همس لها قائلا : اهدي يا بنت الصرمة .
تتحرشين بالرجل وسط الناس ، سنفضح لعنة الله علي من رباكي .

و في هذه الاثناء دخل جماعة علي الحضور فنزلوا من علي خيولهم و اذا بهم الشيخ محمد البواب من رشيد و معه ابنته زبيدة في ملابس و زينة العرائس و خلفهما اهلها و هم يصيحون : حي الله الشيخ يونابرته , حي الله الشيخ عبدالله مينو

فأمسك الشيخ محمد البواب يد ابنته و اقترب من نابليون و مينو و قال لمينو : هذا كما وعدتك , ها نحن ذا في يوم المولد النبوي اقدم لك ابنتي عروسا علي سنة الله و رسوله و علي رؤوس الاشهاد .

فأفصح الجالسون يسار مينو المكان لتجلس زبيدة بجانبه . فقام الشيخ خليل البكري و أمسك بيد الشيخ محمد البواب و ابتعدوا قليلا و قال له : يا ابن المحظوظة يا شيخ محمد , بالأمس زوجتها من سليم الاغا و قد كان من كان بين رجال المماليك , و اليوم زوجتها من مينو ايها الفاجر , ما بك يا رجل , هل الاسياد راضون عنك لهذه الدرجة ؟

فضحك الشيخ محمد البواب ضحكة خبث و قال : كفانا الله من شر حسدكم يا شيخ خليل . و هل انت بالصلاة علي النبي ساكت ؟ ماشاء الله اري ابنتك ملتصقة بنابليون كأنها ستقوم و تقبله وسط الخلائق.

فأبتسم الشيخ خليل ابتسامة خفيفة من الاحراج ثم عاد و جلس في مكانه .

في الخلف السيدة هوي جالسة بجانب الشيخة أمونة و تهمس لها و تقول :
هنيئا لنا يا بنت التركية . انا و انت جالسون في الخلف و الاطفال مثل زينب و زبيدة يتخطفون قادة الفرنسيين . حسرة ما بعدها حسرة .

الشيخة أمونة : حرام عليك يا هوي , زينة مغصوبة علي هذا الزواج .

فضحكت السيدة هوي وقالت : حسنا أنا موافقة أن يغصبوني مكانها .

فقالت الشيخة أمونة : ألا يكفيكي هذا المدعو نقولا ؟

السيدة هوي : صحيح , اين ذلك المغفل ؟ سأذهب لأبحث عنه .

فضحكت الشيخة أمونة و هزت رأسها إستعجابا.

بداية شهر أكتوبر ١٧٩٨

سوق باب الشعرية . امام احد الحوانيت ينتظر احد الصبيان بقلق وبيده منشور و فجأة همس لنفسه و قال بصوت منخفض : ها هو جاء .

يظهر من بين الناس الحاج محمد المغربي يقترب من الصبي باستعجال و يقف امامه و يقول مفزوعا : يا ابن الفقرية , ماذا هناك ؟ ألا تعلم اني ذهبت لأجد حلاً في مصيبة البغال ؟

الصبي : دعك من البغال يا سيدي هناك مصيبة أكبر .

فزاد فزع الحاج محمد و قال بصوت عالي : انطق .

فأعطي الصبي المنشور للحاج محمد , فنظر فيه و قرأ منه و إذا به يصرخ و هو يتهاوي ويلقي بجسده علي كرسي بجوار حانوته و يقول : حسبي الله و نعم الوكيل , حسبي الله و نعم الوكيل , أنقنا من هؤلاء الكفار يا رب .

فجاء احد التجار من حانوت مجاور مفزوعا : ماذا حصل يا حاج محمد ؟

فاجتمع بعض المارة في الشارع علي الحاج محمد و جاره التاجر , فأعطي المنشور للصبي و قال : أقرأ عليهم و اسمعهم الهنا الذي نحن فيه . لم تنته من مصيبة بغالنا التي أخذوها منا غصبا و لم يعطونا الا ربع قيمتها حتي يرسلوا لنا مصيبة أخرى , أقرأ عليهم أقرأ .

فأمسك الصبي بالمنشور و قال :

قرر بونابرت نشر مرسوم بإنشاء رسوم التسجيل جاء فيه :

بند ١ . ينشأ في كل عاصمة من أقاليم القطر المصري مكتب للتسجيل حيث تسجل التواريخ رسميا لجميع سندات الملكية و العقود التي يحتل إبرازها أمام المحاكم

بند ٢ . لكل تسجيل يدفع رسم مناسب لأهمية العقد طبقا للتعريف المرفق قائمة منها بهذا القرار

بند ٣. لن يعترف بالملكات الخاصة إلا اذا كان ست ملكيتها مسجلا و كل الملكات الاخرى سوف يطلق عليها ملكات أهلية .

فقاطع التاجر جار الحاج محمد الصبي و قال : يا ولدي والله انا لم افهم شيئا

ثم نظر للحاج محمد و قال : ترجم لنا يا حاج محمد .

فضحك الحاج محمد و يده علي رأسه يولول و قال : يعني لو لديك وثيقة تثبت ملكيتك لأملكك سواء منزل او حانوت او اي شيء , لابد من ان تذهب لهم و تسجل هذه الوثيقة عندهم و تدفع رسوم تسجيل , ثم تذهب و تأتي بشهود لإثبات التسجيل و تدفع رسوم إثبات . ثم تذهب لتقيم قيمة الاملاك و تدفع رسوم تقيم , ثم بعد كل هذا تدفع ٢% من قيمة الملك بصفة دورية.

فضرب التاجر علي رأسه و قال : رسوم تسجيل , رسوم إثبات , رسوم تقيم , ثم ٢% ... اااااا يا ويلي . و ماذا يفعل من لا يملك وثيقة ملكية ؟

الحاج محمد : يتحول المنزل او الحانوت او الملك تلقائيا لملكية الجمهورية الفرنسية .

فهاجت الناس و بدأوا بصرخون و يصيحون . و فجأة سُمع صوت عيار ناري يصيب احد المتجمهرين في رأسه و يسقط ميتا . فهجم المتجمهرين علي اتجاه العيار ليمسكوا مطلقه , فأنهال عليهم سيل من العيارات النارية موجهه علي رؤوسهم و القتي بدأوا يتساقطون تباعا . فبدأوا يتراجعون و يهربون و الحاج محمد يصرخ فيهم : لا تهربون , نموت كراما و لا نحي عيبا . إشتوا و قاوموا .

فإمتلي المكان بنخان البارود و الناس تهرب و الحاج محمد ثابت مع صبيانه الذين يسقط منهم الواحد تلو الاخر بالعيارات النارية . و بعد دقائق توقف اطلاق النار و اختفت الناس و لم يبق الا الحاج محمد علي الارض وحده وسط كومه من الجثث ثم نظر لاتجاه اطلاق النار فوجد جنود من عساكر فرنساوية و نصاري الشوام و بدو و مغاربة يتقدمهم السفاح العملاق ذو الوجه الاحمر برطلمين و بجانبه عمر القلنجي . فوقفوا قرب الجثث و الحاج محمد ساقط علي الارض وسطها

فقال برظلمين : ألت انت شريك عبدالله المغربي مدير املك مراد بك ؟

قال احد الجنود النصاري الشوام : نعم هو سيدي , و قد كانت حوانيتنا لا يأتيها الناس بسبب هذا الاحمق .

برظلمين : اذا فإقتلوه .

فقال عمر القلقجي لبرظلمين : سيدي , هذا الرجل صاحب فضل علي قديم .

برظلمين ينظر لعمر : و ماذا يعني هذا ؟

عمر القلقجي : اعطه فرصه يهرب الآن , ثم اذا وجنته أمامك مرة أخرى سأقتله انا بنفسى .

برظلمين بإبتسامة خبيثة : حسنا , اعطه فرصة يهرب لمدة ساعة , و بعدها , إبدأ بالبحث عنه , و إذا لم تأتني به هذه الليلة سأقتلك مكانه .

فإبتسم عمر و قال : نعم .

فهرب الحاج محمد من أمامهم .

بعد ساعة , أمام بيت الشيخ عبدالله الشرفاوي , عمر القلقجي يطرق الباب بعنف و خلفه جنود برظلمين من النصاري الشوام , ففتح الشيخ و قال :
مالك يا ولدى تطرق بهذا العنف , تكاد تخلع الباب .

عمر : اريد الحاج محمد .

الشيخ : و فيما تريونه ؟

عمر : عليه مظلمة لاحد هؤلاء الرجال.

الشيخ : حسنا , تعالوا غدا , سأكون قد عثرت علي الحاج محمد , و نجلس جميعا و احكم بينهم .

و هم الشيخ بقفل الباب , فدفع عمر الباب ببندقية و قال صارخا للجنود
الذين خلفه : اذهبوا و انتوني بالفرنسيين

و بعد أن ذهبوا قال عمر للشيخ : شيخ عبدالله , أعلم أنه عندك . و قل له أن
يذهب من هنا فإنهم سيأتون بعد قليل و سيدخلون بيتك و سيفتشتونه .

ثم رحل .

بعد ساعة , برطلمين واقف أمام باب الشيخ عبدالله و الجنود خلفه كلهم
فرنسيين مدججين بكل الاسلحة من السيوف و البنادق .

برطلمين للشيخ عبدالله : اخرج لنا الحاج محمد المغربي .

الشيخ : هرب .

فشهر برطلمين ببندقية و اطلق عيارا ناريا فوق رأس الشيخ و قال : اخرجه
بدلا من ان اغضب .

فهرع المشايخ و الناس المجاورين لبيت الشيخ ليروا مصدر العيار الناري
و علي رأسهم الشيخ سليمان الفيومي و مصطفى الصاوي , فشاهدوا المنظر
, فجري الشيخين سليمان و مصطفى الي بيت نابليون و دخلوا عليه صالة
قصره مفزوعين و هو كان واقف مع موظفيه

فقال نابليون و المترجم يترجم : ماذا هناك ؟

سليمان الفيومي : رجالكم عند الشيخ عبدالله الشراقي يهددونه .

نابليون مستغربا : و لماذا ؟

سليمان الفيومي : ليخرج لهم الحاج محمد , و هو قد هرب من البارحة .

فأظهر نابليون علامات الغضب علي وجهه و هو يمشي تجاههم : مؤكدا ان
جرمه كبير , و لولا هذا ما هرب , و انتم تخفونه .

فأبتسم سليمان الفيومي لنابليون ملاطفا له و جري مصطفى الصاوي تجاه
الترجمان ليستعطفه ليهداً نابليون و قال : أرجوك هذا الصاري عسكر حتي
لا يفتك بنا ,

فتوجه المترجم لنابليون و هداهه ... فهداً نابليون و استدار و مشي خطوات
ثم جلس علي كرسية الضخم و قال : اين حانوت هذا الرجل و منزله ؟

سليمان الفيومي : في باب الشعيرة .

نابليون في غرور : يذهب معكما احد من طرفنا و يختم علي بيته و حانوته ,
و اذا لم يظهر في الغد , سنفتح البيت و الحانوت و نأخذ ما فيه و سنحول
البيت و الحانوت بما فيهما لملكية الجمهورية الفرنسية .

فقال مصطفى الصاوي و سليمان الفيومي في نفس واحد : حاضر حاضر
سيدي . ورحلا .

فقام نابليون و قال لأحد مساعديه و علامات الجد علي وجهه : متي إجتماع
الديوان .

قال المساعد : بعد قليل يا سيدي .

نابليون : حسنا . سأنتظرهم , و ارسل رسل للمشايع كلهم بأن يحضروا
ولا يتغيب منهم أحد للأهمية .

بعد ساعة , نابليون واقف بجانب باب كبير مغلق لقاعة اجتماعات كبرى
وأمامه احد العساكر الفرنسيين الذي يتنفس بصعوبة من قدومه جريا ,

نابليون : ها ما الاخبار ؟

العسكري : الاخبار سيئة سيدي , فأهل الصعيث مقاومتهم شديدة . هذا لم يعوق
الجنرال ديزيه عن التقدم , لكن التقدم بطيء و الخسائر كبيرة .

نابليون : و هل ذبح فيهم ديزيه كما قلت له , فالذبح سيرعبهم و يجعلهم يفرون
امامه .

العسكري : فعل سيدي , و أكثرها معركة بحر يوسف في الفيوم . و لكن هذا لا يخيف الاهالي و يجعلهم ينضمون لمراد بك أكثر و يستمتتون في القتال اكثر خصوصا ان قتالهم يعتت علي الكر و الفر

نابليون باستخفاف : قل لذيذه ان يصبر علي القتال و يذبح فيهم قدر المستطاع كما قلت له فقط . و في خلال اسابيع او شهور سينهي المسأله.

ثم ضرب علي كف العسكري و استدار و فتح الباب الكبير و دخل قاعة كبيرة فيها طاولة مستطيله طويلة و المشايخ يجلسون علي الكراسي في الجانبين و الكرسي الذي علي رأس الطاولة خلف الباب فارغ ليجلس عليه نابليون و الطرف الاخر يجلس كبار قادة الفرنسيين و المترجمين و اثنين من الحرس واقفون خلفهم في زاويتي القاعة و اثنين في منتصف جانبي القاعة و اثنين اخرين علي يمين و يسار الباب و كلهم معهم بنادقهم و سيوفهم

فقال نابليون بترحاب و ابتسامه و المترجم يترجم : اهلا اهلا بأعضاء الديوان المبجلين .

ثم نظر و استغرب و قال : أين الشيخ السادات ؟

قال الشيخ عبدالله الشرفاوي : تأخر بضعا من الوقت بسبب تأخر سفن تجارته.

فابتسم نابليون قائلا : و الله لا اعلم لماذا يعمل هذا الشيخ ؟ ان عنده من الاموال ما تكفيه و تكفي ٥ اجيال من احفاده .

فهمس الشيخ مصطفى الصاوي للشيخ سليمان الفيومي : إنه الحسد كما يجب أن يكون .

فأقرب نابليون من الشيخ عبدالله الشرفاوي و أشار لأحد العساكر الواقفين فخرج العسكري , ثم قال للشيخ عبدالله : كيف حالك يا شيخ عبدالله ؟

الشيخ : الحمد لله .

نابليون : كيف صحتك ؟

الشيخ : الحمد لله .

نابليون : كيف اولادك ؟

فنظر الشيخ لنابليون متعجبا وقال : الحمد لله .

فدخل العسكري بشال ملون بألوان الجمهورية الفرنسية و دخل عسكري آخر خلفه معه مجموعه من هذه الشلات , فأخذ نابليون الشال و ضعه علي كتف الشيخ عبدالله و رجع خطوة للوراء و رفع يده سعيدا وقال : هكذا اجمل بكثير .

فاستشاط الشيخ عبدالله غضبا و قام و لف ليواجه نابليون و رمي الشال علي الارض , فقام كل من في القاعة من علي كراسيهم و التف المشايخ حول الشيخ عبدالله و قال سليمان الفيومي بابتسامة ملاطفة : اعزونا يا سادة , فإن هذا الشال سيضيع هيتنا عند الله و عند المسلمين .

فاستعجب نابليون و الدم يغلي في عروقه ثم صرخ في وجه الشيخ عبدالله و قال نابليون : هذا الشال سيضيع هيتكم عند المسلمين ؟؟ ألم تضع هيتكم عندما فر شيخ أزهركم يوم ان دخلت بلكم و لم يعود إلا بعد ان اعطيته الأمان ؟

ثم نظر نابليون لسليمان الفيومي و مصطفى الصاوي : ألم تضع هيتكم عندما جئتماني و انا في البر الغربي كمنوبين عن المشايخ , لا لتحذراني من مقاومة اهل الاسلام و علماء الازهر لي , بل لتطلبوا مني ضمانات أني سأحتل بلاكم ... ولكن بسلام ؟

ثم عاد و نظر للشيخ عبدالله : ألم تضع هيتكم يا شيخ عندما كنتم تتشفعون في زوجات و أبناء المماليك بعدما قبض عليهم حسن باشا العثماني , و هو الذي جاء ليسحق المماليك منذ عدة سنوات ؟ و في المقابل , كلما كانت تثور الناس علي المماليك , كنتم تهنونهم و تشبطون من عزائمهم بترديكم وعود المماليك كالبغاوات التي كانت تذهب ادراج الرياح قبل ان يطلع عليها النهار .

ثم التف و اعطي لهم ظهره و مشي بضع خطوات وهدأ و قال : شيخ عبدالله ,
انت لست رئيس الديوان من هذه اللحظة .

فخرج الشيخ عبدالله من القاعة غاضبا , و جري المشايخ باتجاه نابليون
فالتف حوله القاده الثلاثة الكبار و شهر العساكر بنادقهم فقال المشايخ :
سيدي الجنرال سامحه , نرجوك .

فنظر نابليون إليهم , فدخل في هذه اللحظة الشيخ السادات و قال : ما الذي
يحدث ؟ لماذا خرج الشيخ عبدالله غاضبا ؟

فقال نابليون : اجلس يا شيخ السادات . اجلسوا ايها المشايخ , اجلسوا من
فضلكم

فجلس الجميع في اماكنهم و جلس الشيخ السادات مكان الشيخ عبدالله و
جلس نابليون علي رأس الطاولة و قال الشيخ السادات متلهفا : ماذا حصل ؟
فأشار نابليون لحملة الثلالات , فبدأ العسكري بالباس الشيخ السادات الشال ,
فسكت و ارجع ظهره للكرسي و اغمض عينيه و وجه وجهه للارض و قال:
لهذا خرج غاضبا.

ثم دار العسكري علي المشايخ يضع علي أكتافهم الثلالات و هم صامتون .

ثم أشار نابليون لعسكري أخر فخرج العسكري و جاء بمجموعة من
المنشورات و وضع امام كل شيخ منشور , فأرجع نابليون ظهره علي
الكرسي و قال للشيخ السادات: اقرأ و أسمعني .

فقرأ الشيخ السادات :

قرار من نابليون بونابرت القائد العام

مادة ١ . يلتزم جميع سكان القطر المصري بوضع الشارة الفرنسية ذات الثلاثة
ألوان علي صدورهم

مادة ٢. علي جميع المراكب النيلية رفع العلم الفرنسي الثلاثي الالوان علي ساريته

مادة ٣. لن يتحدث القادة و الحكام في المقاطعات و الضباط الفرنسيون الي اي احد لا يضع الثارة و كذلك في جميع الاقسام المقامة علي النيل . وسيمنع ملاحه اي مراكب نيلية بنون وضع العلم و سيشراف علي ذلك جميع القادة الفرنسيون و قواد الحاميات في رشيد و دمياط و بولاق .

مادة ٤. اعضاء الديوان فقط هم المسموح لهم بارتداء الشال الفرنسي علي اكتافهم .

ذات صباح . استيقظت الشيخة أمونة مفزوعة علي صوت صراخ خادمتها و أصوات طرق و هدم من خلف البيت . فنزلت بسرعة فوجدت كبيرة الخادماث بشينة تصرخ : الحقينا يا سيدتي , مفتشة الصحة و عساكر فرنسيس يهنمون شاهد قبر السيدة صفية أمك .

فقالث الشيخة أمونة و هي تنزل بسرعة علي الدرج من الطابق العلوي :
الساقطة بنت الساقطة .

فخرجت الشيخة أمونة من باب المنزل الخلفي و في يدها نبوت , فوجدت مفتشة الصحة تلبس قميص مفتوح شفاف الاكمام و يظهر رقبه طويله و كتفين نحيفين , و مكشوفة الشعر الناعم الاسود الطويل , جالسة علي كرسي تدخن لفافة ظهرها للباب ووجهها لللاثين من العساكر الفرنسيين و عامل الهدم , فابتسمت أمونة بغضب و قالت : ها ... كما قلت الساقطة بنت الساقطة.

فأدارت المفتشة وجهها , فصرخت كبيرة الخادماث بشينة : السيدة هوي.

فرجعت المفتشة الي ما كانت عليه و لم تغيرهما إنتباه , فهجمت أمونة عليها , فأطلق احد العساكر عيار ناري في الهواء

فقالث هوي : خطوة أخرى إلي الامام سأجعل العيار التالي في جسدك و ضربة المعول التالية في بيتك بدلا من قبر هذه التافهة الملقاه في قعر جهنم .

- 92 -

فجائهن احد المترجمين مسرع و قال : ماذا تريدن ايها النسوة المخابيل ؟

قالت أمونة : نحتج علي ما تفعلوه بقبورنا .

المترجم : و ماذا يحدث في قبوركن؟

أمونة : تهدمونها .

المترجم : ما هذا , قرار القائد العام لم يكن هنم المقابر , إنما كان التوقف عن الدفن عند البيوت وتحويل دفن الموتى خارج البلد تجنباً للطاعون الذي يتكرر هنا من فترة للاخري .

أمونة : و هل يجب علينا أن نصدقك أنت أم نصدق ما رأته أعيننا .

المترجم : حسنا حسنا .

ثم نادي المترجم علي احد قواد الحرس و قال له : ارسل رسل لكل المفتشين الصحين ليتوقفوا عن الهنم و يبلغوهم بأن القرار يطبق علي من سينفن بعد تاريخ اصدار القرار و ليس قبله .

فانطلق الرسل , فقال المترجم لأمونة : هيا اذهبن الان .

فنزلت أمونة من فوق اكتاف النسوة و بدأت النسوة في الرجوع و بعد ابتعادهن بفترة نادي المترجم علي قائد الحرس الذي أرسل الرسل و قال له : بعد ان يتعدن عن بيت نابليون , ابعث جنودك ليقبضوا علي تلك المرأة التي تقودهم .

بعد نصف ساعة . تمر النساء في أحد الشوارع الكبيرة و علي رأسهن الشيخة أمونة و خادمتها . و إذ بجمهور عملاق من الناس يمشون في مظاهرة يتوسطهم مجموعة من الفرسان علي خيولهم مثمين , فإصطفت النساء يمين و يسار الطريق لتعبر المظاهرة , فسألت أمونة كبيرة الخدم : من هؤلاء ؟

فردت احد النساء كانت في المظاهرة النسائية : هؤلاء سكان منطقة القلعة , غاضبون لأن الفرنسيين أصدروا أوامره بالأمس بترحيلهم من مساكنهم إلي مناطق أخرى ليتسني لهم إقامة دفاعات في منطقة القلعة المطلة علي باقي القاهرة .

فغضبت أمونة : ألا يتقي هؤلاء الفرنسيون الله ؟ أمس ترحيل سكان القلعة و قبل أمس رسوم الاملاك و قبله سحب بغال الناس بالغصب , و اليوم هدم القبور , هل هؤلاء بهذا الغباء ليشيروا الناس عليهم هكذا كل يوم ؟ و اين هؤلاء مشايخ الديوان ؟ الا يصدون عنا قليلا ؟ أم انهم مجرد أعوان للفرنسيين ؟

فهمست كبيرة الخادماث بثينة للاحد الخدمات : انظر من الذي يتكلم . اقتلني اليوم و امشي في جنازتي غدا !!

فنظرت أمونة لبثينة : اقلت شيئا يا حلوه ؟

فقالت كبيرة الخدم بثينة مفزوعة : كنت اقول لهذه البلهاء , لو كانت نسيت القدر علي النار , سأعلقها من قدميها علي باب المطبخ.

فلمحت أمونة شيئا فتوترت و قالت : هيا , هيا من هنا .

فنظرن الخادماث فوجدن سليمان الجوسقي و ابنه و بعض من العميان , ملثمين علي الخيول في مظاهرة سكان القلعة , فصرخت أمونة : قلت هيا ايها الغبيات .

فسمع سليمان صوتها فنظر هو و ابنه لمصدر الصوت فعرفاها , فنظر الابن محبطا للأرض : آآآآآه , ها قد جائنا البلاء .

سليمان لابنه : اسمع ايها الولد , اذهب فأقتلها و سأكافئك كما لم تكافئ من قبل.

الابن : و لماذا ؟ دعها و شأنها .

سليمان : امامك اختيارين , تقتلها و تأخذ مكافئك , او لا تقتلها و سأقتلك أنا .

الابن و علامات الاحباط علي وجهه يتكلم بصوت منخفض : والله ان قتلتها لن تكافئني و ان لم اقلها لن تقتلني . انت لست بارع الا في الكلام , و لكني سافعل لارتاح من صداك انت و أمي .

سليمان : بماذا تثرثر ايها المخبول ؟

الابن : لا شئ , سأذهب .

فخرج الابن من مظاهرة سكان القلعة و نزل من علي فرسه و دخل بجانب جمهور النساء بعد ان بدان يتحركن بعد مرور سكان القلعة و اقترب من الشيخة أمونة , و فجأة ظهر الجنود الفرنسيين يقودهم عمر القلقيجي هاجمين علي النساء ليقبضوا علي الشيخة أمونة , فهرب ابن سليمان و هربت أمونة و خادمتها في أحد الشوارع الجانبية , فلحقهم عمر القلقيجي , و هكذا من شارع الي شارع الي ان ظهر سليمان الجوسقي علي فرسه و بجانبه ابنه و معهم العميان علي خيولهم و معهم بنادقهم كلهم ملثمين . واصبحت أمونة محاصرة بين رجال سليمان الجوسقي و عمر القلقيجي , فقال سليمان لعمر : أعربي انت؟

عمر بالعربية : من انت ايها البطل ؟

ينظر سليمان لجنود عمر و يقول : افيهم من يفهم العربية ؟

عمر : لا , استعانو بي لاني اعرف لغتهم و لغتنا .

سليمان : كم يكفيك و تتركهن ؟

عمر : كم ستفع ؟

سليمان : كيسين فضة .

عمر : لا , كيسين ذهب .

سليمان : اتفقنا , هذا ابني سأرسله لك الليلة .

عمر : و ان لم ياتي ؟

سليمان : انت تعرف بيتها , اذهب لها و اقتلها .

عمر : لا , سادعو قائد الشرطة برطلمين لشرب الخمر في رأس شيخ العميان الليله .

سليمان : حسنا . من سيدأ ؟

عمر : بالطبع أنت .

سليمان يرفع بندقيته و يصرخ في رجاله : اطلقوا نيرانكم .

فإنهالت العيارات الناريه فوق رؤوس جنود عمر القلجي , فيلتف عمر و يأمر رجاله بالانسحاب . و ينطلق سليمان الجوسقي هو و ابنه و يُهْرَبَان أُمُونَة و خادمتها .

بعد ربع ساعة , يدخل سليمان الجوسقي و ابنه و بعض العميان و معهم أُمُونَة و خادمتها دارهم في صاله الاستقبال الكبرى في منتصف البيت , فتخرج زوجة سليمان من الطابق العلوي , فيضرب ابن سليمان علي رأسه و يقول : ها هي أمي . ليله سوداء بإذن المولي .

فتصرخ الام و تقول : ما هذا , هل ضاقت بك الدنيا ...

فقاطعها سليمان بعيار ناري تجاهها فهربت و دخلت احد الغرف . ثم نظر لإبنه و قال : خذ مما عندك من ذهب و خذ كيسين لهذا السافل .

فقال الابن : حاضر .

وهم بالانطلاق

فنظر سليمان لرجالاه و قال لهم : قينوا هؤلاء النسوة و القوهم علي الارض بجانب بعضهن .

فتوقف ابنه و رجع و قال : ما بك يا ابي ؟ انتقمهم و تدفع كيسين ذهب من أجل أن تقتلهم ؟ إذا كنت تركتهم يقتلونها .

فصرخ سليمان في ابنه و قال : احرص يا ابن الكلب .

ثم نظر لرجاله و صرخ فيهم : ماذا تنتظرون ؟ هيا افعلوا ما أمرتكم به .

فهمم الرجال علي النسوة فأطلقن الصرخات ماعدا أمونة التي قاومت قليلا لكنها فشلت أمام اثنين من الرجال الفحول فقيدوا النسوة و القوهن علي الارض جاثين علي ركبهن , فخرجت زوجة سليمان تركض و نزلت علي السلم بسرعة و أمسكت بذراع سليمان و قالت و البكاء يعتصرها : ارجوك لا تقتلها , دعها فقط و شأنها . هذه الشيخة أمونة موصولة بالأسيد . لو قتلها في الدار و سال دمها هاهنا ستحل اللعنة علي الدار .

فضربها سليمان و سقطت علي الارض و هي تبكي , والخادماات يبكين و ابن سليمان في غاية القلق ورجال العميان يترقبون. فشهّر سليمان منته و وجهه تجاه رأس أمونة و هو يصارع عينيه التي تكاد تنفطر من البكاء و أمونة وجهها للأرض يتساقط منها مزيج من قطرات الدموع و العرق من الزعب المكثوم .

فجأة يقطع كل هذا صوت كبيرة الخدم بشينة المبحوح من كثرة البكاء و هي تقول بصوت يصارع من أجل ان يصل لمسامع الحاضرين : هناك ليلتين لم يغين عن بالي يوما , الاولى , ليلة أن ماتت السيدة صفية أم الشيخة أمونة , و قد كانت متزوجة بسعيد البكري . ليلتها فقتت أمونة عقلها و أصبحت تركض في الدار كالمسعورة لدرجة اني قفزت عليها بكل جسدي و هي علي السلم لأمسك بها و اسيطر عليها و هي

لا تشعر بنفسها من كثرة الصراخ . و حاولت انا ايقافها بكل الطرق و لم يؤثر كل هذا . فأرسلت احدهم لسليمان . فجاء بسرعة البرق , علي الرغم من ان هذه التي ماتت هي من حرمتها من أمونه . وبمجرد ان وقعت عين أمونة عليه...

فصرخت أمونة : احرص يا ابن الكلب , احرص يا ابن الكلب ..

فأشار ابن سليمان لأحد الرجال بجانب أمونة بأن يضع يده علي فمها ليخرسها و قال لبثينة : أكلمي , أكلمي أرجوكي .

فوضع الرجل الفحل يده علي فم أمونه و أصبحت تصرخ صراخ مكتوم غير مفهوم ,

و أكملت بثينة : فأنطلقت أمونة كالسهم في حضن سليمان كأنها تهرب من العالم في قلب كهف بعيد في صحراء بعيدة و ظلت تضرب علي كتفه و صدره الي ان سقطت مغشية عليها . و كان هذا المشهد بالتأكيد نهاية زواجها و بداية معاناتها في حياة الوحدة .

فاستسلمت أمونة و توقفت عن محاولة الصراخ لاسكات خادماتها

ثم نظرت كبيرة الخدم بثينة لابن سليمان وقالت : و الليلة الثانية كانت بعد الليلة الاولى بسنوات عندما مرض هذا الشاب و هو طفل لا يعقل . و كان بينه و بين الموت شعره . فركض ابوه به بنون تفكير و لا تسيير الي أمونة دون ان يقول لامه و لا لأي احد , لانه كان يعرف انها كانت تعلم من امور الطب و الاعتشاب شيئا لا بأس به .

فنظر الابن الشاب و أمه باستعجاب إلي سليمان الذي ظهر و كأن كلام الخادمة كصواعق تنزل عليه .

كبيرة الخدم بثينة : فبمجرد أن رأت أمونة الطفل هكذا , و إذا بها تصعق و كأن هذا الطفل لإنها , و انطلقت النموع من عينيها و هي تلهث في غرفتها ترتدي اي شئ لتأخذه و تنطلق به لأحد الاطباء التي تتعامل معهم في بعض الاحيان . و لحظي ذهبت معهم لهذا الطبيب , و كان من الفرنسيس , لم اكن اعلم سبب اقامته في مصر حينها و كان يسكن في اطراف البلد . و جلسنا عند الطبيب يومين . وبينما كانت تصرخ الام ظنا ان الطفل مات و ان سليمان هرب حزنا علي الطفل , كنا نحن جالسين بجانبه . والمضحك ان الطبيب كان يظن ان سليمان و أمونة هما والدا الطفل من شدة الحميمة و القلق الظاهر عليهما.

ثم نظرت للارض حسرة : والامر ليس مجرد ذكريات و انتهت , لا . فعندما جاءت أمونة بسليمان البيت وهو مصاب منذ عدة أسابيع بعد معركته ضد نابليون , لم تستطيع معالجة جرحه و هي اكثر الناس خبرة بذلك , ولكن كانت متاكدة ان سيل دموعها الذي لا يتوقف خوفا عليه لم يكن ليمنها من وضع مشرط في جبت حبيبها التي عشقته و لم تكن تتوقف عن سرد حكاياته لنا طول الليالي . و ارسلت لطبيب اخر ليعالج سليمان و لم تجعله يرح بيتها الا بعد شهر بعد ان تأكدت من شفائه تماما.

ثم نظرت للابن : و الان , كما قال هذا الشاب , لماذا تدفع كيسين ذهب يمكن ان تكفي ١٠ بيوت مدة شهر من مأكّل و مشرب لتنفذها ثم تأتي لتقتلها هنا , إذا لكنت تركتهم يقتلوا افضل . صحيح يا ولدي . هو أنفذا و دفع كل هذا لأنه بشكل غير إرادي لم يستطيع ان يري أحداً يؤذيها . أما و بعد ان جاء بها إلي هنا و شعر أنها بأمان . تذكر الإنتقام منها .

فسقط سليمان علي الارض و سقط مبدسه من يده و الدموع جفت في عينه و جفت في عيون الجميع بعد أن تنفسوا الصعداء ما عدا زوجة سليمان التي اكملت بكائها و قامت و صعدت الي غرفتها .

فقال سليمان و هو ناظر للارض كالمصاب بنوبة قلبية : من أين جئتني يا بشينة ؟ كيف تذكرتي كل هذا ؟ كنت اريد أن أقتلها و أنتهي من عذابها سنين لا اعلم عندها لا تبرح أحلامي لا في نومي و لا يقظتي . صدقيني انا لا احب سيدتك يا بشينة ...

و بدأت الدموع تنزل تدريجيا من عينه : انا مريض بها . فالذي اعرفه عن الحب أنه شيء يأتي بالسعادة للمتحابين . أما أنا لم أتذكر سيدتك يوما , إلا و شعرت بنبض قلبي يقرع في صدري كقرع اجراس الكنائس .

ثم ضحك ضحكه : و بالطبع لا يمكن وصف حالتي عندما اسمع ان اي رجل يقترب منها او هي تقترب من اي رجل . اسألوا الحاج محمد المغربي عن حالتي عندما سمعت بأنها تزوجت سعيد البكري . أخذني للفيوم في الصحراء . و ظالت ابكي اسبوع و كنت ابكي طوال كل يوم الي ان يغشي علي في آخره . و بعد أن يأس مني أحضر لي فرسا و قطاع حطب و أمرني أن احضر له كيس

فضه كل يوم بعد ان اقطع الاشجار و اجمع الحطب و اذهب للسوق و ابيعه .
و لكي أحضر كيس فضه كان لابد أن اقطع ١٠ اشجار يوميا في حين ان
الانسان العادي لا يستطيع ان يقطع ٥ . و بالفعل كنت احضر له كيس و نصف
فضه كل يوم . بعد شهر , توقفت عن البكاء . و لكن امتلئت حقا و غلا علي
كل النساء . و عاهدت نفسي ان اعذب أمونة و اعذب كل امرأة اقابلها . و قد
نجحت في تعذيب كل من قابلتهن من النساء . حتي هي نجحت في تعذيبها . و
لكن علي الرغم من اني شبت من الانتقام من كل النساء , لم اشبع من الانتقام
منها . ليس لأنني قصرت في تعذيبها , و لكن لان الالم و قرع قلبي لم يتوقف
ابدا .

ثم هم سليمان بالقيام فهب ابنه ليساعده , و فجأة قالت أمونة بصوت يملئه
خايط من الضعف و تصنع القوة : قبلت الزواج بك .

فصدم الجميع و إنتبه سليمان بعد أن قام , و قال : لقد قلتها لي قبلا و كنت
تكذبين علي .

فصرخت بشينة و ابن سليمان في صوت واحد و قالوا : و كيف لك ان تعرف؟

و اكملت بشينة : أيها الابله ؟

فنظر لها سليمان بغضب , فتوترت بشينة و نظرت في الارض , فاستدرك ابن
سليمان الموقف و قال : يا ابي كيف عرفت انها كانت تكذب عليك ؟ لا تقول
لي ان شكلها لم يكن جادا . فكيف لأنثي أن تتجراً لتفتح فكرة قبولها للزواج من
رجل لم ينطق بطلبها بالزواج الا اذا تظاهرت بالضحك و عدم الجدية لكي لا
تخرج نفسها .

فقالت أمونة للإبن : والله ان اباك هذا أكبر مغفل في العالم .

فنزل سليمان علي ركبتيه و امسك بكتفي أمونه و هزها و قال لها : هل
تتوقعين بأنني سأصدق ان الشیخة أمونة ستعلن موافقتها للزواج من رجل
ربطها و رفع عليها السلاح و كاد يقتلها . لقد كنت تتكبرين في مواقف اقل من
هذه , فكيف و انت مربوطة و مهددة . لكن اذا فكرت بأنك تقولين هذا لايجاد
فرصة للهروب من الموت , سأجد أن هذه الفكرة هي الاقرب لشخصيتك .

فَقَالَتْ أُمُونَةُ : صحيح , انت ربطتني و أهنت كرامتي . لكن ايضا بكيت أمام
اهلك و رجالك من أجلي و صرحت أمامهم بحبك لي و عذابك في بعدي. فأبي
إمرأة تزي كل هذا أمامها و لا تشعر بإستعادة كرامتها و كبريائها الي درجه
تجعلها تعلن موافقتها للزواج .

فأنزل سليمان يده من علي ذراعيها و تجملت معالم وجهه و حركات جسده ,
فاتحا فاه , فقالت أمونة ساخرة : حسنا , دعنا جالسون هكذا الي الغد.

منتصف شهر أكتوبر ١٧٩٨

في مقر قيادة نابليون , نابليون جالس في قاعة الاجتماعات يقرأ بعض التقارير , فدخل عليه القادة الثلاثة , كليبر بيده ورقتين و بون و مينو . فألقي كليبر أحد الورقتين أمام نابليون و قال له : إقرأ هذا .

فنظر نابليون لهم بإستغراب ثم نظر للباب فلم يجد أحدا يقف عليه فقال : أين الحرس؟ و لما لم يدخل دومرتين ليبلغني ..

فقاطعه كليبر وقال بحده : أجربنا بعض المقاطيع لئيشيروا بعض الشغب أمام القصر و طلبنا من دومرتين ينزل و يسيطر علي الامر , و ما إن نزل , دخلنا عليك .

سكت نابليون ثم نظر في الورقة ثم نظر لهم ساخراً : يعني ماجلون يقول أن محمد كريم عميل للماليك ضد الجمهورية الفرنسية ؟

فباغته كليبر و أعطاه الورقة الثانية : امض علي هذه .

فقرأ نابليون , فقام من علي كرسيه و الغضب ينفجر من وجهه : أجنتم ؟ اتريدون إجباري علي إعدام محمد كريم .

فأقرب الثلاثة من نابليون تخويفا له و قال مينو : إعدام شخص بأمرك , أفضل من إعدامه ايضا و لكن بعد انقلاب قوات القلب و الجناح الايمن و الاليسر عليك . و من يعرف ربما تلحق به بعد فترة , فالعالم يعج بأناس يتمنون أن يصلوا لورقتك .

فترجع نابليون خطوات الي الخلف و هو في قمة الفزع الي ان اصطدم ظهره بالحائط , فسحب كليبر الطاولة بقوه يقربها منه و أخذ مينو الريشة و دواة الحبر و وضعهما أمام نابليون علي الطاولة . فأتحنى نابليون ووضع الورقه علي الطاولة و أخذ الريشة من الدواة و مضى علي أمر الإعدام . فسحب كليبر الورقة و خرج الثلاثة من الغرفة مسرعين . فألقي نابليون جسده علي الكرسي مصعوقا .

بمجرد خروج القادة الثلاثة من البيت ذهب المقاطيع و انفض الشعب و صعد دومرتين و دخل علي نابليون و هو جالس علي الكرسي مذهول مما حدث و قال له : أسف سيدي و لكن كان بالأسفل

فأشار إليه نابليون بأن يصمت , ثم سكت قليلا ثم قال : دومرتين , انذكر الموقف الذي عينتك فيه قائدا لحرسى الخاص ؟

دومرتين : نعم سيدي .

نابليون : ألم يكن أول شئ تفعله في هذا المنصب أنك أبعت عني هؤلاء القادة الثلاثة و أمرتك برفع السلاح في وجوههم .

فصعق دومرتين و نظر للبواب ثم نظر لنابليون فوجده قد قام من كرسيه و لكمه علي وجهه لكمة قوية بكل غل أنزلت من فمه الدم و أسقطته علي الارض.

نابليون بكل غيظ : أيها الابله ، لا أراك امامي من اليوم . و الليلة خذ نفسك و ارجع علي المدفعية مرة اخري .

ثم صرخ : هيا اغرب عن وجهي .

فقام دومرتين مفزوعا و جري للخارج , فأصطدم بشخص ذو شعر منكوش و نظارة دائريه و لباس فرنسي غير عسكري كان داخلا علي نابليون مفزوعا من صوت الصراخ فقال : سيدي ماذا هناك ؟

فنظر له نابليون ثم ذهب للكرسي و ألقي بنفسه علي الكرسي و هو في حزن شديد و قال : لقد أجبروني علي إمضاء أمر إعدام محمد كريم يا كافاريلي .

كافاريلي (عضو لجنة الاقتصاد السياسي في مجلس علماء الحملة زميل شولوكوسكي المسجون) : وما المشكلة يا سيدي ؟ ليس من الاصلح لنا أن نقتل شخصا يحرض ضدنا ؟

نابليون يظهر علامات الاستياء علي وجهه : لا تكن غبيا مثلهم يا كافاريلي , كلنا نعرف أن لا تحريض محمد كريم و لا عمر مكرم و لا ألف مثلهما سيجعل

هذا الشعب ينهض و يقاوم . أقصى ما يستطيع هؤلاء أن يفعلوه هو أن يدفعوا الشعب للقيام بهبه لا تستمر أكثر من ساعات , علي الاكثر أيام . لكن أكبر خسارة أن يسجلنا التاريخ أننا قتلنا شريفا من الشرفاء مثل محمد كريم .

كافاريللي : سيدي , لماذا تنتظر لهؤلاء أنهم عظماء ؟

نابليون : لأنهم كانوا أقرب ما يكون من نموذج الرجل العظيم , نبينهم محمد .

كافاريللي باستغراب : و لماذا نبينهم محمد رجل عظيم ؟

رفع نابليون رأسه و نظر للسقف و تهدد و قال : آآه يا كافاريللي , هذا الرجل الذي يحلم أي قائد عسكري أن يصبح مثله . هذا الرجل هو أول من أحدث تغييرا ثوريا..

فاعتدل نابليون في جلسته و بدأ الانفعال يظهر عليه ثم أكمل : نعم هو أول من أحدث تغييرا ثوريا في العقيدة العسكرية , فجعل اتباعه يقاتلون في سبيل شيء عجيب و هو الدين , ليس الاموال و القصور و النساء و الذهب , إنه الدين . نجح في صناعة أول جيش منظم في تاريخ البشرية مؤمن بمفاهيم مثل الجهاد , الشهادة . و مما صنع هذا الجيش ؟ من بعض الفوضويين الذين كانوا يوالون قيائهم بلا عقل . كيف حولهم من هذه الفوضى لهذا النظام المتفاني لمعاني مثل تلك ؟

ثم قام من علي كرسيه متحمسا و أكمل و هو يتمشي في القاعة : ثم أن هذا الرجل اخترع شيئا لم يكن معروفا من قبله , الحرب النفسية , حتي أنني سمعت أنه يقول عن نفسه (نصرت بالرعب مسيرة شهر) كيف هذا ؟ ناهيك عن أنه حل معضلة الشعور العام بتميز العسكر المقاتلين علي العوام الغير مقاتلين و جعل الكل سواسية !! صدقتي لا اعلم كيف حلها ... و لكنه في النهاية حلها .

ثم تنهد و جلس علي احد الكراسي و قال : أرجو أن لا يفوت الوقت الذي أستطيع أن أوحّد جميع الرجال العاقلين و المثقفين في فرنسا و أنشئ نظام حكم متناسق مؤسس علي مبادئ القرآن التي هي وحدها الصادقة و التي يمكنها ان تقود الناس إلي السعادة .

ثم ضحك استهزانا و القى ظهره علي الكرسي و قال : و كيف لي بهذا و نحن نقتل القلائل الذين فيهم شئ من روح محمد العظيم .

كافاريللي مستعجبا : حسنا , و لماذا لم تسلم أنت يا سيدي ؟

نابليون : المسلمون الحقيقيون مثل محمد كريم و عمر مكرم أصبحوا أقل قلة في العالم يا كافاريللي . و إذا أصبحت مسلما كما كان محمد النبي العظيم سأخسر كل شئ , قيادة الجيش و تاريخي من الانتصارات ...

ثم نظر بابتسامة خبيثة لكافاريللي : و حكم فرنسا الذي ينتظرنى .

فابتسم كافاريللي وعيناه في الأرض وتهرب في الاتجاهات : و أنا أقرأ عن تاريخ هذا البلد , قرأت قصة دارت بين حاكمها و بين محمد النبي العظيم .

فانتبه نابليون , و أكمل كافاريللي : إذ ان محمد أرسل لحاكم مصر حينها - و كان يُدعى المقوقس - رسالة يطلب منه فيها أن يسلم . و كان هذا المقوقس مثلك تماما يا سيدي , يعترف قيمة هذا النبي و قيمة دينه , و لكنه خاف علي ملكه , فأكرم المقوقس رسول هذا النبي و بعث معه الهدايا .

فتحس نابليون و قال : و ماذا كان رد محمد علي الهدايا ؟

فتوتر كافاريللي و هرب نظره بعيدا , فقام نابليون من علي الكرسي و اقترب منه و كرر عليه : ماذا كان رد محمد ؟

كافاريللي : لم يهتم للهدايا كثيرا و قال : خاف الخبيث علي ملكه , و لا بقاء لملكه .

فاستشاط نابليون غضبا و صرخ : انقلع من امامي ايها القذر .

فجري كافاريللي ناحية الباب و لكنه توقف عند الباب بعدما جلس نابليون علي الكرسي مفزوعا , فقال كافاريللي : سيدي لقد وجدنا مكان اقامة المجمع العلمي و نريد إمضاءك علي تصريح البناء .

فأخذ نابليون أنفاسه و تمالك أعصابه و قال : تعالي .

فجائه كافاريللي و أعطاه الورقة فوقع عليها ثم أعطاها مره أخرى لكافاريللي ثم ذهب .

بعد أيام , حي الناصرية السيدة زينب أمام احد الدور الكبيرة , يقف مجموعة من علماء الفرنسيين علي رأسهم كافاريللي يراقبون تجمهراً في مقهى في الجهة المقابلة , يكلمون بعضهم مستغربين . و إذا برجل ذو عمامة متوسطة , و جبين عريض و عنان واسع و وجه طويل و لحية رفيعة و يظهر عليه انه من متوسطي الاحوال و معه احد المغاربة العارفين باللغة الفرنسية يدخلان علي العلماء فيمجرد وصلهم اظهر العلماء علامات الفرح و الترحاب و قال كافاريللي : اهلا اهلا بكم , نورتونا .

فابتسم ذو الجبين العريض وقال و المغربي يترجم : اهلا بكم . أنا عبد الرحمن الجبرتي , و هذا مترجم .

فتهلل وجه كافاريللي و قال : سمعت عنك , انك من واسعين العلم و الحكمة في هذه البلاد .

فابتسم الجبرتي : رفع الله مقامك . سمعت عن افتتاحكم لهذا المجمع العلمي لإستقبال طلاب العلم , فهل يمكن لأي احد الانضمام ؟

فنزلت علي وجهه كافاريللي علامات الحزن فجأة و قال : أي احد يستطيع الانضمام , و لكن لم يأتي أي أحد . و المصيبة اننا قررنا تقديم هذا العلم بدون مقابل لإغراء الناس , و ايضا لم يأتي أحد !!

فابتسم الجبرتي حزنا و قال : هل لي أن أدخل ؟

كافاريللي: بالتأكيد .

فدخل الجبرتي ثم تبعه المترجم فسأل أحد العلماء الفرنسيين المترجم : ما هذا الحشد من الناس في هذا المقهى ؟

ضحك المترجم و لمعت عيناه و قال : إن السيدة هوي ستأتيه اليوم , و هم ينتظرونها منذ الصباح تقريبا .

فأستغرب العالم وقال : من السيدة هوي ؟

فأبتسم المترجم وقال : انها مدفع من مدافع المماليك سابقا ثم ...

فأمسك المترجم بيد العالم وألصق كتفه في كتف العالم وقال : تعالي , سأشرح لك من السيدة هوي .

فدخل المترجم و العالم خلف الجبرتي و كافاريللي في ساحة استقبال كبيرة في منتصف الدار و في كل الجوانب من كل الزوايا دواليب من الكتب و المخطوطات و الدار كلها لا يوجد شخص واحد غير العلماء فقال كافاريللي للجبرتي : عندي مفاجأة لك .

فنادي كافاريللي علي احد المساعدين , فجاء المساعد و معه كتاب ضخ فأمسكه كافاريللي و قدمه للجبرتي وقال : هذا كتاب وصف مصر .

فإندهش الجبرتي , ثم تجولوا في المجمع حتي دخلوا قاعة كبيرة فيها عدد كبير من العلماء و امامهم رسوم فيزيائية كثيرة و اكبر رسمه لبالون هوائي كبير , فقال المترجم : وما هذا ايضا؟

كافاريللي : إنه البالون .

فقال احد العلماء لكافاريللي : سيدي , مازال مشكلة الغاز قائمه .

كافاريللي : اقسم اني كلمت القيادة علي هذه المشكلة و لكن لا أحد يهتم . إسمع , ليس هناك من مقر , لابد من محاولة تعديل هذا الغاز لينوم فترة أطول و ينفخ البالون بكفائه اعلي .

الجبرتي : ما هذا البالون ؟

فأشار كافاريللي لرسمه البالون و قال : هو عبارة عن جزئين , الجزء الاعلي الضخم المنفوخ هو عبارة عن نوع معين من القماش الذي تصنع منه الخيم باطنه معزول بمواد غير قابلة للإشتعال . في نهاية هذا الجزء مضخة من الغاز يشتعل ليسخن الهواء فيتصاعد الهواء الساخن داخل البالون فيحمل البالون و يطير .

فتفاجئ الجبرتي و المترجم و بصوت واحد : يطير ؟؟

كافاريللي : نعم . أما الجزء السلفي هذا المربوط بالبالون , هو عبارة عن صندوق يحمل ٥ او ٦ أشخاص يطيرون مع البالون .

الجبرتي مستعجبا : و فيم ستستخدمون هذا البالون ؟

كافاريللي : نظريا , سيستخدم في اغراض النقل و توصيل و رحلات السياحة للنبلاء و الامراء و الملوك .

الجبرتي : و عمليا ؟

كافاريللي : مهمات التجسس و القصف الجوي .

الجبرتي و الفرع علي وجهه : الله اكبر , ويحكم ؟ الا تتوقفون عن صناعة الحرب ؟ ألا تشبعون ؟

كافاريللي متنهدا : صدقت ايها الرجل , نحن لا نشبع من القتل و الذبح . و لكن من يستطيع قول هذا ؟ فضلا عن منعه ؟

ثم نظر كافاريللي للجبرتي حزينا : اتعلم ما مصير أستاذي عندما قال شيئا مشابها لهذا ؟

الجبرتي : ماذا ؟

كافاريللي : أول قرار حبس اصنره نابليون في مصر كان من نصيبه .

ثم جلس كافاريللي علي احد الكراسي و نظر للجبرتي و تنهد و قال له : أتعلم يا صديقي ما سبب هذه المهزلة التي تور في العالم ؟ اتعلم من السبب الحقيقي وراء المجازر التي لم يسلم مكان في العالم منها تحت اسم الحرب بين بريطانيا العظمي و حلفائها و فرنسا و حلفائها ؟ إنهم المسلمون .

فنظر الجبرتي للارض و قال : صدقت .

فباستغرب المترجم و صرخ في الجبرتي : صدقت ؟ المسلمون هم السبب ؟
المسلمون يحاربهم العالم اجمع و يتأمر عليهم جميع الخلائق و يُسلط عليهم
كلاب الارض ليجرموهم من ارزاقهم و معاشهم , ثم تلقى عليهم ذنب المجازر
التي تحصل في العالم ؟

فقام كافاريللي و وضع ذراعه علي كتف المترجم و مشي به و قال للجبرتي :
صديقي تعال .

ففتح كافاريللي باباً و قال : تفضلوا .

فدخل الجبرتي و المترجم فوجدوا مجموعه من الرسامين يرسمون اشخاصا
علي مخطوطات و بعض الانفار ينسخون بعض الصفحات من كتاب عملاق
يضم رسومات و كتابات كثيرة , فدخل بعدهم كافاريللي و أمسك بالكتاب
العملاق و قلب فيه حتي فتح صفحه فيه رسم عملاق فيه شخص جاثي علي
ركبته ينظر إلي السماء و رافع يديه لسماء بيده اليمنى السيف و في اليسري
كتاب و حوله مجموعة من الفرسان بأيدهم السيوف

فصعق الجبرتي من المفاجأة و قال مفزوعا : لا تقل لي أنه هو .

فنظر المترجم للجبرتي و قال : و من هو ؟

فقال كافاريللي للمترجم : إنه محمد نبيكم .

فصنم المترجم , و أكمل كافاريللي : و الذين حوله هؤلاء هم اصدقائه .

ثم قلب الصفحة و قال : و هؤلاء خلفائه الاربعة , و هذا اخرهم علي ابن عم
محمد , العالم المسكين الذي تولي الحكم في اتعس ظروف و عاش فترة حكمه
كلها في ثورات وفي عهده خرجت فئة من الضالين الذين عاثوا في الارض
الفساد .

ثم تنهد و نظر للكتاب : حتي أن أتباعه إنحرفوا بعد قرون من بعده و غيروا
في دين الاسلام و جعلوا المسلمين أكثر ضعفا و هوانا .

ثم ضحك ساخرا : ثم يقولون انهم شيعة علي .

ثم قلب الصفحة وقال : و هذه صور للحرم المكي و المنى و بيت المقدس

ثم قلب الصفحة وقال : و هذه صورة البراق الذي أسري به محمد لبيت المقدس , و هذه صورة البراق و هو يصعد من فوق ضخرة بيت المقدس للسماء .

فإنهار الجبرتي و المترجم و سقطا جالسين علي كنبه فاتحين افواههم و قال الجبرتي : والله لاظنكم انتم المسلمين و نحن الكفار .

فابتسم كافاريلي و جلس علي كرسي و قال للمترجم : رأيت و أنت داخل المجمع في الجهة المقابلة , كيف احتثت الناس أمام المقهي , و لم يفكر واحد فيهم أن يدخل إلي هنا و لو من باب الفضول ليتعلم اي شئ يفيد .

فإنفعل كافاريلي قليلا و قال : هذا هو ذنب المسلمين . احتشدوا امام المقاهي , و رموا كنوز العلوم المختلفة التي كانت عندهم في التراب الي ان دفنت تحته .

ثم قام و نظر الي احد صور معارك المسلمين المعطقة علي الحائط : أتعلم لماذا ذنب المسلمين أكبر من باقي الامم التي رمت علومها في التراب ؟

فقال المترجم : لماذا ؟

كافاريلي ينظر للمترجم : لأن المسلمين هم الوحيدين الذين عندهم علوم القرآن و علوم محمد . الصينيين مثلا , أو الهنود أو البرتغال , ليس عندهم علوم القرآن او علوم محمد.

ثم اقترب كافاريلي من المترجم خطوة و قال له : أتعلم ماذا حدث , او سيحدث لو طبق نصف المسلمون فقط حوالي ٩٠% من علوم القرآن و علوم محمد ؟

المترجم فاتحا فاه : ها ؟

كافاريلي : سيحكم المسلمون علي الاقل من جنوب غرب اوروبا لحدود الصين في الشرق كما كانت في احدي فترات الأموين , هذا تقريبا ما سيكون مستتيماً لهم , و باقي العالم سيكون سجالاً بينهم و بين باقي سكان الارض . والمدة التي سيستغرقونها لصناعة هذه الحضارة لن تستغرق اكثر من قرن .

ثم جلس علي الكرسي و أكمل بإبتسامه خفيفة : فإذا حدث هذا فعلا , سيقام العدل في بلاد المسلمين و التي ستمثل نصف الارض . و سيثعر باقي سكان الارض بالخطر من المسلمين , حينها سيتحنون و يقيمون العدل في بلادهم و سيعاملون شعوبهم بإحترام إغراء لهم بأن لا ينضموا للمسلمين , او علي الاقل سيتوقفوا عن ارتكاب المجازر بسبب إنشغالهم بالمسلمين . و سينحصر الصراع البشري بين بعض جيوش المسلمين و بعض الجيوش الاخرى . أما باقي سكان الارض سيعيشون في سلام .

الجبرتي بحده شديدة : لماذا أنتم غير مسلمون ؟

كافاريلي : لأننا قتله . بلاد الغرب لا تتشبع من الدم , سواء بينهم و بين بعضهم , او بينهم و بين أمم أخرى . فكيف لمثلنا أن يصبح نقياً طاهراً يدافع عن ارقى معاني الحياة مثل محمد الرجل العظيم و هؤلاء الرجال العظام.

الجبرتي مستغرباً : حسناً ... كيف إستطعتم أن تتروا الاسلام و النبي (ص) بهذا النقاء , مع أن احوال المسلمين تقرف الكلب .

ضحك كافاريلي : صديقي نحن لا ننظر لكم انكم مسلمون اصلاً . نحن ننظر لكم أنكم تتنافسون علي لذاتكم و شهواتكم مثلنا . و ليس هذا فحسب , بل متنافسون أغبياء و سذج , و يمكن ان تغلبكم في سباق الشهوات بسهولة . أما سؤالك عن كيف رأينا الاسلام بهذه العظمة , فإن علمائنا سهروا الليالي و السنوات يبحثوا لنا عن أسهل و أقصر الطرق لصناعة الحضارة التي تجلب سعادتنا , فدرسوا كل المناهج الفكرية و قرأوا كل كتابات المفكرين و الحكماء في العالم علي مدي قرون , فلم يجدوا فكراً أفضل من الاسلام لصناعة الحضارة و اسعاد الانسان .

ثم ألقى ظهره علي الكرسي : و علي الرغم أننا رأينا عظمة الاسلام و لم يشوش علينا بشاعة المسلمين في رؤيتها , إلا اننا لم نطبقه كما يجب و اخترنا أن نقص منه ما ينفعا و نطبقه , و نتغاضي عن ما فيه يضبط شهواتنا , واولها , شهواتنا في القتل . فكانت النتيجة اننا نعرف الاسلام أكثر من المسلمين انفسهم , و نؤمن بعظمته , و نطبق الكثير منه أكثر منهم , و لكننا لسنا مسلمين , و بالتالي لسنا سعداء.

الاحد ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ بعد ٣ أشهر من دخول الفرنسيين مصر

الساعات الاولى من الصباح في بيت سليمان الجوسقي , يدخل ابن سليمان مسرعا و مغزوعا علي والده الذي يلبس لباس الحرب و يقول : ماذا يا ابي ؟ ما الذي حدث ؟ و لماذا تلبس لبس الحرب ؟

سليمان : نزل الفرنسيين بالامس لينفذوا قانون رسوم تسجيل الاملاك فهاجت الناس فنزل عليهم برطلمين بالرصاص , فزاد الهرج و المرج و هرب برطلمين أمام الجماهير , فتفتت الجماهير من كل حنب و صوب و إعتصموا في كل شوارع البلد استعداداً للمعركة اليوم .

فزاد توتر الابن و قال : حسنا انتظر دقائق سأللبس لباس الحرب و اذهب معك .

سليمان : لا . سأسبقك انا للحسينية (منطقة جامع الحسين) و انت اذهب و احثد العميان و اتبعوني .

الابن : نعم .

فخرج سليمان و فك رباط فرسه الذي في فناء الدار و بمجرد ركوبه للفرس و بدء تحركه وجد أمونة وزوجته علي فرسين شاهرين عليه سيفين ,

فقاتل أمونة : إن كان و لابد ان تُقتل , فانقتلك نحن .

فضحك سليمان ساخرا : و الله لم يبق إلا النسوان لتقف أمامي .

قالت الزوجة : سليمان , وح الله , انت ليس لك صالح بهؤلاء الغوغاء .

فأشار سليمان لأمونة و يقول : أنتي لست زوجتي ...

ثم أشار لزوجته : و أنت سأطلقك ...

ثم شد لجام فرسه : و الآن إبتعدا من أمامي .

فأطلق سليمان عيار ناري علي الارض بمقربة من اقدام الفرسين فهاج
الفرسان و سقط كلا من أمونة وزوجته و إنطلق هو بفرسه .

فوصل سليمان الحسينية فوجد الناس معتصمين في الساحة أمام جامع
الحسين و في الشوارع المحيطة به , كل يحمل سلاحه . فتوغل بينهم إلي أن
وصل الي اربعة أشخاص ملثمين علي مقدمة مجموعة ضخمة منظمة من
الناس فجلس بجانبهم ثم تلثم

سليمان لأحد الملثمين الاربعة : ما الاخبار يا شيخ إسماعيل ؟

الشيخ إسماعيل الشافعي : كما تري الكل جاء , و الناس أخرجت أسلحتها من
مخابئها و الجميع مستميت اليوم بإذن الله إما النصر و إما الشهادة .

سليمان : و هل هذه المجموعة فقط هم كل الاشراف ؟

الشيخ إسماعيل : لا بالتأكيد هناك الكثير منهم منتشرون , لكن هؤلاء من
إستطاع الشيخ عمر مكرم جمعهم الليلة .

سليمان لملثم ثاني : كيف الحال يا شيخ عمر ؟

الملثم الثالث : اخرس يا سليمان .

فصدم سليمان : ماذا حدث يا شيخ عبد الوهاب.

فقال الملثم الرابع : لعلك ستهرب اليوم ايضا يا شيخ العميان .

فغضب سليمان : احترم نفسك يا يوسف .

فتكلم الملثم الثاني الشيخ عمر مكرم : كفي يا اولاد الشافعي , كفي يا سليمان
و ارجع مع الاشراف في الخلف .

فزاد غضب سليمان و نظر للارض , فقال عمر مكرم : هل سيأتي العميان ؟

سليمان : نعم

الشيخ عمر مكرم : حسنا ارجع خلف الاشراف و ابتعد عنهم مسافه و عندما يأتيك العميان اجعلهم خلفك .

و فجأة دخل عليهم الحاج محمد المغربي ملثم و قال : كيف يجلس الشيخ عمر في مقدمة الاشراف اوائل الناس الذي سيبحث عنهم برطلمين و الفرنسيين لينبحونهم ؟ فعلتم مثل ملك أراد أن يتخلص من قائد عنده فوضعه في مقدمة جيش المشاه.

فقال يوسف الشافعي (الشاب الازهري) : صدق والله هذا الهزبان سابقا .

فقال اسماعيل الشافعي موجهها كلامه للشيخ عمر : صدق والله هذا الرجل . ثم أننا لا يجب أن نحاسبهم علي هزوبهم الآن , فقد وقفنا بجانب جيش المماليك عند دخول الفرنسيين و هم من هم في الخسه و النذالة .

فقال الشيخ عبد الوهاب الشافعي : و ماذا حدث عندما وقفنا بجانب جيش المماليك ؟ هُزمتنا في أقل من ساعة . أسكت يا إسماعيل , فلا فائدة من الوقوف بجانب جناء.

الشيخ عمر مكرم : كفي , و اذهب يا حاج محمد مع سليمان خلف الأشراف .

فذهبا الي الوراء بالفعل . ثم قال إسماعيل الشافعي : حسنا . و لكن لابد من ان يرجع الشيخ عمر مكرم في وسط الاشراف .

يوسف الشافعي : نعم يا شيخ عمر لابد من رجوعك . علي الاقل كف وسط الاشراف بحيث تحمسهم و لا تعرض نفسك للخطر في المقدمة .

فقام المثلثين الاربعة ليرجعوا و يقفوا في وسط الاشراف , فصرخ الشيخ عبد الوهاب الشافعي : نصر الله دين الاسلام .

فصرخ الاشراف و الحاج محمد المغربي و سليمان الجوسقي و الناس كلهم : نصر الله دين الاسلام .

فظل الناس تكرر وراء الشيخ عبد الوهاب . فنزل الحاج محمد و وضع رأسه بين فخذي سليمان الجوسقي ورفعاه ليظهر بين الناس فصرخ سليمان الجوسقي و قال : نصر الله دين الاسلام .

فبدأت الناس تكرر وراء سليمان الجوسقي . و بدأ الحاج محمد يتحرك و سليمان فوقه وسط الناس الي ان بدأت الناس تتحرك خلف الحاج محمد و سليمان . و تحرك الاشراف خلف الناس و في وسطهم الشيخ عمر مكرم و مساعديه الثلاثة مثمين . فدخل في وسط الجماهير ابن سليمان الجوسقي و العميان خلفه . و الكل يهتف : نصر الله دين الاسلام .

ظل الحاج محمد و سليمان و خلفهم الجماهير تتحرك من شارع إلي شارع و الناس تدفق عليهم كيوم الحشر إلي أن وصلوا لبית قاضي الفرنسي الذي وضع و شرع في تنفيذ قانون رسوم تسجيل الاملاك , و بمجرد أن وصلوا نظر سليمان للأسفل و قال للحاج محمد : أترفعني لأصبح أنا في وجهه المدفع ؟ فقال الحاج محمد : انا مطلوب يا سليمان , فخذها انت هذه المزه .

فنظر سليمان لبیت القاضي و صرخ : اخرج يا إبراهيم حاتم , اخرج ايها القاضي النجس .

فوصل ابن سليمان الي حيث يقف الحاج محمد فقال له الحاج محمد عندما راه : احمل معي ابوك ... سامح الله أمك تعلفه مثلما تعلف بقرة.

فأمسك الابن برجل و الحاج محمد بالرجل الاخري , فنظر الابن للحاج محمد و علي وجهه علامات الاستياء من وزن والده و قال : والله كنت نصحته بأن يقتل من ارطال الاكل الذي يأكلها , ولم يكن ينصت لي

فنظر سليمان لابنه و قال : اسكت يا ابن الكلب

ثم نظر سليمان لبیت القاضي و صرخ : اخرج ايها القاضي الجبان . أم انك لست بطلا الا عند الجنرال وانت تخطط لسرقة اموال الناس .

فبدأت الناس بإلقاء الحجارة علي ابواب البيت المغلقة , فنزل سليمان و بدأ هو و ابنه و الحاج محمد و الجماهير خلفهم بإمطار البيت بالحجارة .

في اثناء ذلك ظهر حاكم القاهرة الجنرال ديبوي و معه برطلمين و عساكر كثيرة من الفرنسيين من أحد الشوارع المؤدية الي هذا الجمع الغفير أمام بيت القاضي . فرأته الجماهير فهجموا عليه بالحجارة و تدافعوا نحوه فخاف و استدار و رجع من نفس الشارع الي الورا فبدأت الناس من الشوارع الجانبية تلقي عليه سلا من الحجارة و هو يهرب من شارع إلي شارع و كلما دخل شارع أمطره اهله بالحجارة . فبدأت الدماء تنزف من الحاكم ديبوي و جنوده و بدأ بعضهم يتساقطون من علي خيولهم مقتولين و ظل ديبوي يقاوم إلي أن سقط من علي فرسه مقتولا , فصرخ الناس : الله أكبر , الله أكبر .

و كلما خرج برطلمين و باقي الجنود من شارع تدفق أهل الشارع و انضموا إلي التظاهرات إلي أن أصبحت شوارع القاهرة مكدسة بالناس عن أخرها إلي الابواب الرئيسية مثل باب زويلة و باب الشعرية و باب الفتوح . و بعد هذا كله بدأوا في تكسير المصاطب و تجميع الحجارة و بناء متاريس صغيرة .

في وسط كل هذا جاء بعض الشباب للاربعة المثمين وسط الاشراف فقال يوسف الشافعي لهم مصدوم : ما هذا , أين أهل القسطنطين و بولاق ؟ اين أهاليكم ؟

فنظروا في الارض و قال أحدهم : اعتذروا لأنهم قرييين من مساكن عسكر الفرنسيين .

فقال الشيخ عمر مكرم : حسنا , و اين كانوا قبل ان يأتي الفرنسيين ؟؟ في معركة إمبرابة وقفوا علي البير الشرقي يصيحون يا لطيف يا لطيف و لم يكف احد منهم نفسه بأن يأتي و يحارب معنا . هذا ليس غريب عليهم . فالقسطنطين و مصر القديمة يمثلها التجار و الحرفيون , و بولاق يمثلها المماليك و مساعدتهم , فماذا تنتظر من هؤلاء؟

في هذه الاثناء فك الحاج محمد المغربي لثامه و صرخ في الناس : ايها الناس , إن هؤلاء الفرنسيين لم يقدروا علي دخول بلادنا الا بمساعدة أناس منا , و ليس

فينا رجل لا يعرف أن من ساعد الفرنسيين هم النصاري الشوام و من يوالونهم من المسلمين . فهبوا لعقابهم , و إنزلوا علي بيوتهم و حوانيتهم و خنوا أملاكهم و إسبوا نساءهم و أفعلوا فيهم ما فعله الفرنسيين فينا .

فصرخ الناس : الله اكبر الله اكبر .

فهم الشيخ عمر مكرم ليصرخ في الناس فأمسك الشيخ عبد الوهاب الشافعي يده و قال له بصوت منخفض : لا يا شيخ عمر , لا تسمع الناس صوتك ليعلم جواسيس الفرنسيين و المماليك و الوجهاء و المشايخ الذين يريدون قتلك انك واقف هنا .

فنظر الشيخ عبد الوهاب للاشراف و قال بصوت منخفض قليلا : ايها الاشراف , لا تطاوعوهم و تذهبوا لتهب بيوت الناس مثلهم . أنتم أحفاد رسول الله (ص) و لا يليق بكم ذلك .

فهدأوا و إلزموا .

فنظر سليمان الجوسقي للحاج محمد المغربي و قال له مستغربا : لماذا فعلت هذا ؟

الحاج محمد : ومن اوقعني في هذه الورطة مع الفرنسيين و جعلوا اسمي مطلوبا عنهم إلا النصاري الشوام؟

فظهرت علامات الارتياح علي وجهه سليمان قائلا : صدقت . و حتي لو لم يوقعوك في ورطة . هم يستحقون أكثر من ذلك .

و مر آخر النهار و اوائل الليل و جماعات من المتظاهرين يسرقون بيوت و حوانيت النصاري الشوام وبيوت جيرانهم المسلمين و دخلوا خان الملايات و نهبوا كل الامتعه التي فيه .

الاثنين ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨

على مرتفع منطقة القلعة , المدافع كلها محشوه بالقنابل و بعضها مصوب للحسينية و بعضها مصوب للجامع الازهر و البعض مصوب للغورية و البنادق كلها مرفوعة و محشوه بالبارود و كم هائل من عساكر الفرنسيين واقفين خلف المدافع و خلفهم رئيس المدفعية الجنرال دومرتين (بعد ان حرمه نابليون من منصب قائد الحرس الخاص و أعاده لرئاسة المدفعية مرة أخرى) و بجانبه اليمين جنرالات الفرنسيين و بجانبه اليسار برطلمين و خلفه النصاري الثوام و البنو و بعض من اتباعه المصريين من مختلف نواحي القاهرة و الاريايف , و بجانبه عمر القلقجي و خلفه رجاله القدامى و حشد عظيم من المغاربة المقيمين بمصر والقادمين مع الفرنسيين .

ودومرتين يقول بصوت عالي : لا اريد قذيفة واحدة تخرج من مدفع او طلقة تخرج من بندقية او مسدس دون إذني . و من خالف الاوامر سأنزله يقف مع هؤلاء الحثالة عند الحسينية ليموت معهم . الجنرال بونابرت أمر بتأخير الاطلاق إلي ان ينظر في الأمر مع المشايخ أعضاء الديوان .

بيت نابليون في قاعة الاجتماعات , يقف بجانب الشباك ينظر منه للخارج مترقب وصول المشايخ أعضاء الديوان , ثم نظر لباب القاعة المفتوح و صرخ : أيها الحمقى.

فدخل جنديان وأديا التحية و قالوا في صوت واحد : نعم سيدي .

فصرخ نابليون : اين هؤلاء المشايخ المعاقين ؟

قال احد الجنود : لا نعرف سبب تأخرهم . لقد ارسلنا لهم عدة مرات منذ الامس و لا مجيب منهم .

فجلس نابليون علي الكرسي يغلي من الغضب و يقول : لايت انه دار في عقولهم المريضة ان يتركوا الامر يوم او يومين , فإذا انتصرت الجماهير علينا , خرجوا علي الجماهير و باركوا حراكهم و ركبوا موجتهم . و إذا انتصرنا نحن علي الجماهير جاثوني و تمسحوا عتباتي لاغفر لهم و أغفر للجماهير .

فدخل كليبير و مينو و بون قادة الجيش و قال كليبير : سيدي ماذا نفعل ؟
فأظهر نابليون علامات الغل علي وجهه و قال بغيط : أنزلوا جحيم منافعكم و
بنادقكم علي هؤلاء الغوغاء , أريدها عبرة لمن لا يعتبر .
فنظر مينو لكليبير : ما رأيك في خطة فض شغب ليون في فرنسا ؟ منفعية ثم
حصار ثم هجوم ؟
فهز كليبير رأسه بالموافقة و خرجوا من الغرفة .

من فوق مرتفع القلعة , يصل جندي علي فرس مثلهف و يقترب من دومرتين
و يهمس له بصوت غير مسموع .

فصرخ دومرتين بأعلي صوته لجنوده : أطلقوا نار المدافع .

فنزلت القذائف علي المعتصمين كالمطر تحصد الارواح و تهدم اسوار جامع
الحسين و جامع الازهر و البيوت المحطة بهما و الحوانيت في سوق الغورية
و البيوت المحيطة .

ونظر دومرتين لبرطلمين و أشار له و قال : انت ادخل من الجهة الجنوبية
لجامع الحسين .

ونظر لعمر القلقجي و أشار له : و انت ادخل من الجهة المقابلة عند جامع
الازهر .

ثم وجه كلامه لهما : و بالطبع لابد ان تنتظرا ايقاف القصف من هنا حتي
تخلا . و أنا سأتابعكما بجنودي .

فنزل عمر القلقجي و الجنود المغاربة معه و اتجه اتجاه جامع الازهر و نزل
برطلمين من اتجاه جامع الحسين . فصرخ دومرتين في جنوده : كل من معه
بندقية أليه يجمع عندي حالا .

فاجتمع كل من يحمل بندقية ألية أمام دومرتين فقال لهم : سأوقف القصف
بضع دقائق . و بسرعة إنزلوا من هذا المرتفع حتي تصلوا الي انخفاض بحيث

عندما اواصل القصف , تطير القذائف من فوقكم بحيث تصيب هؤلاء الغوغاء ولا تصيبكم . فإذا اقتربتم من هؤلاء الغوغاء اقرب نقطة , اعطوني إشارة لإيقاف القصف . و بعد سقوط أخر قذيفة , إهجموا عليهم بالبنادق و ترغلوا فيهم إلي ان تتقابلوا مع جن برظمين و عمر القلجي . و حينها انتظروا حتي أتاكم .

فصاحوا كلهم في صوت واحد : حاضر سيدي .

بعد ساعة , دخل عمر القلجي و رجاله المغاربة علي الخيول يطلقون الرصاص علي كل من يقف أمامهم من الهاربين من قصف المدافع المتوقف و طلقات البنادق الالية من كتائب المشاة الفرنسية النازلين من مرتفع القلعة , و من يستطيع الفرار من كل هذا الجحيم يقابله بعض الفرسان بالسيوف و الرماح ليقتطعوا جسده إربا .

ومن الجهة الاخرى عند جامع الحسين ينزل برظمين و رجاله من علي خيولهم ليطلقوا النار علي من يرويه حيا أمامهم و علي الجرحي الساقطين علي الارض و لم يموتوا بعد . و في نهاية رجاله بعض الرجال العمالة معهم سواطير كبيرة يقطعون بها رؤوس من يعرفونه مشهورا بين الناس سواء كان من المشايخ او الوجهاء أو أي أحد كان عرفوا عنه أنه كان يحرص ضد الفرنسيين . ثم يجمعون هذه الرؤوس في صندوق كبير يجره حمارين إستعدادا لتعليق هذه الرؤوس علي ابواب القاهرة الرئيسية مثل باب زويلة أو باب الفتوح أو باب الشعرية .

بعد قليل , دخل دومتين للمنطقة بين جامع الحسين و جامع الازهر فوجد برظمين و رجاله واقفين أمام جامع الحسين و عمر القلجي و رجاله واقفين أمام جامع الازهر و جنود المشاة اصحاب البنادق الالية واقفين في الوسط , فقال بصوت عالي : انتثروا في كل الشوارع , كسروا كل المتاريس , أقتلوا أي أحد يتحرك بشكل مريب , إنهبوا البيوت , إكسروا أبواب الحوانيت و اسرقوا ما وجدتموه مفيد و كسروا الباقي , أريد ان يخاف الناس من أن يشعلوا قنبيلا واحدا داخل بيوتهم , أريدها ليلا لا ينساها أحد . أريد أن يقوم الاطفال من نومهم بعد ٥٠ عاما مفزوعين من ذكرى هذه الليلة.

فأشار برطلمين لرجاله يوزعهم في إتجاهات مختلفة . وأشار دومرتين لعمر القلقجي فإقترب عمر منه فقال له : خذ جنودك المغاربة و اقلب الدنيا علي كل كلب أثار هذه الفتنة , أعلم أنك تعرفهم كلهم . علي آخر نهار الغد سأذهب لسجن القلعة , أريد أن أراهم مقيدين جاثين علي ركبهم أدلاء صاغرين أمامي .

أما قوات المشاه الفرنسية , فأشار لهم دومرتين بالوقوف في مكانهم ليسيطروا علي هذه المنطقة وأشار لبعض الخيالة أن يتبعوه . فدخلوا الجامع الازهر بالخيول و توغلوا فيه إلي أن وصلوا لمحراب القبلة ونزلوا من علي الخيول وربطوا الخيول فيه .

ثم بدأ دومرتين بالتجول و في يده بندقيه فوصل عند مجموعة أرفف عليها مصاحف و كتب البخاري وكتب إسلامية أخرى فضربها بمقدمة البندقية و اسقطها كلها علي الارض و داس عليها و نادي علي احد الجنود وقال له : أحرقها و لا تبقي منها شيئا .

و بجانب المنبر قام بعض الجنود بالتبول و التغوط , و آخرين أخرجوا الخمر من حقائبهم و جلسوا مكان المصلين و بدأوا في الشرب .

علي بعد بضع كيلو مترات عن مذبحة الازهر , الحاج محمد المغربي و سليمان الجوسقي و ابنه و الشيخ عمر مكرم و مساعديه الثلاثة و عدد قليل من الاشراف و عدد قليل من العميان و بعض الجماهير يهربون بإتجاه النيل فارين من جحيم نيران الفرنسيين , فوجئوا المشايخ و أعضاء النديان قادمين أمامهم يثيرون لهم بالتوقف فقام بعض الهاربين ممن تبقي معهم بنادق برفعها في وجوه المشايخ و أطلقوا عليهم النار , وقام الاخرين ممن ليس معهم بنادق برمي الحجارة عليهم . فهرب المشايخ يمينا و يسارا بعيدا عن الهاربين. فمر الهاربون أمامهم إلي أن إبتعدوا عنهم.

فاجتمع المشايخ مره أخرى فقال سليمان الفيومي للشيخ عبدالله الشرفاوي :
ما العمل يا شيخ عبدالله ؟

فقال الشيخ عبدالله : لابد من الذهاب للصاري عسكر نابليون نستسمحه و نطلب منه أن يوقف إرهاب الناس .

فوافق الجميع و ذهبوا متوجهين لبیت نابليون .

قصر نابليون ليلا . القناديل تضيئ أسواره و فناءه و مدخله , و الاضاءات خارجه من الشبابيك بسبب الحركة داخل كل أجزاء القصر . و اعداد هائله من العساكر و بعض المدافع محيطين بالقصر من الخارج و من الداخل .

فدخل المشايخ من باب الفناء و توجهوا مسرعين لباب القصر ففتح لهم الباب و دخلوا فورا . و نابليون جالس و هو يغلي من الغضب علي رأس طاولة الاجتماعات أمامه بعض الاماكن الشاغرة و بعض الاماكن يجلس فيها كبار قادته و خلفه باب القاعة الذي طُرق ثم فتح و دخل المشايخ مسرعين و وقفوا حول نابليون كلهم يتكلمون في نفس الوقت يستعطفون نابليون .

الشيخ خليل البكري يقول : السماح و العفو سيدي الجنرال ...

الشيخ مصطفى الصاوي في نفس الوقت : اعفو عن الناس فإنهم مغرر بهم , و الحال ضيق ..

الشيخ سليمان الفيومي يرفع يده فوق رأسه إستسماحا و يقول : السماح السماح السماح ..

الشيخ محمد العشوي يفعل نفس الشيء و خلفه باقي المشايخ يفتنون مثلهم

الشيخ عبدالله الشرقاوي و الشيخ السادات واقفين صامتين . فنظر لهما نابليون وقال : و أنتما ؟

الشيخ السادات : والله أتيناك نرجوك أن ترحم الناس , فالتاس لا يريدون لا ثورة و لا غيره , و لكنه فعل بعض المتعممين ذوي عقل غير رشيد .

الشيخ خليل البكري ينظر بجراه للشيخ السادات بعينين مفتوحتين علي آخرهما : بل بعض المتعممين الحاقدين علينا و كانوا يريدون مناصبنا في الديوان .

فتفاعل نابليون مع قول الشيخ خليل البكري و قام من علي كرسيه و وقف أمام الشيخ عبدالله الشرقاوي و قال : هذه هي , سننشر بين الناس أن المشايخ

و الوجهاء الذين قادوا الثورة , هم بعض الحاققين علي أعضاء الديوان و علي الذين أخذوا مناصب في إدارة الفرنسيين إعتقاداً منهم أنهم أحق بهذه المناصب أو علي الأقل يريدون المشاركة فيها .

الشيخ عبدالله الشرقاوي ينظر في الارض قائلاً : إفعل ما تراه مناسباً يا سيدي , المهم توقف مدافعك وبنادقك عن الناس .

فذهب نابليون إلي أحد قادة الجالسين و سحب من أمامه ورقتين ثم رجع مره أخرى و أعطي أولها للشيخ عبدالله الشرقاوي و قال : هذا ما ستقرأونه علي أهل القاهرة .

و أعطي الشيخ خليل البكري الورقة الثانية و قال : هذا ما ستقرأونه علي أهالي الأقاليم . تفضل إقرأ يا شيخ خليل .

رفع الشيخ خليل الورقة و قال بصوت عالي :

خطاب رجال الشريعة في القاهرة إلي سكان الأقاليم

نرجو الله العلي القدير أن يحفظكم من الفتنة و الفوضى ما ظهر منها و ما بطن و يبعثنا عن الذين يعيشون في الارض فساداً . إننا نخبر سكان الأقاليم أنه قد حصل في القاهرة بعض الاضطرابات من جانب بعض العناصر المنحطة تؤزرها شرذمة من المجرمين . فقد بثوا روح الشقاق بين الجنود الفرنسيين و الرعايا الامنيين مما تسبب في قتل كثير من المسلمين و عمليات النهب و السلب لبعض المنازل . لكن الله لطف بنا و أخمدت الفتنة و قد توسلنا للقائد العام بونايرت فرجع عما كان ينويه من صب غضبه علينا بعد إخماد الثورة ...

الثلاثاء ٢٣ أكتوبر ١٧٩٨

فى سجن القلعة اخر النهار , عدد كبير من المشايخ و الوجهاء مقدين و جاثين علي ركبهم يقف أمامهم عمر القلقجي و رجاله المغاربه علي خيولهم و حولهم عساكر الفرنسيين بأيدهم البنادق و المسدسات في إنتظار حضور دومرتين . و سليمان الجوسقي و ابنه و اولاد الشافعي مساعدين الشيخ عمر مكرم الثلاثة مقدين في وسط المقبوض عليهم .

سليمان للشيخ عبد الوهاب الشافعي بصوت منخفض : كيف فر الشيخ عمر مكرم ؟

الشيخ عبد الوهاب الشافعي : استطاع الحاج محمد المغربي أن يأخذ فرسا و يهرب . و اثناء هروبه وقف أمامنا ليحمل الشيخ عمر و يهربه معه .

سليمان : و كيف قبل الشيخ عمر الهروب ؟

الشيخ عبد الوهاب : بالتأكيد لم يكن يريد هذا . و لولا اصابته التي انتهت قواه لكان قاومنا و منعنا من أن نهربه .

فدخل الجنرال دومرتين و معه بعض العساكر خلفه علي خيولهم فأشار لأحد العساكر , فأخرج العسكري ورقة من حقيبته و قرأ و عمر القلقجي يترجم :
صدر حكم الاعدام في التالية أسمائهم

- ١ . الشيخ عبد الوهاب الشافعي
- ٢ . الشيخ اسماعيل الشافعي
- ٣ . الشيخ يوسف الشافعي
- ٤ . الشيخ اسماعيل البزاوي
- ٥ . الشيخ عبد التواب الشبراوي
- ٦ . السيد سليمان الجوسقي
- ٧ . السيد أحمد الشرقاوي
- ٨ . السيد عبد القاسم الشرقاوي

فابتسم اولاد الشافعي و نظر سليمان الجوسقي في الارض و بكي ابنه و
ارتفع بعض أصوات النحيب و بعض أصوات الهمهمات , فقاطع دومرتين
هذه الاصوات كلها بصوته قائلا : هذه القائمة الاولى فقط . و أقسم لكم اني
سأحرص علي إصدار قوائم أخرى مثل هذه . فمن لم يسمع إسمه في هذه
القائمة لا يفرح كثيرا , فالقادم أكثر .

ثم هم بالرحيل , ولكن توقف و نظر للمعتقلين مره أخرى و قال : من فيكم
شيخ العميان ؟

فنظر سليمان و ابنه و اولاد الشافعي لدومرتين مندهشين , فنظر عمر
القلقيجي لدومرتين و أشار لسليمان و قال : هذا هو .

فنظر دومرتين لقائد حرس السجن و قال له : إذهب به حيث يوجد
شولكوسكي .

ثم توجه قائد الحرس لسليمان و شده من بين المقبوض عليهم و خرج به من
المكان , ثم رحل دومرتين و تبعه عساكره و تبعه عمر القلقيجي و المغاربه و
خرج العساكر الفرنسيين و أغلقوا عليهم الابواب من كل مكان و رحلوا .

الجمعة ٢٦ أكتوبر ١٧٩٨

في مدينة رشيد في وسط احد الاسواق الكبيرة بعد صلاة الجمعة . يقف الشيخ محمد البواب أبو السيدة زبيدة زوجة الجنرال مينو فوق كرسي و بيده المنشور الموجه للأقاليم يقرأ منها و جمهور الناس ملتفين حوله و يقول بصوت عالي :

لقد منع الجنود من إضرار النار في المدينة بأسرها و لم يتركها للسلب و النهب لأن القائد نابليون رجل عاقل حكيم , طيب و رحيم بالمسلمين . إنه يحمي الفقراء بصفة خاصة و لولاه لهلك جميع سكان القاهرة . لذلك و إياكم و نشر الفوضى بين المواطنين حتي تعيشوا في منازلكم بين أسركم في طمأنينة وأمان. لا تنصتوا إلي نصائح الأشرار و همسات مثيري الفتن . لا تنصتوا إلي هؤلاء المجانين التعساء الذين لا يقدرون العواقب و تذكروا أن الله يعطي السلطان لمن يشاء و يأمر بما يشاء .

إن جميع من تسببوا في هذه الفتنة سيهلكون و سينجي الله هذه البلاد من شرورهم بإذن الله . إننا نستحلفكم بالله ألا تزجوا بأنفسكم في التهلكة و ألتفتوا لأعمالكم و أرزاقكم و كسبها بالحال و أعملوا بالتعاليم التي أوجبها عليكم دينكم. و هذا الدين المقدس هو الذي حملنا علي ان ننصحكم .. و السلام .

توقيع : الشيخ عبدالله الشرقاوي , الشيخ السادات , الشيخ خليل البكري , الشيخ سليمان الفيومي , الشيخ مصطفى الصاوي .. و كل مشايخ الديوان.

فإنفض الناس من حول الشيخ محمد البواب المبتسم و هم يهزون رؤوسهم حسرة علي الاحوال .

في الجامع الازهر بعد الانتهاء من صلاة الجمعة . يصعد الشيخ مصطفى الصاوي المنبر و الشيخ عبدالله الشرقاوي جالس في المحراب بعد أن صلي بالناس و خلفه الشيخ السادات و الشيخ خليل البكري و باقي المشايخ .

فيرفع الشيخ مصطفى الصاوي منشور لاهل القاهرة في يده و يقرأ بصوت عالي :

إعلان من الجنرال بونايرت لأهالي القاهرة

بينكم أناس فاسنون حرضوكم و من ثم هلكوا جميعا . و قد أمرني الله برحمة الشعب فتسامحت معكم و رحمتكم . و لقد غضبت من ثورتكم و كنت قد قررت حرمانكم من عقد جلسات ديوانكم لمدة شهرين ولكنني اليوم أعيده لكم مكافأة علي حسن سلوككم الذي شفع لكم و محا خطأ ثورتكم .

يا أيها الشرفاء و العلماء و الخطباء في المساجد , أحيطوا أفراد الشعب علما بأن الذين يعادوني بمحض إرادتهم لن يجنوا ملجأ في هذه الدنيا و لا في الآخرة . هل يوجد بين الناس رجل يملأ العمي قلبه حتي أنه لا يعي أن القدر نفسه يوجه جميع ما نقوم به من أعمال ؟ هل يوجد بين الناس جاحث يشك في أن كل شيء في هذا الكون خاضع لسلطان القدر؟

ليعلم الشعب أنه منذ بداية الخلق صار مكتوبا أنه بعد تدمير أعداء الإسلام و هدم الصليب , جئت من أقاصي الغرب لتأدية المهمة الموكلة إلي. و أبلغوا الشعب أن القرآن الكريم نص في أكثر من ٢٠ آية علي ما حدث . و قد شرح أيضا ما سوف يحدث مستقبلا . و علي الذين يخشون رهبة سلاحنا أن يغيروا سلوكهم لأنهم حينما يتضرعون إلي السماء بتمنيات معادية طالبين أن يلحق بنا الأذى فهم في الحقيقة يجلبون علي أنفسهم الحكم بالفناء . إذن فليتضرع المؤمنون بالحق إلي الله طالبين نصر جيوشنا.

و في إمكاني محاسبة كل منكم علي ما يكتنه في قلبه من شعور نحونا لأنني أعلم كل شيء حتي ما لم تبوحوا به لأحد و سيأتي اليوم الذي يري فيه الملاء بوضوأتي موجه بأوامر عليا , و أن كل ما يينله الأدميون من جهود لن يفيدهم في الغلبة علي . طوبى لمن يسبقون منكم لمحالفتي بإيمان و طين .

في سجن القلعة , في زنزانة بها شولكوسكي و رجل مغربي و سليمان الجوسقي , سليمان و الرجل المغربي جالسين علي فرشهم و شولكوسكي جالس علي كرسي صغير و أمامه طاولة صغيرة عليها بعض الاوراق و دواية حبر و ريشة و قنديل صغير للإضاءة

يقول سليمان للرجل المغربي : لماذا جائوا بك إلي هنا ؟

الرجل المغربي : قبضوا علي و انا بالقرب من النهر في تلك الليلة المثلثومه .

سليمان مستعجبا : و لماذا حبسوك هنا مع هذا الرجل الفرنسي .

المغربي : لا أعلم .

شولكوسكي : ليترجم لي و لك ما نقوله .

فترجم المغربي هذا , فنظر سليمان لشولكوسكي و قال : و لماذا جمعونا في
زنزانة واحدة أصلا ؟

شولكوسكي : لأنني أستاذ في المجمع العلمي في قسم الاقتصاد السياسي , و
يعلمون هوسي بمعرفة أخبار الناس و الجماهير , و يعرفون أنني لن أستطيع
التوقف عن سؤالك عن احوال الناس و الشعب . و من جهة اخري أختاروك
انت لأنك شيخ العميان , و متصل بالمشايخ و الوجهاء و في نفس الوقت
متصل بالسكاري و الحشاشين و الفاسدين من التجار و تزوجت تقريبا بنصف
نساء القاهرة و هم مخزن أخبار كل شيء و في نفس الوقت شيخ العميان أكثر
الناس فقرا في البلد .

فرفع سليمان ظهره من علي الحائط و هو في قمة العجب : يعني أنتما لستما
مساجين أصلا وأتو بكم مخصوص لتتحروا عن أخبار الناس مني ؟

شولكوسكي : لا . بمعنى أصح , اذا أخذنا منك الاخبار كما يجب سيفرجون
عنا .

فباستوعب سليمان و أرجع ظهره علي الحائط : آآآه .

ثم نظر سليمان لشولكوسكي و قال : حسنا و لماذا سجنتم أنت ؟

شولكوسكي : لأنني إعترضت علي ذبح الناس .

فضحك سليمان ساخرا : فرنسي و تخاف علي أرواح الناس ؟

فإستدار شولكوسكي و هو جالس علي الكرسي و نظر لسليمان و قال : هل سمعت عن الثورة الفرنسية ؟

فإستغرب سليمان و قال : اي ثورة تلك ؟

فأسند شولكوسكي ظهره للحائط و قال : منذ ٩ سنوات بالضبط , قام شعبنا بثورة ضد ظلم الملك و زوجته وحاشيتهما من النبلاء و رجال الدين . هؤلاء المجموعه كانوا يسيطرون علي اكثر من ٩٠ % من مقدرات بلادنا . و اختلط البرجوازيون مع الفقراء ..

فقاطعه سليمان و قال : من هم البرجوازيون ؟

شولكوسكي : هم من عامة الشعب و عانوا ما عاني منه الشعب , و لكنهم تقربوا من املاك و استثمارات مجموعه الملك و حاشيته و استفادوا كثيرا منهم و أصبحوا طبقه غنية , لا هم من رجال الملك و رجال الدين و النبلاء , و لا هم في الحضيض مثل باقي شعب فرنسا .

سليمان فاتحا فاه : آه

شولكوسكي : اختلط البرجوازيون بالفقراء , و هجموا علي مجموعه رجال الملك و الدين , و زلزلوا الارض تحت عروشهم و أسقطوا امبراطوريتهم .

سليمان مبتسما : جميل .

شولكوسكي : و قامت هذه الثورة علي مجموعه من المبادئ اهمها الحرية و المساواه و حقوق الانسان . و لكن مع مرور الوقت , ركب بعض المنتفعين موجة الثورة و تحولت من ثورة من أجل النفع عن حقوق الانسان , الي ثورة مجازر تحت إسم النفع عن حقوق الانسان .

ثم استدار شولكوسكي و وضع وجهه في اوراقه مره اخري و قال : و ها هي مجزرة أخرى ترتكب في مصر تحت أسم ثورة فرنسا المدافعة عن حقوق الانسان .

فرّفع سلیمان ظهّره و إعدّل فف جلّسته من الانفعال و الحماس و قال : یعنی
ترید ان تقول انکم تفعلون فف شعبکم كما تفعلون فف شعبنا ؟

هّز شولکوسکف رأسه قائلاً : نعم .

نظر سلیمان للارض حزیناً : علی کل حال لن أخسر أكثر مما خسرت إن
حدثّک أخبار شعبنا , ربّما یخرجک حدیثي انت و هذا المسکین من هنا . و
لکني لن أحتّک عن أیامنا هذه , سأحتّک عن الماضي . عن الماضي الذف هو
سبب ما نحن ففه الان . قبل ١٤ او ١٥ عاما تقربینا ...

منتصف يونيو

في أحد زوايا الجامع الأزهر . جمع عظيم من الناس جالسين مصطفين في ٤
أو ٥ صفوف أمام كرسي المقرئ ينتظرون المقرئ قبل موعد وصوله بنصف
ساعة . والناس مازالت تتوافد إلي أن وصل المقرئ الشاب يلبس عمامة
الأزهريين و عباءة المشايخ المبجلين ، ذو جسم ضخم ، و الناس تحيه من كل
صف يتخطاه في طريقه إلي كرسي المقرئ . فجلس عليه و ربع رجليه و
أغضض عينيه إستحضاراً لأيات الله الكريم .

فإنطلق صوت جبار و في منتهي الروعة من حجرة الشاب قائلا :
أعووووووذ بالله من الشيطان الرجيم ان الرجيم الرجيم ان الرجيم
الرجيم .

فصرخ المستمعون : ﷻ يا شيخ سليمان ﷻ .

المقرئ في نفس واحد : تبارك الذي بيده الملك و هو علي كل شئ قدير ، الذي خلق الموت و الحياة لئلا يلكم ايكم احسن عملا و هو علي العزيز الغفور.

فدخل ثلاثة من المقرنين الشباب ووقفوا بجانب الباب و نظروا بنظرات الاستخفاف والغيظ وقال أحدهم : لا أرى أي سبب يجعل هؤلاء المهاطيل يجلسون و يستمعون لهذا الابله .

فدخل شخص يلبس لباس فحم ذو جسد نحيل فسمع قولهم و هو يخلع نعليه
و قال بعد ان استقام ووضع نعليه تحت ذراعه وقال لهم بصوت منخفض :
إذا كان سليمان الجوسقي أبلهاً و يجتمع حوله كل هؤلاء , فصيروا أنتم أبله منه
و أجمعوا حولكم أكثر منهم .

فظفروا إليه مصدومين فقال أحدهم : الحاج محمد المغربي نسيب الشيخ عبد الله الشرقاوى .

فدخل الحاج محمد لينضم لصفوف المستمعين و جلس بينهم .

بعد ساعة . إنفض الناس و خرجوا من الباب يمرون بجانب المقرنين الشباب . و في آخر المغادرين كان سليمان الجوسقي , فمر بجانب الشباب فوقفوا أمامه معترضين طريقه و قال أولهم ساخراً : اااه شيخ سليمان , أشهر مقرئين القاهرة .

سليمان : ابتعد عني أيها الأبله .

فقال الثاني : لا لا يا سليمان المسألة ليس بالعضلات . المسألة بمن سيضحك في النهاية .

فضحك سليمان ساخراً : بالتأكيد سأضحك أنا في النهاية يا حبيب أمك .

قال الثالث مبتسماً : دعوه , هيا نذهب , فصاحب العضلات هذا ليس فيه عقل لتخاطبوه .

فقال سليمان ساخراً : عين العقل يا سبع , فأنت تعلم أن وقوفكم أمامي خمس دقائق أكثر ربما لن ترجعون لبيوتكم .

ثم رمي سليمان نعاله أمامه و وضع قدمه فيه و خرج من جامع الازهر و بدأ يمشي في الطريق المحاذي لسور الجامع إلى أن إقترب من نهايته . و فجأه خرجت من خلف السور من الطريق المتقاطع مع الطريق الذي يمشي فيه سليمان شابة تركية تلبس أجمل ملابس الحرير علي الطراز العثماني ينبض وجهها بالحياه و شعرها يهرب من تحت الشال الذي علي شعرها و كانت تحمل لفة من القطن . و أصبح وجه الشاب في وجه سليمان . فابتسم لها بشغف و ابتسمت له بقوة , و توقفا أمام بعضهما

سليمان : أهلا أمونة

أمونة : أهلا سليمان

سليمان : إلي أين أنت ذاهبه ؟

أمونة : إلي الحانوت , أمي طلبت مني لفة القطن هذه .

سليمان : و هل ستذهبن بها إلي باب الشعرية ؟

أمونة : ماذا سأفعل . أنت تعلم أمي !!

ضحك سليمان ضحكة حزينة و هربت عيناه بعيدا : نعم نعم . إنها صلبة كالجبال .

أمونة : حسنا , أتريد شيئا ؟

سليمان : لا شكرا .

فتقدمت خطوات و هي تبسم بجانب سليمان ثم إستدارت له و قالت : اسمعت عما حصل في الاسكندرية؟

فألقت لها و قال مستغربا : ماذا حصل ؟

فضحكت ضحكة خجولة و عينيها تهرب في كل الاتجاهات : وقعت فتنة بالاسكندرية بين اهل البك و أغات (رجال أمن المماليك) قلعة الاسكندرية و السردار (مأمور رجال الامن) بسبب قتله احد الاهالي فثار العامه و قبضوا علي السردار و اهانوه و جرسوه علي حمار و حلقوا نصف لحيته و طافو به البك و هو مكشوف الرأس و هم يضربونه بالنعالات .

فإندهش سليمان و ضحك و قال : و هل كنت هناك ؟

أمونة : لا , أمي التي كانت هناك .

سليمان : و لماذا لم يستغلوا الفرصة و يصنعوا حراكم ليصل الي ثورة علي حاكم الاسكندرية ؟

أمونة : صحيح ... صحيح ، هذا ما كان يتوجب عليهم فعله ، ولكنك تعرف الناس لا يريدون الصدام بأي شكل .

سليمان مبتسما : حسنا أتردين شيئا ؟

أمونة : لا , أتريد أنت شيئا ؟

سليمان : لا شكرا .

فذهب كل واحد في اتجاهه و الابتسامات الخجولة تداعب وجوههما .

ليلا في أحد البيوت , يجلس سليمان الجوسقي علي كرسي و صديق له يجلس أمامه علي كرسي و كلاهما علي طاولة يقران في كتاب كبير , فينفع سليمان الكتاب غاضبا : كيف تُحفظ هذه ؟ ألفية بن مالك هذه كيف تُحفظ ؟

الصديق علي وجهه الاستياء : سليمان إحفظ و أنت ساكت , ليس عندنا وقت لهذا التمر .

فيقوم سليمان و يلقي بجسده علي كنبه و يرفع قدميه علي إحدى الكنبه و يضع رأسه علي اليد الأخرى , فتنهذ صديقه و ألقى بظهره علي الكرسي و رفع رأسه يائسا و قال : ها قد إبتئنا

ثم نظر سليمان للسقف قائلا :

ليت الزمان يجمعني يوماً بعشق قلبي , قطعة القمر

مالك يا زمان و مالنا لماذا تسلط علينا القدر

فقال الصديق : كفي بالله عليك , هذا العرض لا يمكن ان اتحملة كل ليلة . و لكن هي غلطتي أن احفظ هذه الألفية مع عاشق مغفل مثلك

فقام الصديق و أغلق كتابه و هم بالخروج . فقام سليمان و أمسك به و قال : لا لا لا تغضب بالله عليك , سأجلس الان ... ها انا ذا .

وجلس سليمان و جلس الصديق و نظر لسليمان مستغربا و قال : عجب أمرك يا سليمان . ألم ترفضك أمها ؟ و أسأت إليك و قالت لك أمام خلق الله في غرور ...

فغير الصديق صوته ساخرا : أزوج ابنتي أنا , بنت صفة اكبر تجار القطن و
الكتان لشخص مثلك يتحصل علي قوت يومه بأعجوبه ؟

سليمان : نعم , و لكن ابنتها تحبني .

فضحك الصديق مستغربا : و هل للحب قيمة أيها المغفل ؟ مع أول رجل مقتر
سيأتي , ستذهب و تتزوجه . و مع غرقها في المال ستحب زوجها و ستسك.

سليمان : ماذا تقول ايها المجنون ؟ هناك حب ينتهي ؟ لن تستطيع الزواج
بغيري و حبا لي يملئ قلبها .

ثم ابتسم مستهزئا : انظر انظر في كتابك انت لا تعلم شئ في هذه الدنيا .

بعد أسابيع , يوم الجمعة ٨ يوليو ١٧٨٤

بعد صلاة الفجر , جامع الازهر . الشيخ سليمان الجوسقي يقوم ليغادر الجامع بعد أن جلس بضع دقائق بعد الصلاة , ناداه شيخ يقف عند المحراب و حوله مجموعه من المشايخ من ضمنهم الثلاثة مقرنين الشباب الذين عترضوا سليمان سابقا , فذهب إليه سليمان .

فوصل ايه سليمان فوجده شيخ أسمر نحيل الجسم أسمر البشوره , فقال الشيخ : اهلا يا شيخ سليمان .

سليمان و هو يظهر الاحترام : أهلا يا شيخ الدردير

الشيخ الدردير (شيخ المالكية) : تعالي يا ولدي .

و امسك الشيخ الدردير بيد سليمان و مشوا خطوات و ابتعدوا عن المشايخ و أصبحوا منفردين .

الشيخ الدردير : سليمان , أصبح أنك لك علاقة بننت صفة تاجرة القطن و الكتان .

فتوتر سليمان و بدأ الغضب يظهر علي وجه : علاقة ؟ أية علاقة ؟

الشيخ الدردير : المشايخ و الناس تتحدث بقصة غرام بينكما .

سليمان : اي قصة غرام ؟؟ انهم كاذبون .

الشيخ الدردير : كل هؤلاء كاذبون ؟

سليمان : نعم

الشيخ الدردير : حسنا , الناس تكذب . لكن ما الذي يجعل المشايخ تكذب عليك؟ خصوصا أنك لست ذو منصب أو وجاهه حتي نفترض أنهم أعدائك و يحقدون عليك .

سليمان غاضبا : لان هؤلاء المشايخ يعطون أذانهم لثلاثة مقرئين يتمنون أن يكونوا مكاني .

الشيخ الدردير : سأفترض أن كلامك صحيح , أنت الذي أعطيتهم فرصة للكلام عنك .

سليمان : هذا إذا افترضنا أن كلامهم صحيح في الاصل .

الشيخ الدردير : نعم كلامهم صحيح , و لو كان كلامهم غير صحيح , لما كان كلامهم ينتشر و ظل ثابتا بين الناس هكذا . لو كانت مجرد إشاعات لكانت إنتهت منذ زمن. لكن معني انها استمرت بهذا الشكل و اصبحت حديث الناس طول هذه المدة , معني هذا ان الناس رأوك مرارا في مواقف تجمعك بها .

سليمان : يا شيخ دردير ..

الشيخ الدردير : للأسف أصدرنا قرار بمنعك من القراءه في الجامع الازهر او اي جامع خاضع لإدارة مشايخ الازهر .

و انصرف الشيخ الدردير و سقط سليمان علي ركبتيه و ضرب علي رأسه و غرقت عينيه بالبكاء.

قبيل صلاة الجمعة , جماهير غفيرة خارجة من جانب جامع الحسين و آخرين خارجين من جانب جامع الازهر يصيحون : لعن الله المماليكيين , لعن الله الخازنيين.

بعد قليل من مسيرهم , دخلت الجماهير الخارجة من جانب الجامع الازهر من باب الجامع و أغلقوا باب الجامع في وجه المصلين الداخلين لصلاة الجمعة و اعتصموا داخل جامع الازهر. و دخلت الجماهير الخارجة من جانب الجامع الحسين مدرسة مكتوب عليها منرسة محمد بك و أغلقوا ابوابها و اعتصموا فيها.

و خرجت جماعة ضخمة جدا من المتشردين بعضهم يلبس ملابس ممزقة و بعضهم يضع قماش علي عين من العينين تظاهراً بضياح احد العينين , و

شعورهم منكوشة و و مظاهرهم عفنه يقودهم البعض ذوي المظهر العادي بملابس عادية . خرجت هذه الجماعة في الاسواق تسرق و تنهب و تكسر أبواب الحوانيت و تسرق ما فيها , و يقتحمون البيوت و يسرقون ما تطاله أيديهم .

فجاء الأغاث (أفراد أمن الممالك) علي خيولهم بعضهم يحمل البنادق و آخرين يحملون سيوف و رماح . علي رأسهم قائدهم يقول لأحد مساعديه : لماذا يعتصم هؤلاء المخنثون ؟ ألا يعلمون أننا نستطيع سحقهم بين ليلة و ضحاها ؟

فقال المساعد متوترا : سيدي هؤلاء لم يقبضوا رواتبهم و لم يصلهم خبز منذ أيام .

القائد : و الحل ؟

المساعد : الحل هو أن نتصل بقادتهم و بعض المشايخ و نوعدهم بأننا سنعطيهم رواتبهم و خبزهم .

فنظر القائد للمساعد : انت تعلم من قطع عنهم رواتبهم و خبزهم . إنه مراد بك و ابراهيم بك و الحشاشين أتباعهم .

ثم نظر أمامه و تنهد : ثم تأتي المصائب بعد ذلك علي رأسي أنا . في أي مصيبة , أين سليم ؟ لماذا لم يعالج الامور ؟

ثم أدار فرسه و قال لمساعدته : بلغ المشايخ ان سليم أغا ينتظركم في مدرسة الأشرفية .

في هذه الأثناء دخل المتشردون مع قادتهم حانوت كبير , فوجدوه فارغ , فهمو بالخروج فاعترضهم شخصا عملاقا لا يري وجهه لان الشمس في ظهره و قال لهم : مجموعه من البقر يظنون أنفسهم ثعالب السرقة .

فقال كبير المتشردين : من أنت ايها الوقح ؟

الفارس : انظر للسقف أيها الابله .

فَنظَرُوا فِي السَّقْفِ وَجَدُوا حَبَالاً مَرْبُوطَةً فِي السَّقْفِ مَرْبُوطَةً فِيهَا الثُّومُ وَ
الْبَصَلُ بِكَمِيَّاتٍ ضَخْمَةٍ , فَنظَرُوا لِلْفَارِسِ مَبْتَسِمِينَ وَقَالُوا : مَنْ أَنْتَ ؟

فَاقْتَرَبَ مِنْهُمْ وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ وَجْهِهِ فَإِنْ دَهَشُوا وَقَالُوا : لَا يُمْكِنُ .. الشَّيْخُ
سَلِيمَانُ الْجَوْسَقِيُّ .

فِي مَنْرَسَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ , يَجْلِسُ سَلِيمُ الْأَغَا فِي غُرْفَةٍ مِنْ غُرَفِ الْمَدْرَسَةِ عَلَي
كَرْسِيٍّ وَخَلْفَهُ رَجَالُهُ . وَفِي لِحَظَاتٍ دَخَلَ بَعْضُ قِيَادَاتِ الْمُعْتَصِمِينَ وَهُمْ
يَبْتَسِمُونَ وَيَحْيِيُونَ سَلِيمَ الْأَغَا وَجَلَسُوا عَلَي الْكُنْبِ فِي نَوَاحِي الْغُرْفَةِ

سَلِيمُ الْأَغَا : مَاذَا تَرِيدُونَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ

قِيَادَاتِ الْمُعْتَصِمِينَ وَهُمْ مُحَرِّجِينَ : الزَّوَاتِبُ وَالْخَبَزُ .

سَلِيمُ الْأَغَا : مَتَى تَرِيدُونَهَا ؟

الْقِيَادَاتُ : أَيُّ وَقْتٍ .

سَلِيمُ الْأَغَا : حَسَنًا سَأَرَا جَعِ مَزَادُ بَكَ وَابْرَاهِيمُ بَكَ وَبِمَجْرَدٍ أَنْ يَقْرَرُوا
أَعْطَانَكُمْ رَوَاتِبَكُمْ وَخَبْزَكُمْ سَأُبْلِغُكُمْ .

فَقَالَ الْقِيَادَاتُ : حَسَنًا يَا سَيِّدَنَا , حَسَنًا حَسَنًا .

وَرَحَلُوا .

فَدَخَلَ الْقِيَادَاتُ عَلَي الْمُعْتَصِمِينَ فِي جَامِعِ الْأَزْهَرِ وَوَقَفُوا عِنْدَ الْمَنْبَرِ وَ
صَعَدَ أَكْبَرُهُمْ عَلَي الْمَنْبَرِ

كَبِيرُ الْقِيَادَاتِ بِصَوْتٍ عَالِيٍّ وَبِكُلِّ فَخْرٍ : أَيُّهَا النَّاسُ , لَقَدْ طَلَبَ سَلِيمُ الْأَغَا
مُقَابَلَتَنَا , وَكُنَّا رَافِضِينَ فِي الْبَدَايَةِ إِصْرَارًا عَلَي مَوْقِفِنَا وَتَأْكِيدًا عَلَي مُطَالِبَتِنَا .
وَلَكِنِ الْحَاحُ رَسَلَهُ عَلَيْنَا جَعَلْنَا نَفْكَرُ فِي أَنْ نَذْهَبَ لَهُ وَنَرِي مَا عِنْدَهُ . فَعِنْدَمَا
قَابَلْنَاهُ وَاجْهَنَاهُ بِمُطَالِبَتِنَا وَعَرَفْنَاهُ مَدَى الْأَذْيِ الْوَاقِعِ عَلَيْنَا . فَاقْتَتَعَ . وَاعْطَانَا
وَعَدًا بِالْاجْتِمَاعِ مَعَ الْمَمَالِيكِ وَطَالِبَتَهُمْ بِأَعْطَانَنَا رَوَاتِبَنَا وَخَبْزَنَا . فَهِيَ أَيُّهَا

الناس إنفضوا الي بيوتكم و أشغالكم و ننتظر إلي أن ينفذوا وعودهم . فإن لم ينفذوها , إعتصمنا هاهنا مرة أخرى . و سنظل هكذا إلي أن يستجيبرنا لنا .

فقام الناس و إنفضوا إلي أحوالهم .

في منطقة الشنواني : في احد الاماكن المهجورة الخالية , في بيت خشبي كبير يقف أمامه جماعة المتشردين و بداخله إضاءة القناديل و قيادات المتشردين . يجلس رجل عجوز علي كرسي كبير و أمامه سليمان الجوسقي و خلفه قيادات المتشردين .

العجوز : اهلا بك يا سليمان يا ولدي .

سليمان : اهلا بك يا شيخ الشبراوي .

الشيخ الشبراوي : قال لي أحمد قائد هؤلاء المتشردين العميان أنك ذكي و ستفينا في جمع أقراتنا .

سليمان : انا تحت أمرك يا شيخ شبراوي .

الشيخ الشبراوي : اسمع يا سليمان يا ولدي , سأجعلك مساعدي و قائدا علي هؤلاء الحمير . فإن عقولهم معطلة و أغبياء لا يصيبون في اي شئ يفعلونه . و لكنهم طيبون و رجال يساند بعضهم بعضا و يؤثرون علي بعضهم . و لذلك , إن حكمت فيهم بالعدل و بالشهامة و القوة و الاخلاق الكريمة , ستظل مساعدي و ستصبح كبيرهم . و إن ظلمت فيهم و كنت ندلا معهم , صدقتي سأقطع أعضائك و انت حي و إرميها لهم ليأكلونها , ثم سأحفر حفرة و أشعل فيها النار و أرمي ما تبقي منك فيها .

ففرع سليمان و نظر يمينا و يسارا ثم نظر للشيخ الشبراوي و ضحك مفزوعا و قال : ما هذا الخيال المريض يا حاج ؟

فضحك الشيخ الشبراوي : حسنا يا ولدي . اذهب و احتفل معهم بما جنيتموه اليوم .

فخرج سليمان خارج البيت الخشبي و رفع كأسا فيه الشراب و نادي فيهم :
أيها العميان , من الان فصاعدا , مصيرنا مصير واحد , فلنجعله مصير يتمناه
كل حي في هذا البلد التعيسيسيس .

فصاح العميان فرحا و ضحك سليمان و الدموع تذرف من عينيه , ثم فتح فاه
و القي بالشراب من الكأس علي فمه فسقط نصفه خارج فمه علي وجهه و
كتفيه و النصف الآخر داخل بلعومه .

٢٢ ديسمبر ١٧٨٥

الجماهير أغلقوا أبواب جامع الازهر في وجه المصلين و صعدوا علي المأذن
يصرخون : لعن الله المماليك , لعن الله الخنازيير .

و صعد علي المنبر رجل في الخمسينات ذو لحية ضخمة و وجهه عريض و
قامة طويلة و جسم عملاق و بشرة خمرية يرتدي عمامة كبيرة و الغالي من
الثياب , فبدأ يخطب و يقول : أنا أحمد سالم الجزار شيخ الدراويش البيومية ,
الموصولين بأولياء الله الصالحين , رجال الله و خاصته من خلقه , أقول لكم
نيابة عن أولياء الله , أن خنازير المماليك لم يتجرأوا علي تكرار ما فعلوه السنة
الماضية من قطع الزواجب و الخبز عنا إلا لأنهم وجدونا ضعفاء لا قوة و لا
نظام لنا . و وجدونا سذج نصدق وعوداً مثل الضباب ينقشع بطلوع الصبح .
فنحن معتمدون هنا حتي يعطون حقوقنا .

سليم الأغا يدخل مع بعض رجاله فناء قصر كبير و ينزل من علي فرسه
ويقترب من باب القصر فيوقفه الحراس

قائد الحرس : ماذا تريد يا سليم ؟

فلكمه سليم الأغا ففرع الحراس و إبتعدوا عن الباب فيأقحم سليم الباب فوجد
مراد بك يشرب الخمر وسط عدة جواري

فقال مراد بك بصوت عالي و الكأس في يده يتساقط الخمر منه : أهلا بسليم
الأغا , أهلا بنسيب الشيخ محمد البواب عين أعيان رشيد .

فوقف سليم امام مراد بك , فقال مراد بك لأحد جواريه : تصوري هذا المعتوه
متزوج من السيدة زينة جميلة جميلات مصر .

فضرب سليم الأغا الصنية التي عليها الفواكه و إبريق و كؤوس الخمر برجله
و أمسك بمراد بك و رفعه فنهض مراد بك

سليم و الدم يغلي في عروقه : ايها المخبول , تقطع رواتب الناس و خبزهم
مرارا و تكرارا , ثم يثرون وتنزل المصائب علي رأسي أنا , بينما أنت هنا
غارق في سكرك و عربتك ؟

مراد بك مفزوعا و سكرانا : كيف تجرؤ ايها الوقح علي ما تفعله هذا , يبدوا
أنك لست في وعيك .

سليم أغا يشير لرجاله فشهروا سيوفهم فقال لمراد بك : يبدو أنك انت الذي
لست في وعيك .

فنظر مراد بك للرجال الشاهرين سيوفهم و قال : ماذا تريد مني ؟

سليم : أعطني أموالا أعطيها للناس لأسكتهم .

مراد بك : أمجنون أنت ؟ بالطبع ليس عندي ما يكفي كل هؤلاء الغوغاء .

سليم : و الحل ؟

مراد بك : أنظرني إلي الغد أجمع من المماليك , فليست وحدي الذي يسرق
أموال هؤلاء .

سليم يدفع مراد بك للخلف و يهم للذهاب و يقول : إن لم أجد ما يسكت هؤلاء
الغوغاء غدا , ستتم .

و ذهب هو و رجاله .

فاستدار مراد بك و نظر لجواريه و ضحك و قال : آآآآآه أيها الساحرات ,
كيف أفيق من سحركن , هاهاها ..

و قفز بين أحضانهن .

مساعدین سليم الأغا فی جامع الأزهر بجانب المنبر و المحراب , و خلفهم
الشيخ أحمد سالم الجزار (مختلف عن أحمد باشا الجزار حاكم غزة) جالس
علي كرسي المقرئين بجانب المحراب و أمامهم المعتمدين

فقال كبير مساعدين سليم الاغا : والله كنا معه عت مراد بك و أمسكه من ملابسه و عنقه فقال مراد بك كيف أتى برواتب و خبز كل هؤلاء الناس؟
أحتاج وقتا لأجمع أموالهم من المماليك , فرد عليه سليم الاغا قائلا ستندم إن لم أجد غدا ما يرضي هؤلاء المعتصمين . صدقوني يا أهل الله .

فقام الشيخ الجزار و وقف في وجه كبير المساعدين قائلا : إسمع , نحن قوم لا نريد القتال و لا الأذى لأنفسنا و لا لغيرنا . لذا سافترض أن ما قولته أنت صحيح , و سننتظر إلي الغد . فإن لم تأتونا برواتبنا وخبزنا , لا تلومونا عما سيحدث . إتفقنا ؟

كبير المساعدين : نعم .

فإنفض الناس و فتحوا أبواب الأزهر .

بعد إسبوع الخميس ٢٨ ديسمبر

الناس مفزوعة في حي الحسين و يركضون في الشوارع و ورائهم مجموعة من الفرسان بالبنادق يقودهم رجل عملاق أعور و بجانبه سليم الاغا , والناس تصيح : حسين بك , حسين بك .

توقف الفرسان أمام بيت كبير يسكن فيه احمد سالم الجزار. فأشار حسين بك لسليم الاغا فكسر الباب و دخلوا البيت ووقف حسين بك في صالة الاستقبال يصرخ في رجاله : اجمعوا لي كل ما تقع عليه عيونكم , لابت ان نربي هذا الكلب .

فأمسكوا بالشيخ أحمد سالم الجزار و قيدوه و أتوا به عند حسين بك , فأمسك به و أخذته الي خارج باب البيت حيث الجماهير ملتفة حول الباب يراقبون ما يحدث . ثم أمسك البندقية بالمقلوب و نزل بظهرها علي رجل الشيخ و كسر له قصبة رجله , فصرخ الشيخ صراخا مريعا . ثم نظر حسين بك للناس و الشرار يتطاير من عينيه . ثم بعد أن إنخفض صوت صراخ الشيخ , فنظر له حسين بك مره اخري و اطلق عليه بعيار ناري في رجله الاخري , فصرخ الشيخ من قلبه .

ثم خرج مساعدين حسين بك و هم يحملون اكياسا عملاقة بها كل ما في البيت من مال و مصاغ النساء و كل ما له قيمة في البيت فأشار لهم ليركبوا الخيول و ركب هو بعدهم و صرخ في الناس : أيها الناس , لا تظنوا أبدا انكم ستكافئونا في القوة , و لا أنكم بتلك اللإعتصامات الفاشلة ستجبرونا علي ما لا نريد فعله . إفهموا أننا أقوى منكم , و لو أجمعتم كلكم بكل سلاح الدنيا , لن تنتصروا علي فرسان المماليك و لو بعد ١٠ سنوات من القتال . فمن أراد منكم شيئا فليسلك المسالك التي فتحناها نحن لكم . حتي وإن سبت في وجهه , فليحاول مره بعد مره إلي أن يصل إلي ما نريد . لكن من سيتشجع مثل هذا الرجل , فلينتظر مصير هذا الرجل .

ورحلوا .

الجمعة ٢٩ ديسمبر

ال جماهير تمشي في شوارع الحسين بأعداد مهولة , و معهم الطبول يدقون عليها إشارة لإعلان الحرب علي المماليك , ويتحركون من شارع إلي شارع في إتجاههم للأزهر . و في كل شارع ينضم بشر كثيرون للتظاهرات . و في إحدي الشوارع الجانبية يراقب سليمان الجوسقي و خلفه العميان حركة المظاهرات إنتظارا أن تمر بجانبه . و بمجرد مرورها بجانبه دخل هو ورجاله واحدا بعد آخر في جملة المتظاهرين . و أثناء سيرهم وسط الجماهير , يسرق كل واحد منهم كل ما تطوله يده من الحوائث أو البيوت التي يمرون بجانبها , أو من اكياس الناس المتظاهرين دون أن يشعر أحد .

في خلف المظاهرات يلح سليمان مجموعة من النساء يشاركن في التظاهر , و علي رأسهن أمونة ومجموعة من الشابات . فصدم سليمان , ثم غضب وذهب إليها , و أمسك بذراعها و أخذها بعيدا عن الناس في أحد الشوارع الجانبية .

فنظر سليمان لأمونة غاضبا و قال لها بصوت غاضب مكتوم : ماذا تفعلين هنا أيها البلهاء ؟

فنظرت له نظرة سخرية : ها ها ها ... من متي يراجع شيخ منصر مثلك بنت كبيرة تجار باب الشعرية مثلي ؟

فأشار بيده و تغيرت معالم وجهه أستهزاء : يا شيخة أسكتي , قال كبيرة تجار باب الشعرية قال . بائعة بعض لفافات القطن و الكتان أصبحت كبيرة تجار باب الشعرية , أسكتي , بلا كذب .

فضحكت أمونة إستعجابا : أنظر من يتكلم , زعيم عصابة حرامية يستهزا بمن يأكل لقمة عيشه من عرق جبينه .

فتباهي سليمان : و مال عصابة الحرامية ؟ إنهم رجال يكافحون من أجل جمع اقواتهم .

فاستعجت أمونة : بالحرام ؟ من بيوت و جيوب الناس ؟

سليمان : وما الفرق بين هؤلاء الحرامية وبين حرامية المماليك الذين تعيثون أنت و أمك بينهم ؟ ما الفرق بين هؤلاء الحرامية و حرامية التجار مثل أمك التي تمنني أن ينخفض مستوي النيل و تتأخر المراكب لتشج البضائع و ترفع السعر الطاق طاقين ؟

أمونة : صحيح . و كنت قلت لك سابقا , أنا لا يعجبني هذا و لا ذاك . ما المشكلة أن تكون تاجرا نزيها لا تستغل إرتفاع الأسعار و في نفس الوقت تعف نفسك عن هذا القرف الذي تعيش فيه ؟ ما المشكلة ان ترجع للقرآن الذي كنت تطرب أسماع الناس به ...

فقاطعها سليمان : نعم لترفضني أمك مرات بعد مرات .

أمونة : لكن الآن أنا التي سترفضك , و سأرفض حتي ان أراك في شارع أمشي أنا فيه .

سليمان : حسنا أيتها الفيلسوفه , أذهبي إلي بيتك هيا .

و دفعها من ذراعها .

فقالت أمونة بصوت عالي : أبعد يدك عني أيها الحرامي .

فصدم سليمان و همت أمونة بالذهاب , فقال سليمان : و لماذا هذه المظاهرات أصلا ؟ لا يعقل أن يكون كل هذا من أجل ما حدث للشيخ أحمد سالم الجزار أمس. فالمماليك يذبحون الناس و يسرقونهم منذ سنين السنين . فهل تذكر الناس الإعتراض علي هذا اليوم ؟

أمونة بنظرات استحقار : علي الأقل قرر هؤلاء الإعتراض , بدلا أن ينضموا لعصابات سرقة .

فضحك سليمان : ها ها ها ... هؤلاء هم من لم يجنوا فرصة للإنضمام لعصابات السرقة , و إلا فلماذا تعج مصر بالعصابات في مكان ؟ ألا تسمعين عن حوادث قوافل الحج سنة بعد سنة ؟ ها , صدقيني لو جمعنا أعداد أفراد هذه العصابات لوجئناهم علي الأقل نصف هذا الشعب .

ضحكت أمونة إستهزاء : و ماذا تنتظر من زعيم عصابة سرقة مثالك أن ينظر لهذا الشعب ؟ بالتأكيد ستنتظر لهم كأنهم كلهم حرامية , او نصفهم حرامية والنصف الآخر منتظر في طابور التوظيف في عصابات الحرامية . إذهب يا سليمان بعيدا عني . ولو حاولت الإقتراب مني مرة أخرى لا تلومن إلا نفسك . فتركته و ذهبت . ووقف سليمان مصدوم عدة دقائق ثم ذهب .

ظلت المظاهرات تتحرك من شارع إلي شارع و مروا بجانب الجامع الازهر إلي أن وقفوا بجانب دار كبير بجانبه , فقرعوا الباب . بعد دقائق خرج لهم الشيخ الدريز بجلباب المنزل و قال : ماذا هناك يا قوم ؟

واحد من الجماهير : خرجنا ضد المماليك .

الشيخ الدريز مبتسما و مستعجبا : كل هذا بسبب ما حدث للشيخ الجزار أمس ؟

واحد آخر من الجماهير : نعم , هذا أحد الأسباب . لكن أكبر الأسباب هو هذا الضناك الذي نعيش فيه بسببهم .

فأظهر الشيخ الدريز علامات القوة و الجد علي وجهه و تقدم خطوات خارج باب بيته و قال بصوت عالي : أنا معكم أيها الناس .

فصاح الناس فرحين . و دخل الشيخ يلبس ملابس الازهر و خرج لهم فوقفوا خلفه . فمشي و مشوا خلفه يضربون علي الطبول إلي أن دخلوا الجامع الازهر و أغلقوا أبوابه و صعد بعضهم علي المأذن يضربون الطبول ويصرخون : لعن الله المماليك , لعن الله الخنازيري .

فصعد الشيخ الدريز علي المنبر و خطب في الناس :

بسم الله و الصلاة و السلام علي أشرف الخلق و أكرمهم . أيها الناس , ضاق الحال , و جاع الناس , و إنتشر اللصوص و العصابات ..

فنظر سليمان في الارض و هو بين الجماهير .

الشيخ : و إنتشرت المقاهي و مجالس الفجر و الفساد و فسدت النساء و تعري بعضهن و أصبحن سلعة يتهافت عليها جموع لا يحصي عندها من كبار القوم و وجهائهم. و أصبح التجار بلا ذمة و لا ضمير و هكذا السقايين و هكذا العطارين و هكذا أفراد الامن و هكذا أصحاب الحرف و هكذا و للأسف ... المشايخ .

تشهد الشيخ : هل نحن بك صحراء قاحله لا خير في بلادنا لنجوع و نتصارع علي أقرانتنا هكذا ؟ لا . هل نحن شعب لا خير فينا مثل قوم عاد و ثمود أو بني إسرائيل ؟ لو كنا هكذا لكان أنزل الله علينا ما أنزله عليهم . هل نحن أناس رمينا القرآن و سنة رسوله و خرجنا عن دين الإسلام كما حدث في الاندلس ؟ لا , مازال بيننا حفظة كتاب الله و سنة رسوله يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر حتي و إن كان صوتهم غير مسموع .

ثم رفع صوته : فالفساد و الضنك الذان نحن فيهما سببه الرئيسي ليس نحن نعم نحن مشاركون و لكن ليس نحن أساس هذا . إنهم المماليك و رجالهم المجرمين . لم يتركوا رجلا صالحا الا و نغصوا عليه حياته . لم يتركوا حائوتا الا و سرقوه , لم يتركوا بيتا الا و إنتهكوا حرمة و أفرغوه من أي شئ ذو قيمة فيه , و و الله لو استطاعوا اقتلاع جدران البيوت لفعلوها .

فرفع يده عاليا و قال صارخا : فهبوا لنهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا , و من الغد , إجمعوا كل الناس من أهالي الحسين و الازهر و باب الشعرية و بولاق و مصر القديمة و كل الناس لنتقم من هؤلاء .

فهلل الناس و كبروا : الله اكبر الله اكبر .

بعد صلاة المغرب , نادي أحد المتظاهرين علي الشيخ الدردير و قال : يا شيخ الدردير , يا شيخ الدردير , رجال إبراهيم بك علي الباب يقولون لك إن إبراهيم بك و سليم الأغا ينتظرك بالغورية .

فرد الشيخ : قل لهم أني لن ..

فقاطعهم كبار المتظاهرين : لا لا يا شيخ الدردير , إذهب فقط و إسمع منهم .

فنظر لهم باستعجاب : وماذا سأسمع منهم ؟

فقال أحدهم : لعل الله هداهم و علموا أن الله حق .

فصعق الشيخ و قال : أجنتم ؟ ألم يحدث هذا السنه الماضية و سليم الأغا هذا نفسه قال و عودا و نفذوها شهر أو إثنتين و عادوا إلي ما كانوا عليه بعد ذلك . ما الجديد هذه المره ؟

أحدهم : الجديد هذه المره أن إبراهيم بك شخصيا هو المتصدر في الموضوع . و كلنا نعلم أن إبراهيم بك داهية و قابل للتفاوض و نستطيع مع بعض الضغط عليه إجباره علي مطالبنا .

فضرب الشيخ علي رأسه إحباطا , فقال آخر بمسكنه : نرجوك يا شيخ الدردير , نحن لا نريد إراقة دماء أكثر مما حدث , فإذهب لعلنا نستطيع حل الموضوع وديا .

فنظر لهم الشيخ غاضبا و قال : ايها الضعفاء الجبناء . و الله لم يركب عليكم هؤلاء المجرمون إلا بسبب خنوعكم هذا . تبيعون حقوقكم من أجل سلامتكم . و صدقوني لن تتألوا هذا و لا ذاك .

و نادى و قال : قولوا لهم أني قادم معهم .

في الغورية , في احد قصور المماليك , يجلس الشيخ الدردير و أمامه إبراهيم بك و سليم الأغا و بينهم طاوله كبيرة فقدم أحد الجنود ورقة و دواية و ريشه للشيخ

سليم الأغا : اكتب لنا يا شيخ الدردير قائمة بالمنهوبات لكي نستردها لكم .

فكتب الشيخ في الورقة ثم أعطاها لسليم أغا فرفع سليم الورقة و قرأ ما فيها فأغض عينيه و نظر للأرض فأعطي الورقة لإبراهيم بك , فقرأ , فاستشاط غضبا , و قام من علي كرسيه و صرخ : أتتهزأ بنا يا هذا ؟ نعطيك ورقة لنتكتب بها المنهوبات فتكتب لنا كلمه واحده " كرامتنا " . هل مس كرامتك أحد يا هذا ؟ أنت شيخ المالكية في الأزهر و لا يقترب منك أحد ...

فقاطعه الشيخ الدردير صارخا : لا يقترب مني أحد لأنني رجل دين يثور الناس من أجله و يخذ الناس بسببه , فإذا فعلتم بي ما تفعلونه بالناس ثارت الناس , أما إن ابتعوا عني لن أشعر بالضرر فأظل أسكن الناس و اهدنهم محتسبين ما يصيبهم منكم عند الله . أليس هكذا تفكرون أيها البك ؟

فصدم إبراهيم بك . و دخل من الباب حسين بك و الشرر يقفز من عينيه , فنظر لأبراهيم بك و سليم الأغا و قال : ماذا تريدان ؟

فقال إبراهيم بك : المنهوبات التي سرقتها .

فضحك حسين بك و إقرب من إبراهيم بك و أشار بإصبعه في صدر ابراهيم بك قائلا : أنت تسرق ..

ثم أشار بإصبعه لسليم الأغا : و هذا يسرق ..

و أشار بإصبعه للخارج : و مراد بك يسرق ..

ثم فتح ذراعيه و قال : كلنا نسرق .. فلا تتصنع علي أنا الشرف يا ابراهيم .

و استدار و ذهب .

فدار إبراهيم بك حول الطاولة و وقف امام الشيخ الدردير و صرخ قائلا : كل ما لك عندي أني سأتيك بالمنهوبات بعد يومين أو ثلاثة . إقرأ معنا الفاتحة علي ذلك .

فنظر إبراهيم بك لسليم الأغا و الجنود الواقفين فرفع الجميع أيديهم و رفع إبراهيم بك يده و لم يرفع الشيخ الدردير يده . فقرأوا الفاتحة ماعدا الشيخ و انصرف إبراهيم بك .

فرجع الشيخ الدردير للجامع الازهر حزينا ينظر في الارض , فالتفت عليه الناس و قالوا متلهفين : ها ماذا حدث ؟

فقال الشيخ : كالعام الماضي , وعد بإرجاع المنهوبات بعد يومين أو ٣ .

فسكت الجميع فخرج أحدهم قائلاً : حسنا ننتظر يومين أو ٣ , لا بل اسبوع ,
المهم ترجع لنا حاجتنا .

فنظر الشيخ لهم و ابتسم ابتسامة حزن و هز رأسه و نظر للأرض مرة
أخري.

عام ١٧٨٦

باب الشعرية أمام أحد الحوانيت الكبار . يجلس الحاج محمد المغربي ينظر و هو مستغرب ووجهه مقفل لجماهير الناس تمر من أمامه و يصيحون : يا حسن باشا القبطان , يا مهدي هذا الزمان , خلصنا من المماليك , و أقم سنة العدنان , سرقوا أموالنا الاوغاد , و صرفوها علي الخمر و النسوان.

فظهر من بين الجماهير سليمان الجوسقي و هو يلبس أحلي الثياب و متعطر و في أجمل صورة و دخل علي الحاج محمد و قال : السلام عليكم يا حاج محمد .

فضحك حاج محمد و نظر إليه و هو يجلس بجانبه : ماشاء الله لا قوة إلا بالله , منذ متي و انت في هذه الصورة كالذاهب إليه عرس .

فابتسم سليمان و هذم ملابسه و تباهي بها : ماذا يا حاج محمد , دائما أنا في هذه الصورة

ففاجئه الحاج محمد قائلاً : كذبت .

ثم ابتسم الحاج محمد متحاشياً : هل تريد أن تقول لي إنك تجلس بهذه الهيئة وسط العميان . بالتأكيد لا . أنت أت إلي هنا بهذه الهيئة لعل حبيبة القلب تمر .

فتخشب وجه سليمان : ماذا تريد يا حاج محمد ؟ هل هذا جزائي لاني أتى لأطمئن عليك ؟

فنظر الحاج محمد أمامه و قال : كذبت في هذه أيضا , لولا أن محل أم الملكة في آخر الشارع , لم أكن لأري وجهك العكر .

فغير سليمان الموضوع و قال : من هؤلاء يا حاج محمد ؟ لماذا يتظاهرون ؟ ومن هو مهدي هذا الزمان و مخلصنا من المماليك ؟

الحاج محمد بعد تهنيده : إنهم الناس فرحون بمجيئ حسن باشا القبطان .

سليمان : و من حسن باشا القبطان ؟

الحاج محمد : هو رسول من الباب العالي في الأستانة من قبل الخليفة العثماني .
جاء ليحصل مستحقات الخلافة المنقطعة من القطر المصري .

سليمان : وهل إنقطعت بسبب إستيلاء المماليك عليها ؟

الحاج محمد : المماليك يجمعون كل سنه من كل فرد في هذا الشعب ضريبة
للخلافة العثمانية , و من المفترض ان يرسلوها بعد جمعها للخليفة . و لكن ما
حدث ان المماليك طمعوا فيها و لم يرسلوا شيئا , فأرسل الخليفة هذا الرجل
ليأخذها منهم أو يطردهم من البلد .

سليمان : و هل سيكون هذا جيدا أم سيئا بالنسبة لك ؟ فعلي حسب علمي أنك
شاركت عبدالله المغربي منير أملاك مراد بك .

الحاج محمد : علي حسب ما سيفكر فيه هذا حسن باشا , فإذا إهتم فقط بالمماليك
و نهب ما في بيوتهم و إكتفي , لن يطولني شئ . أما إذا تتبع أموالهم وشركائهم
وتفرغ لهذا , بالتأكيد سيضيع كل ما أمك .

سليمان : لا بإذن الله , سيجرس الله أموالك ...

فجأة مرت أمونة و خلفها ثلاثة من الفواعلية يرفعون لها أشولة القطن
والكتان العملاقة لمحل أمها , فسقط من أحدهم شوالاً علي الارض فوقفت
وصرخت فيه .

فقام سليمان فضحك له الحاج محمد و قال : بلي , إني مشتاق وبني لوعة ...

وأشار بإصبعه إلي نفسه و قال : ... ولكن مثلي لا يذاع له سر .

فضحك سليمان و ذهب .

وبعد خطوات مشاها سليمان ناداه الحاج محمد و قال : سليمان ..

فإستدار سليمان و نظر للحاج محمد فوجده قام مفزوعا من علي الكرسي و
أشار برأسه لبداية الشارع . فنظر سليمان لبداية الشارع فوجد مجموعه من
الجنود الأغراب ليسوا من جنود المماليك يلبسون اللباس العثماني و يدخلون

اللفائف والبنادق في أيدهم و يمشون في السوق يضايقوا الذاهب و الأت و
يترصدون النساء ليتحرشوا بهن

فقال الحاج محمد : إذهب و آتي بالعميان حالا .

فنظر سليمان للجنود و نظر مفزوعا لأمونة التي لمحتة و نظرت له بإمعان ,
ثم نظر للحاج محمد و الفرع في وجهه . فأنطلق بسرعه , و تظاهر بتجاهل
الجنود و مر بجانبهم كأنهم غير موجودين . و فجأة أمسك بقدمه رجل مختل
عقليا عريان بدون ملابس باستثناء قطعتي قماش يغطيان عورته , منكوش
الشعر, شعره مجعد بشده في رأسه و لحيته , طويل الأظافر , أحول العينين ,
شفقته مشقوقتان , الاوساخ تملئ جسده من شعره إلي أطراف اقدمه .

فصرخ سليمان : ماذا تريد أيها المجنون ؟

فظل الرجل ممسكا بقدم سليمان فنزل و أمسك بعصا مرميه علي الارض
و ضرب الرجل المجنون علي ذارعه ضربة قوية , فصرخ المجنون صراخا
مرعبا بصوت مبحوح متقطع , و ترك قدم سليمان , فنظر سليمان له مفزوعا
و تركه و هرب .

فلفت هذا المنظر إنتباه كل من في الشارع بما فيهم الجنود الذين ضحكوا
وأكملوا طريقهم ينظرون يمينا و يسارا و يأخذون من محل خضار بضع
تفاحات دون دفع ثمنها و أكلوها و هم يتبخترون . و ظلوا هكذا يتخطفون
الاشياء بدون مانع لهم إلي أن وقفوا أمام أمونة و عمالها و أشولة القطن
الساقطة علي الارض . فإقترب كبير الجنود من أمونة و نظر لها بسفالة
وقال : بينو من ملامحك أنكى لست مصرية , ربما تكوني تركية مثنا ,
او علي الاقل من شمال الشام القريبة منا .

فنظرت له بمنتهى القوة : انقلع من أمامي و إلا نمت علي وقوفك أمامي بهذه
الوقاحة .

فإستشاط غضبا و هم ليضربها , فرأي من خلفها جمعا غفيرا من الرجال
الفواعلية صبيان التجار يتقدمهم بعض النساء تقودهم سيدة طويلة و عريضة

فنزل الفرسان علي الجنود بالسيوف و الرماح و بعض العيارات النارية
فقتلوه في ثواني .

فقفز قائد الفرسان من علي الفرس بهرع باتجاه أمونة فنهضت أمونة بفزع
وجرت باتجاه أمها التي تصرخ من الالم و تبعها سليمان و قالت أمونة
صارخة : أميييييييييي .

فأمسكت بأمها و رفعت رأسها فوجدتها تتألم و تصرخ من عياران ناربان ,
الاول أصاب رقبته والآخر أصاب أوتار و عظام ركبته . فصرخت أمونة :
أميييييييي .

بعض كبار مشايخ الازهر يدخلون قصرا من القصور الضخمة التي كانت
مملوكة لأحد المماليك يحيطه العساكر العثمانيين من كل جهة من الداخل
والخارج يحملون صناديق . فيقابلهم كبير الحرس و معه بعض الحرس علي
الباب الداخلي و أخذهم و أخذ الحرس الصناديق و مشوا في أروقة القصر
إلي أن وصلوا لقاعة كبيرة . ففرع كبير الحرس الباب , ففتحت الباب و دخلوا
فوجدوا كبة كبيره من الحرير في نهاية القاعة يجلس عليها رجل قصير
أبيض و بلحيه و شنب عملاقين و يلبس اللباس العثماني و علي الجانبين
كنب مماثل يجلس عليه قيادات الجيش و بنفس هيئة الرجل الجالس في رأس
القاعة .

قال كبير الحرس للمشايخ : تفضلوا إجلسوا .

فمشي المشايخ خطوات و خلفهم الحرس و معهم الصناديق يقرّبون من رأس
القاعة يتقدمهم شيخ قصير خمزي اللون خفيف اللحية ، سمين الجسم قليلا
وخلفه باقي المشايخ . فجلسوا بجانب كبة الرجل علي رأس القاعة وهم
يطقطون رؤسهم و يرفعون أيدهم فوق رؤسهم تحيةً و إجلالا للرجل , و انزل
الحرس الصناديق بجانب المشايخ.

فقال الشيخ القصير للرجل : السلام عليكم حسن باشا القبطان .

حسن باشا وهو متخشب الوجه : أهلا بك , عرفني عليكم .

الشيخ القصير : أنا الشيخ أحمد العروسي شيخ الأزهر

فقاطعه حسن باشا : وأين الشيخ النردير ؟

الشيخ العروسي : توفي إلي رحمة الله .

حسن باشا : حسنا , أكمل .

الشيخ العروسي يشير للجالس بجانبه : و هذا الشيخ محمد الامير , و هذا الشيخ محمد الحريري , و هذا ...

فقاطعه حسن باشا و قال : حسنا حسنا , و ماذا في هذه الصناديق ؟

فابتسم الشيخ العروسي قائلا : هذا فضلة خيركم سيدي الباشا , فيها ٢٠ كيلو من البن , و مثلها من السكر , و هذا الصنوق فيه ١٠ عباءات هندية لحضرتكم , و هذا الصنوق فيه عود و عتبر .

فنظر حسن باشا للشيخ العروسي و لم تتغير معالم وجهه المتخشبة : حسنا وماذا تريدون ؟

فضحك الشيخ العروسي و نظر للمشايخ فضحكوا و ابتسموا , ثم نظر لحسن باشا : جئنا فقط للترحيب و تقديم الولاء و الطاعة سيدي الباشا .

فتكسرت ألواح الخشب علي وجه حسن باشا بابتسامه خفيفه و نظر للارض و هز رأسه يمينا و يسارا , ثم نظر للشيخ العروسي و قال : ألم كنت تقدمون الولاء و الطاعة للمماليك قبل عدة أيام قبل أن أصل لهذه البلاد ؟

الشيخ العروسي مبتسما : سيدي الباشا , نحن نطيع أولي الأمر , فأمس كان أولي الأمر المماليك , فكنا نطيعهم و نواليهم , و اليوم أنتم ولاة الامر , فواجب علينا تقديم الولاء و الطاعة

فهز حسن باشا رأسه و قال مبتسما : كم أعشق هذه الطريقة في تفسير الدين

ثم عادت ألواح الخشب تتشكل علي وجهه وقال : حسنا , إذا لم تكونوا تريدون شيئا آخر , قوموا وإرحلوا .

الشيخ العروسي مبتسما : في الحقيقة كنا نرغب في معرفة ما ستقومون به في البك الأيام القادمة لنساعدكم ونسقى معكم .

حسن باشا بعلامات بداية الغضب علي وجهه : نظهر هذه البلاد من الممالك و نجمع أموال الخلافة التي سرقوها .

الشيخ العروسي : و لكنكم طردتموهم من بيوتهم في القاهرة و الجيزة و هم الان في أقصى الصعيد , و أخذتم بيوتهم و زوجاتهم و أولادهم و جواريتهم وأموالهم و كل شئ يملكونه , فنحن جئنا لنتمس رحمة حضرتكم لتفرجوا عن زوجاتهم و أولادهم فقط و خنوا ما شاء لكم بعد ذلك

حسن باشا : مثل من ؟

الشيخ العروسي : مثل زوجات إبراهيم بك , و مثل زوجات وأولاد المعلم إبراهيم الجوهري .

حسن باشا : و لماذا ليس زوجات و أولاد مراد بك مثلا ؟

الشيخ العروسي : و ايضا زوجات و اولاد مراد بك و غيره من الممالك , و لكن في الحقيقة إبراهيم بك و المعلم إبراهيم كلما في شخصيا لاتشفع في زوجاتهم و اولادهم عند حضرتك .

فانفجر رأس حسن باشا غضبا قائلا : مالي أراك متعاطفا معهم؟ إن كنت غير مرتاحا لنا فقل لي الآن حتي أضعكم في قائمة الممالك الذين سننتخلص منهم .

ففزع المشايخ و إنتفضوا من علي الكنب مرعوبين و أمسك الشيخ العروسي بذراع الشيخ محمد الامير الذي بجانبه من الفرع , و قال : لا لا لا سيدي الباشا , نحن مسرورين بكم جدا .

فنظر الشيخ العروسي للشيخ محمد الامير بجانبه و همس له في رعب : هيا بنا ننقل من هنا بسرعه .

فقام المشايخ و طفقوا رؤسهم و رفعوا أيديهم تحية و إجلالا لحسن باشا
وهم يتراجعون للخلف , وهم يقولون : حيا الله السلطان حيا الله السلطان .

فأبصطدم أحدهم بصندوق من الصناديق ووقع علي الارض , فساعده زميله
لينهض بسرعه , فنظر الشيخ العروسي له و قال بصوت منخفض : قم يا
مجنون ستقتلنا .

أمونة واقفه في محل أمها . و أمامها زبونة من أصدقاء أمها , ودموعها
تنزل من عينيها و هي تستجمع كل قوتها لكي لا تنهار و عينيها تهرب يمينا
و يسارا و تمسح أنفها الذي لا يتوقف من السيلان و تقول : لقد شلت يدها
اليمني و رجلها اليمني و قطعت اليسري و أصبحت لا تستطيع الكلام إلا القليل
جدا .

فصدمت الزبونة و قالت : لا حول و لا قوة إلا بالله . يا حفيظ يا رب يا حفيظ.
و هل عالجتموها ؟

أمونة : لم يجد الأطباء لها حلا .

الزبونة : هل جئتم لها بشيخ من المباركين ؟

أمونة : لا

الزبونة : لا , لابد من أن يأتيها شيخ يقرأ عليها و يعمل لها حجاب و اثنين و
ثلاثة و يقدم للأسياذ ما يرضيهم عنكم و يفك مرض أمك

أمونة : و بمن تنصحيني من الشيخ ؟

الزبونة : هناك الشيخ صادومة الشهير , و هو رجل مبارك قادر علي كل شئ
بعلاقته الزائعه مع أولياء الله الصالحين . و الآن هو لا يتعامل مع كل الناس ,
فإنه متفرغ فقط لنساء الممالك و الوجهاء و الأعيان . فمن كثرتهن أصبح لا
يستقبل غيرهن .

أمونة : و كيف نصل لهذا الرجل ؟

الزبونة : إسمعني , أنا لا أستطيع الوصول إليه . لكن هناك السيدة هوي صديقة والتك و التي تزوجت أحد مساعدين مراد بك الان تستطيع الوصول إليه , أو علي الأقل تستطيع أن توصلك لأحد يوصلك إليه .

أمونة و علي وجهها علامات الإستياء : كم أكره هذه السيدة .

الزبونة : دعكي من الحب و الكره , إن لأمك عليها فضلا , فأمك التي أحتوتها و انفقتها من حياة الشوارع و رعتها إلي أن أصبحت هي من هي في البك . و لا أظن أنها ستأخر عن والتك .

السيدة هوي و أمونة يدخلان غرفة فيها قنديل واحد و البخور تتصاعد من زوايا الغرفة و من مبخرة كبيرة في منتصف الغرفة بجانبها كتبة عظيمة من الحرير كعروش الملوك و في الجهة المقابلة للكتبة العظيمة كراسي ظهرها للكتبة و وجهها لآباب الغرفة .

الشيخ صادومة : اجلسا يا هوي .

فقابلت السيدة هوي الكرسي و جعلت وجهها لشيخ صادومة الجالس علي الكتبة العظيمة و ظهره للآباب و جلست عليه , و أمونة واقفه مستعجبه .

فقال الشيخ صادومة : وجهك للآباب يا هوي .

فنظرت السيدة هوي نظره في منتهي اللؤم و الخبث و القوة : دعك من هذا يا صادومة و إنتبه لما هو مهم .

الشيخ صادومة : وجهك للآباب يا هوي .

السيدة هوي : أم هذه الفتاة هي السيدة صفية تاجرة القطن و الكتان المعروفة . و قد أصابها عيارات نارية شلت نصف جسدها الايمن و أجبرت الاطباء علي قطع الرجل اليسري . لا يهم الرجل اليسري التي راحت . نريد فك نصف الجسد المشلول .

الشيخ صادومة ينظر لأمونة بخبث : تبنو أنها تركية يا هوي .

السيدة هوي بصوت عالي و غضب : صادومة , إحترم نفسك و أجنبي علي ما قلته .

الشيخ صادومة بنفعل و ينظر للسيدة هوي و يقول بغضب مكتوم : هوي , أنت تعلمين أني لا أتعامل مع العيارات النارية , و هذا قانوني منذ أن بدأت عملي هذا .

السيدة هوي : حسنا اعمل علي هذه الحالة و سنعطيك أجرنا كاملا حتي لو فشلت

فنظر صادومة لأمونة و ابتسم قائلا : حسنا .

عام ١٧٨٧

عند بيت كبير بالقرب من منطقة المقابر يدخل حسن باشا و معه مجموعه من كبار العساكر العثمانيين , فاستقبلهم الشيخ السادات و معه الشيخ عبدالله الشرقاوي و بعض المشايخ الصغار و قال الشيخ السادات : يا أهلا و سهلا , يا مرحبا يا مرحبا , تفضلوا تفضلوا

فجلس حسن باشا بوجه الخشبي و معه رجاله , فجلس المشايخ في الجهة المقابلة فنادي الشيخ السادات لأحد صبياناه : يا وك , هيا أحضروا الطعام والشراب , لا تتأخروا

حسن باشا للشيخ السادات : لماذا لا اري الشيخ العروسي و الشيخ محمد الامير و أولئك الذين جائوني منذ منه ؟

فنظر الشيخ السادات للمشايخ بجانبه ثم نظر لحسن باشا و قال : لو دعوناهم لن يأتوا .

فغضب حسن باشا و قال : لماذا ؟ سيتكبرون علي أم ماذا ؟

الشيخ السادات مبتسما و ملاطفا : بالتأكيد لا يا سيدي , و لكن الشيخ العروسي و مجموعته علي خلاف مع مجموعتنا .

حسن باشا : لماذا ؟

الشيخ السادات : هناك خلاف فكري بيننا و بينهم .

حسن باشا غاضبا : ما بك يا رجل ؟ لماذا لا تحكي التفاصيل ؟ هل تحاول اخفاء شيء ما عني ؟

الشيخ السادات بتوتر : الشيخ العروسي يري أن الطاعة لشيخ الأزهر و ولاية الامر هي معيار الإرتقاء في مناصب الأزهر , أما نحن فنري أن التبحر في علوم القرآن و السنة , و التوزيع القبلي و الجغرافي لمشايخ الأزهر هما معياران التوظيف و الترقية في وظائف الأزهر .

حسن باشا : و ما ضرركم في معيار الشيخ العروسي ؟

الشيخ السادات : لان من تطبيقات هذا المعيار هو الاستسلام الكامل لمراد بك وإبراهيم بك و رجالهم تحت إسم ولاية الأمر ، و هذا ما لا نرضاه ابداً .

فهز حسن باشا رأسه ثم سكت قليلا .

فقال حسن باشا للشيخ السادات : سمعت يا شيخ أنك صاحب مراكب تنقل البضائع في النيل .

فقال الشيخ السادات مبتسما : نعم سيدي .

فقال حسن باشا : و كيف لرجل ليس من المماليك أن يملك شيئا في شريان التجارة في القطر المصري , ما أعرفه أنهم مثل العواصف التي لا تبقي ولا تنز من ثروات مصر .

الشيخ السادات : إنه ستر الله سيدي . ثم إني من السادة البركية أبناء ابو بكر الصديق , و هم لهم صوت في الناس , و لذلك غالبا ما كان يتعدون عن مراكبي .

حسن باشا للمشايخ بوجه شديد الاستياء : كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران و ترضونهم حكما عليكم يسومكم سوء العذاب و الظلم ؟ لماذا لا تجتمعوا عليهم و تخرجوهم من بينكم ؟

فأجابه أحد الوجهاء الحاضرين : يا سيدي , هم عصابة شديدا البأس و مجتمعين علي يد واحدة .

فقام حسن باشا غاضبا : تخوفني بآسهم .

فقام المتكلم و طأطأ رأسه و قال : انا أقصد أنفسنا سيدي لأنهم بظلمهم أضعفوا الناس .

فقال الشيخ عبدالله الشرقاوي : سيدي الباشا , دعوناك اليوم لمأدبة الطعام هذه لنشتكي لك ظلم المماليك علي رأسهم هذان المملوكان . لم يمر يوم

إلا وأرسلوا رجالهم يسرقون بيتا أو حانوتا . و في المقابل , نسوا تأمين الناس , فالبك تعج بالعصابات , و لا تكاد قافلة حج أو أي قافلة تخرج من مكان إلي مكان إلا و نهبتها العصابات . و أصبح لا يتكلم معهم أحد من الناس إلا وطلبوا رشوة بأي شكل من الأشكال ...

فقاطعه حسن باشا : كفي كفي , فإن أخبار فساد المماليك عنكم بلغت شرق وغرب العالم .

فقام الشيخ السادات وضحك لتلطيف الموقف وقال : هيا يا جماعة الطعام أصبح جاهزا . هيا هيا تفضلوا .

سليمان الجوسقي و بجانبه الحاج محمد المغربي جالسين في الجامع الازهر
وسط جماهير كثيرون بعد صلاة الجمعة مباشرة فقام احد المشايخ و نادي في الناس : ايها الناس لا تغادرو الجامع , فنحن سنتلو فرمان حسن باشا القبطان الخاص بالمماليك .

فالتفت سليمان للحاج محمد و قال : فرمان ؟

الحاج محمد : نعم , فقد ذهب مشايخ الازهر الصغار مثل الشيخ عبدالله الشرقاوي و الشيخ السادات و خليل البكري و سليمان الفيومي و مصطفى الصاوي ..

فقاطعه سليمان : أليس الشيخ الشرقاوي هذا نسيبك ؟

الحاج محمد : نعم .

سليمان : و الشيخ السادات صاحب المراكب الكثيرة ؟

الحاج محمد : نعم .

سليمان : ولماذا يعمل هذا الرجل في الازهر و هو بهذا الغني ؟

الحاج محمد : هذه المراكب و الاموال التي عنده هي ميراثه من أهله . لكنه أيضا هو عالم في الدين و من السادات البكرية أحفاد أبو بكر الصديق الاشراف .

سليمان : حسنا , و أين ذهب هؤلاء المشايخ ؟

الحاج محمد : ذهبوا إلي حسن باشا القبطان و اشتكوا منه بلاوي المماليك وشنعوا صورتهم أمامه .

سليمان : الله اكبر , فعلا انهم أبطال .

الحاج محمد : و منذ مقابلتهم معه هكذا , أصدر فرمانا بخصوص المماليك وها هم سيذيعونه الان .

فصعد الشيخ عبدالله الشرقاوي و أمسك بورقه و قال بصوت عالي :

فرمان حسن باشا القبطان

صدر هذا الفرمان الشريف الواجب القبول و التشريف من ديوان حضرة الوزير المعظم و الدستور المكرم عالي الهمم و ناصر المظلوم علي من ظلم مولانا العزيز غازي حسن باشا صاري عسكر (القائد العام)

نعرفكم أنه بلغ حضرة مولانا السلطان نصره الله ما هو واقع بالقطر المصري من الجور و الظلم للقراء و كافة الناس . و سبب هذا هم خاتنو الدين إبراهيم بك و مراد بك و أتباعهما . فتعينا بخط شريف من حضرة مولانا السلطان أيده الله بعساكر منصوره بحرا و برا لنفخ الظلم و الانتقام من المذكورين . وقد وصلنا لثغر الاسكندرية ثم إلي ثغر رشيد في السادس عشر من رمضان الماضي . و قد كتبنا هذا الفرمان لنعودوا الي أوطانكم مجبورين و مسرورين إنشاء الله تعالى . فإعملوا بهذا الفرمان حين وصوله إليكم و الحذر ثم الحذر من المخالفة بعد أن عرفناكم .

فقام الناس و إنفضوا . و قام سليمان و الحاج محمد معه و أخذوا نعالهم واتجهوا إلى باب الجامع ليخرجوا .

الحاج محمد لسليمان : أين ستذهب الآن .

فابتسم سليمان و قال : سأتي معك حانوتك لأجلس معك قليلا .

فضحك الحاج محمد و قال : ها ها ها ايها الخبيث . لن تراها عندنا في الشارع مرة أخرى .

فصدم سليمان و قال : ولماذا ؟

الحاج محمد : حسن باشا القبطان أصدر قرارات كثيرة تنظم حركة النساء في البنك , مثلا , منع النساء من الوقوف أو التنزه أو حتي المشي في الاسواق بما فيهم التاجرات , و منع النساء من ارتداء اي ملابس تظهر أجسامهن أو شعورهن , ومنع زفاف طهور الاطفال , ومنع الاحتفال بشم النسيم ..

سليمان : ومن يقف في حوانيت التاجرات ؟

الحاج محمد : اقاربهن , ازواجهن , أبنائهن , وإذا لم يوجد أي من هؤلاء يوقفن صبيانهن .

سليمان : ومن في حانوت السيدة صفية ؟

الحاج محمد : أحد صبيانها

سليمان : ولكن أغلب هؤلاء الصبيان لصوص أصلا .

الحاج محمد : صدقت , ولكن ما باليد حيلة .

سليمان يترك الحاج محمد غاضبا ويهم بالذهاب .

الحاج محمد : إلي أين ستذهب أيها المجنون ؟

سليمان : إلي حانوت أمونة .

وبعد دقائق من إبتعاد سليمان عن الحاج محمد , رأوا الناس بدأوا في الإضطراب وسمع بعض النساء يصرخن , و بدأ سليمان يستعجب مما يحدث

, فنظر للحاج محمد وجده متمسك في مكانه ينظر بذهول إلي السماء , فنظر سليمان أمامه للسماء فوجد سحب كثيفة من الأدخنة السوداء تتصاعد من حي البندقائين . وفجأة وجد مجموعه من الخيول تمر أمامه و جمع غفير من الناس خلفهم ,

فأمسك سليمان أحدهم وقال له : ماذا يحدث؟

الرجل : حدث إنفجار بارود في مخزن أحمد ميلاد . و الإنفجار إنتقل لحوانيت البارود المحيطة به فأنفجر حي البندقائين كله . و ليس هذا فقط بل النيران إنتقلت من هذا الحي إلي البيوت و الحوانيت في الأحياء الاخرى

و ذهب الرجل . و فجأه مر الحاج محمد من جانب سليمان كالسهم يركض كالشباب الصغير , فركض خلفه سليمان . و ظلا يركضان هكذا إلي أن وصلا إلي سوق باب الشرعية , في الشارع الذي فيه حانوت الحاج محمد و حانوت أمونة . فوصلا و وجدا النيران تأكل حوانيت الشارع . فركض الحاج محمد إلي حانوته لينضم إلي صبياته الذين يرمون الرمال علي النيران .

أما سليمان فتمسك مكانه و علي وجهه الصاعقة . إذ رأي أمونة تصرخ و لا تتمالك نفسها حتي لا تقدر علي المشي , و الشيخ صادومة يحملها من تحت ذراعيها من ظهرها و يجرها بعيدا عن النار و يحاول الخروج بها من الشارع والسيدة هوي تحاول مساعدته لتهدئة أمونة و إخراجها من المكان . فظلا يسحبها إلي ان مرا بجانب سليمان و الذهول علي وجهه . فجاء نحوهم أحد صبيان السيدة صفية و أمونة .

الصبي : شيخ صادومة إني لم أستطع أن أحضر الأموال من الداخل .

السيدة هوي : حسنا حسنا , ليس مهما , المهم أنه لم يتأذي أحدا .

ليلا : سليمان في الشواشني وكر العميان يجلس في البيت الخشبي مع الشيخ الشبراوي شيخ العميان العجوز

الشيخ الشبراوي لسليمان : الشيخ صادومة هذا من الصعين . و سمعت أنه كان ماهرا في أمور الطب والعطارة . و لكن المماليك سرقوا كل ما يملك

ودمروا تجارتهم تماما . و جاء القاهرة لكي يحاول العمل في العطارة مرة أخرى . و في أحد الليالي و هو في إحدى المقاهي تعرف علي السيدة هوي بعد مرض ألم بها و استطاع أن يعطيها علاجا شفاها . و بعد أن اعجبت بخبرته في العلاج , أعطته مالا كثيرا ليستأجر بيتا ويشتري هذه المواد العلاجية ويدعي أنه ولي من أولياء الله الصالحين متصل بأرواح الصالحين من الأنس والجن و أنه يعالج المرضى و يفك أعمال السحر و يرجع الزوج لزوجته ويفرق بين المرء و أهله ويهزم الاعداء و كل هذه الأمور .

سليمان مستعجبا : و كيف ذاع صيته بهذا الشكل ؟

الشيخ الشبراوي : مقهي السيدة هوي كان يأتيه كبراء القوم من الرجال والنساء . وهي التي كانت تقوم بالدعيا له .

سليمان : ولماذا قامت بدعمه كل هذا ؟

الشيخ : مقابل جزء من أرباحه .

سليمان : وهل هو صالح فعلا و متصل بالجن و الانس و ولي من أولياء الله..

فقاطعه الشيخ : بالتأكيد لا , فما من أحد لا يعلم أنه يعشق النساء و البعض يقول أنه يعاشر بعضهن .

فأستشاط سليمان غضبا و خرج من البيت و وقف بجانب العميان يستنشق الهواء تهدئة لنفسه .

فقال أحمد قائد العميان السابق : سليمان , لماذا أنت غاضب ؟

سليمان : ماذا يفعل الشيخ صادومة عند أمونة ؟

أحمد : أنت تعلم أن أمها ثلثت , ولابد أنه يذهب عندهم ليحاول علاجها .

سليمان : وما الذي جاء به عند الحانوت وهو يحترق ؟

احمد : الكل يعلم ان الشيخ صادومة يذهب لبيت السيدة صفية كل يوم بعد الظهر ليحاول علاجها . و من المؤكد أنه كان موجودا عندهم قبل الحريق . وخرج معهم عندما خرجوا للحريق .

فأمسك سليمان بملابس احمد غاضبا : و لماذا لم تخبروني أن الشيخ قاذوره يذهب عندهم يوميا بعد الظهر؟

احمد : سليمان أنت لا تسمح لأحد أن يتكلم معك في هذا الموضوع .

فتركه سليمان و هذا قليلا و تراجع و جلس علي مصطبه و قال لصاحبه :
حسنا يا أحمد , إجمع عندي العميان بسرعة

فصرخ أحمد : أيها العميان!!!!!!!!!!!!!! ان , إجمعوا عندي بسرعة

فاجتمعوا عنده بجانب أحمد , و قال سليمان : اسمعوني جيدا , سأقول لكم الآن ما سنفعله حتي نتخلص من الشيخ قاذوره هذا نهائيا .

أحمد متحمسا : قل ايها الداهية .

سليمان : إبحثوا لي عن سيدة من زوجات المماليك أو الوجهاء اصحاب القوة و النفوذ . هناك شرطين أساسيين لابد أن يتوافرن فيها , الاول , أن تكون ممن لا يستطيع أي رجل مقاومة إغرائهن , شديدة الجمال و الاغراء . الثاني , أن تكون ساذجة و متمسكة بزوجها إلي درجة كبيرة , و تريد فعل أي شئ ليظل زوجها متمسكا بها . فإذا وجدتموها , إبحثوا لي عن إحدى جواربها , و أتوني بهذه الجارية ...

في نهايات العام , أتح الجنود العثمانيين راكب علي فرس و خلفه ٣ من الفرسان و بيده ورقة يقرأها في الساحة أمام الجامع الحسيني بالقرب من جامع الازهر و أمامه جمع كبير من الناس و علي اليمين و اليسار يعالج الناس آثار الحريق و الأخشاب المتفحمة

الجندي بصوت عالي :

فرمان من حسن باشا القبطان

صدر هذا الفرمان الشريف الواجب القبول و التثريف من ديوان حضرة
الوزير المعظم و الدستور المكرم عالي الهمم و ناصر المظلوم علي من ظلم
مولانا العزيز غازي حسن باشا صاري عسكر (القائد العام)

أهالي مصر , نتباككم بأننا سنغادر القطر المصري , ليس برغبة منا , و إنما
للجهاد في سبيل الله لردع كلاب المسقو(الروس) الذين تجزأوا و أغاروا علي
بلاد السلطان في القرم . و نتباككم بأننا قبلنا الأموال التي جمعها لنا إبراهيم بك
و مراد بك , و اصدرنا عنهم العفو من القتل بشرط أن لا يدخلوا القاهرة و لكن
يظلم إبراهيم بك مقيما في قنا و مراد بك مقيما في إسنا . و سيتولي بعدنا أمور
البلاد إسماعيل بك الذي سيكون مسؤولا عن جمع أموال السلطان العثماني في
الأستانه .و ستمثل هذه الأموال في البنود الاتية :

- ١ . مال المظالم
- ٢ . مال التحرير
- ٣ . مال المضاف
- ٤ . البراني
- ٥ . عوايد الكشوفية
- ٦ . الفزد المتعددة
- ٧ . مال الجهات و غيرهم

فضرب بعض الناس علي رؤسهم و نظر البعض الآخر للأرض محبطين
والبعض بدأوا الهمهمه و الغضب . ثم أكمل الجندي قائلا : من أراد الإستفسار
عن هذه البنود أو طرق دفع هذه الجبايات أو أي شئ من ذلك ينتظر المحصلين
الذين سيمزون عليه و يسألهم .

فقال أحد التجار للجندي : ألم يأتي حسن باشا القبطان دفعا للظلم و المماليك
الظلمة , ثم يأتي و يفرض جبايات أكثر من المماليك , هذا غير الزكاة
و الخراج . مال هذه البلاد لا ينتهي منها الظلم أبدا؟ ظالم يسلم ظالم و فسد
يسلمون فسد؟

فلم يرد الجندي علي التاجر و ذهب هو و رجاله .

بعد إسبوعين , حشد كبير من جموع غفيره من التجار متجهرون في الجامع
الأزهر بعد أن اغلقوا حوانيت أغلب الأسواق و أوقفوا البيع و الشراء في
أسواق البن و البهار . و صعد كبير تجار البن علي المنبر

كبير التجار : منذ إسبوعين أصدر حسن باشا الخنزير فرمان بأشكال و ألوان
الجبايات , هذا غير الزكاة و الخراج , و سكتنا . و لم يكن أمامنا غير أن نرفع
الأسعار تعويضا لهذه الجبايات المأخوذه منا . و لكن الجند , أنه بالأمس
وجدنا مندوبين من هذا الخنزير الجند إسماعيل بك يطلب قروضا منا , و كأننا
في بيوتنا جبال الذهب و الفضة حتي يمكننا أن نعطيهم قروضا . لعن الله
إسماعيل بك و حسن باشا و المماليك و كل من كرس كل تفكيره و طاقته
وطاقة كلابه و جنوده لهضم حقوقنا و إغتصاب كرامتنا .

فصرخ التاجر : الله اكبر الله اكبر

في هذه الاثناء ظهر من بعيد الشيخ العروسي مقبل علي الجامع , فجري
التجار نحو الباب و هموا بغلق الباب في وجه الشيخ

فصاح الشيخ العروسي عليهم و قال : لا تغلقوا الابواب و إلا نزل غضب الله
عليكم .

فاستشاط التجار غضبا من كلمته و هجموا عليه و هم يسبونهم . فهرب هو
و المشايخ للوراء أمام التجار الغاضبين و دخلوا أحد الشوارع الجانبية , ففتح
بعض السكان بيوتهم ليخفوا فيها المشايخ .

بعد ساعة , خرج الشيخ العروسي بكل فخر و تباهي علي فرس مزين بأحلي
الزيات و خلفه المشايخ محاطين بجمع غفير من سكان الشوارع الجانبية

يحملون النبايت و العصي يدفعون كل من يقترب من الشيخ العروسي
والمشايع معه و خرجوا إلى الساحة الكبيرة بين الجامع الازهر والجامع
الحسين و مروا أمام التجار فخرج التجار ليهجموا علي الموكب و خرجت
أعداد كثيرة من العامة ليهجموا علي الموكب . فبدأ أفراد موكب الشيخ
يصدون عنه . فوقف التجار و العامة علي جانبي الموكب يسبون الشيخ
العروسي وموكبه إلي أن خرج من هذا المكان .

فتوقف الشيخ العروسي عند جامع المؤيد بالقرب من باب زويلة بعيدا عن
تجمهر التجار و نزل فيه و جلس علي كرسي المقرئ بجانب المحراب ووقف
المشايع أمامه و هو يغلي من الغضب .

فنظر للشيخ محمد الامير و قال : ماذا نفعل يا محمد ؟

الشيخ محمد الامير : بدايةً , لابد أن تأخذ صف التجار , فهم أشد خطرا عليك
من خطر إسماعيل بك . حتي و إن كان إسماعيل بك ذو قوة و بطش , و لكن
في النهاية هو يحتاج إليك , أما التجار , فهم ينظرون إليك إذا كنت في صفهم
أم في صف عدوهم , فإذا شعروا بأنك في صف عدوهم , عصفوا بك لأنهم
لا يحتاجون إليك . فإن إسماعيل بك يحتاجك ففي توطيد سلطانه , لكن التجار
لا يحتاجونك في زيادة بيعهم .. مثلا .

الشيخ العروسي : والحل ؟

الشيخ محمد : أرسل لإسماعيل بك مطالبهم و أنصحه بتأنيتها .

العروسي : ها ها ها ... حتي أسمع منه ما سمعته من حسن باشا عندما تشفعت
في أولاد و زوجات ابراهيم بك و المعلم الجوهري .

الشيخ محمد : إسمع منه كلمتين تتظاهر بها أمام التجار أنك في صفهم , أفضل
من أن لا تسمع منه شيء و يتهمك التجار أنك تابع لإسماعيل بك .

العروسي و علي وجهه الاستياء : لا . كل ما سأفعله سأرسل له .. السلام
عليك إسماعيل بك , التجار يرفضون إقتراضك منهم و حدث منهم كذا و كذا ,
والسلام . وإنتهينا .

فسكت الشيخ محمد الامير .

بعد نصف ساعة , سَمِعَ صوت خيول خارج جامع المؤيد ففزع الشيخ العروسي و قال : لماذا هذه الخيول ؟ لقد أرسلت تقريراً بما حدث و لم أظهر ولاء للتجار , فماذا حدث ؟

فدخل الجامع جماعة خليط من جنود عثمانين و جنود مماليك قدامي و يرأسهم رجل عملاق يلبس اللباس المملوكي و بجانبه سليم الأغا فوصلوا إلي مقدمة الجامع فتّحي المشايخ جانباً و الشيخ العروسي واقف أمام كرسي المقرئ بجانب المحراب يرتعد من الخوف و سقط علي الكرسي خلفه و ألصق ظهره علي ظهر الكرسي و يده ممسكتان بأيدي الكرسي يدفع نفسه للخلف , و قال : إسماعيل بك !!

فأقرب الرجل العملاق إسماعيل بك من الشيخ العروسي و قال : كان الخنزيرين إبراهيم بك و مراد بك وكلاهما يسرقون هؤلاء التجار ليل نهار كل يوم و لم يثوروا هكذا . و جاء حسن باشا و اشبعهم غرامات , و لم يفتحوا أفواههم . و هذا بالطبع ليس من طيبة قلوبهم , إنما لأنهم كانوا يرفعون أسعار السلع أكثر من قيمة الأموال المفروضة عليهم . لو أنا مكانهم سأكون سعيداً بكل جباية تفرض علي لأنها ستكون حجة لي أمام الزبائن لرفع السلعة بما يزيد مكسبي أكثر . أما و ان هذا لم يحدث , و أول مره في هذه البلاد نسمع صوت هؤلاء التجار , فبالأكيد هناك شخصاً أو جهة معينة وراء كل هذا .

الشيخ العروسي : و بالتأكيد أنا لست هذا الشخص أو الجهة التي فعلت هذا .

إسماعيل بك : سأفترض هذا . و لكن حدث هذا بسبب إهمالك و غفائك عن تلك الجهات التي تثير التجار . هذا بالإضافة إلي ضعف تأثيرك , أنت و رجالك علي الناس . و اليوم يثور التجار , غدا نجد أصحاب الحرف ثائرين , بعد غد نجد الشعب كله ثائر .

فتضرع المشايخ لإسماعيل بك بصوت جماعي : سامحنا سيدنا إسماعيل , نحن لم نقصد إثارتهم , نحن لا نريد إلا خيراً ...

فقاطعهم سليم الأغا : سيدي إسماعيل , من تجاربي السابقة مع هذه المظاهرات , فإن الناس يخرجون هذه المظاهرات خافين أصلا , و يترصدون أي فرصة لإنهاء هذه المظاهرات و التصالح معنا , حتي لو بمجرد بعض الإصلاحات البسيطة . فأنا أنصح أن تصدر قرارا بإلغاء الإقتراض من هؤلاء التجار لينفضوا الآن . و خلال الأسابيع القادمة , راقب السوق , و أنظر في التجار سريعي البيع مثل الصاغة و البن و البهار , و أرفع من قيمة كل بند من بنود الجبايات المفروض عليهم سابقا , بحيث يكون مجموع قيم الزيادات تعادل قيمة القروض التي كنت تريدها و أكثر , ثم إنتقل إلي التجار متوسطي البيع ثم بطيئي البيع و هكذا .

فابتسم إسماعيل بك و تهلل وجهه و قال : لهذا أبقى عليك حسن باشا القبطان و لم يغضب عليك من وسط كل الممالك الخنازير الباقين . إنطلق و أفل كل ما تراه مناسباً.

ثم نظر إسماعيل بك للشيخ العروسي : أنظر و تعلم كيف يكون العامل كفى , فقط عندما يكون مخلصاً لجهة عمله .

في الجامع الأزهر , يدخل أحد المتظاهرين بورقه تسلمها من أحد جنود سليم الأغا , و نظر فيها و قرأها سريعا ثم صرخ : لقد ألغيت القروووووض .

فصج الجامع بالتهليل و التكبير : الله اكبر و لا إله إلا الله .

من أمام بيت شيخ العميان , سليمان يجلس علي المصطبة و تقف أمامه سيدة طويلة و عريضة و شعرها طويل بدون حجاب وجهها عريض ملوئ بالزينة , تلبس ثيابا قيمة . و خلفها أحمث وبعض رجال العميان

يقوم سليمان و يخرج من جيبه كيس من المال و يقول : أتعلمين كم في هذا الكيس ؟ ألف قطعة ذهبية . ستأخذي هذا الان , و ستأخذي مثله بعد أن تنفذي ما سأطلبه منك .

السيدة بحاجب مرفوع : و ماذا تريد ؟

سليمان يقف أمام السيدة : أعلموني أن زوجة يوسف بك تسمع منك أكثر من أي أحد آخر , وقالوا لي أنها تقريبا خاتما في إصبعك كرنك كبيرة خدماها و خدم أمها و انت التي اشرفتي علي تربيتهها .

السيدة : حسنا ؟!

سليمان : كل ما أريده منك هو أن تجعلها تتك في حب زوجها لها , وتنصحها بأن تذهب للشيخ صادومة ليعمل لها عمل مربوط بوشم يرسمه علي فخذاها لتحافظ علي زوجها . و فقط .

فأمسكت السيدة ملابس سليمان و شدته منها و قالت : أنت تريد قتلها وقتل صادومة .

سليمان : ليس مشكلة عندي أن تقتل هي او لا , المهم عندي أن يقتل صادومة . فدفعته بعيدا عنها و همت بالذهاب و قالت : إذا فإذهب و إقتله أنت .

سليمان : أمامك إختيارين , إما أن تأخذي ما عرضته عليك , وإما أن تذهبي إلي بيتك و تقرأي الفاتحة علي أولادك .

فنظرت له مفزوعة و قالت : أيها الخسيس .

سليمان : صدقيني لست خسيسا , أنا لا أطلب منك الكثير , كل المطلوب هو بعض ثرثرة النساء لئلا تقنعها فيها بخطر هروب زوجها منها والحل هو عمل مربوط بوشم معمول بين صادومة

السيدة : ومن قال لك أنها ستصدقني ؟

سليمان : عندما تتذكرين أولادك , ستقنعها .

السيدة : لماذا أخترتني أنا ؟ لماذا لم تختّر زوجة أخرى من زوجات المماليك .

سليمان : لانك غبية , كم عذوبك هؤلاء ؟ يعيشون في نعيم يكفيهم و يكفي الجيل العاشر من احفادهم , وانت و أولادك تعيشون في وسط الطين و المقابر

, و مع ذلك لم تفكري في يوم أن تتعدي عنهم أو تسرق شيئا مما يتعمون فيه من أهلك و أجل اولادك غبية .

في بيت الشيخ صادومة : أمونة تجلس أمام مبخرة الشيخ صادومة الكبيرة والشيخ صادومة يتمشي في المكان يرتب بعض أغراضه

الشيخ صادومة : أعلم يا أمونة أنك قررتي العمل معي بعد إحتراق حانوت أمك و ضيق الحال الذي ألم بكم . ولكن لابد أن تعلمي أنك إذا صببت كل تركيزك في هذا العمل علي جمع المال فقط . ستؤول بك الأمور إلي قص رقبتك و لن تكسبي من المال ما تبغيه . لكن إذا صببت كل تركيزك علي غسل أدمغة الناس , ستصنعين المجد لنفسك و سيسير الناس خلفك كالمسحورين . و حتي إذا أخطأت معهم في بعض الأحيان سيتجاهلون خطأك و ستكون عنك فرصة لإصلاح أخطائك دائما .

ثم نظر لها و قال : هيا إسأليني كيف أغسل دماغ الناس ؟

أمونة و هي مرتبكة : كيف يا شيخ ؟

الشيخ صادومة : أصنعي شيئا حقيقيا صغيرا , و ابني فوقه أبراجا من الأوهام. فمثلا , المرضي , كلما جائك مريض , قدمي له الأعشاب و كل ما تعرفينه عن الادوية و العلاجات , فإذا شفي المريض , أفنيعه بأنك إتصلتي بالجن في الشرق و الغرب و إتصلتي بالأولياء و تضرعتي إليهم و قدمتي لهم القرابين فرضوا عنك و رضوا عن المريض الذي طلب وساطتك بينه و بينهم, و طلبوا من الله شفائه , فشفي الله المريض. مثلا , إذا جائك امرأة تشتكي لك بعد زوجها عنها , إستأجري بعض النساء و الرجال اصحاب الشخصيات الودودة و عندهم قرات تواصل مع الناس عالية و أرسلهم للزوج لينشأوا معه صداقات سريعة و تجعلي النساء يظهرن عيوبهن و يبرزن مميزات زوجته و الرجال يشكون من أزواجهم و يظهرن زوجته أفضل من زوجاتهم. فإذا عاد و صالحها قلتي لها أنك سوقتي عليه الأسياد و كذا و كذا إلي أن تتصور المرأة التي اشتكت لكي هجر زوجها أنك المحبوبة الأولى و الأخيرة للأسياد .

أمانة و علامات الصدمة علي وجهها : يا شيخ , إن هذا هو الإحتيال و الكذب بعينه .

فضحك صادومة و قال : كنت أقول مثل قولك هذا و انا عطار في الصعيد .
كنت ملتزما بالحلال و الحرام لأن عملي كان رائعا و يدر علي دخلا ممتازا .
و فجأة , إغتصب المماليك كل ما أملك و جعت و تشردت في الشوارع .
ولا يمكن اعتبار ما حدث لك و لأمك بعيدا عما حدث لي . بعد هذا , نسيت
الحلال و الحرام و ما يصح و ما لا يصح , ليس لانني أعشق هذا الوضع
الفاقد , و لكن استماتة مني للبقاء علي قيد الحياة

أمانة : حسنا , و ها أنت أصبحت علي قيد الحياة و جمعت من الثروات ما
لا يعد و لا يحصي . إرجع إذا للحلال و الحرام و ما يصح و ما لا يصح .

فنظر لها صادومة متأملا و ابتسامه خفيفه علي وجهه : صعب . بعد كسر
حدود الحلال و الحرام , من الصعب بل من المستحيل العوده للإلتزام بها .

فأبتسمت أمانة : لا , بالمعني الأصح , أنك أحببت الحرام , و جنت طعمه
لنئذ .

فهز صادومة رأسه و قال : صحيح , لا يمكن إنكار هذا , ولكن إفعليها أنت
إن إستطعتي . ذوقي الحرام , و عودي و قللي إنني سأتوقف عنه .

فنظرت أمانة له في تحدي : حسنا , سأريك .

فطرق الباب , فقال الشيخ صادومة : أدخل .

فدخل أحد مساعدي صادومة و قال : سيدي , زوجة يوسف بك و كبيرة خدمها
معهها .

فقال له : أدخلهما .

فنظر لأمانة و أشار للباب و قال : أنظري , هذه أول حالة عملية تزيينها .
راقبي و تعلمي .

فدخلت كبيرة خدم زوجة يوسف بك و الزوجة نفسها سمينه الجسم متوسطه الطول , ذو شعر ناعم أسود طويل و عيون يملأهما الكحل و وجهه مستدير مملوء بالتجميل و فستان مفتوح من الرقبة و شفاف الكتفين و شفاف من تحت الركبة و الإغراء يكاد يثير النساء قبل الرجال . و الشيخ صادومة ينظر للأرض مغمض عينيه و يسبح بالمسبحه و أدخنة البخور تتصاعد من المبخرة أمامه .

فقبل أن ينطق أحد قال : اجلسا بارك الله فيكما .

فجلسا بجانب أمونة . و قالت كبيرة الخدم : شيخ صادومة , جئناك نشتكى هجر يوسف بك لبنتنا هذه . وانت و الاسياد أدري بما تحيكه النساء الخبيثات للإيقاع برجل ذو مال و سلطان مثل يوسف بك . فنصحتنا أحدي زوجات المماليك من أصدقاء يوسف بك بأن نأتيك و تعمل لنا عملا مربوط بوشم في فخذ إبنتنا حتي يسقط يوسف بك في حبها و يُربط بها و لا يذهب لغيرها .

فرفع الشيخ صادومة رأسه و قال : يبدو أنك لست كبيرة خدم فقط . يبدو أنك موصولة بالآسياد و تعرفين مرادهم و تعرفين حبهم للأعمال المربوطة بهذه الاوشام .

فابتسمت زوجة يوسف بك و كبيرة خدمها و ذهلت أمونة

فقال الشيخ صادومة : لو سمحتم دعوا السيدة زوجة يوسف بك وحدها وأخرجها .

فأمسكت زوجة يوسف بك بخادمتها و قالت : لا , لا تتحركي من هنا .

فأصدر الشيخ أصواتا مرعبة يرمز بها للإعتراض . فقامت أمونة و قامت الخادمة و طبطبت علي ظهر زوجة يوسف بك طمانة لها و خرجت مع أمونة.

فخرجت الخادمة مع أمونة و جلست كل واحد في جهة من صالة الإستقبال .

كبيرة الخدم : سيدتي , هل فعلا أعمال هذا الشيخ لها أثرها كما يدعي الناس ؟ هل جربتي عملا مثل أعماله ؟ أم أن هذه أول مرة تأتيه فيها ؟

أمونة مستغربة : و كيف جئتي إلي هنا و أنت غير واثقة بالنتيجة ؟

كبيرة الخدم بعد تهيدة : أنه النصيب .

أمونة : أي نصيب ؟

كبيرة الخدم : لا يهم لا يهم .

فسكتا بضع دقائق . ثم ابتسمت كبيرة الخدم و قالت : لم أتعرف علي

حضرتك يا سيدي ؟!

أمونة : أنا أمونة التركية بنت تاجرة القطن و الكتان صفية التركية .

فصعقت كبيرة الخدم : صاحبة سليمان الجوسقي .

فركلت أمونة طاولة صغيرة أمامها بقدمها و هجمت علي كبيرة الخدم و

أمسكتها من ملابسها بكل غضب و قالت لها بصوت منخفض : يبدو أنك

لا تعرفين ألاعب شيوخ النجل مثل صادومة هذا و مع ذلك جئتي بسينتك

وتظاهرتي بأنك خبيرة بهذه الاعمال لتورطيهما في هذا العمل و هذا الوشم . و

الان عندما سمعتي إسمي فزعتي وذكرتي سليمان الجوسقي , ما قصتك يا

إمرأة؟

فنظرت كبيرة الخدم في خبث : تريدان أن أصدق أنك لست هنا لتراقبيني ؟

بالتأكيد لن أصدق أنك لست جاسوسة لسليمان .

أمونة : أقسم بأني سأوصل قصتك هذه ليوسف بك إن لم تتطقي , و أنت أعلم

بأن المماليك كلهم كانوا أحباب أمي و لن يكذبوا قولاً سأقوله لهم أبداً .

فأمسكت الخادمة يد أمونة و قبلتها و قالت : أرجوك يا سيدي , لا تفعل هذا

و إلا قتلي و شرد أولادي.

تركت أمونة الخادمة و قالت : حسناً , قل لي ما حدث تفصيلاً .

الخدمة : لا شئ سينتي , كل ما حدث هو أن سليمان طلب مني أن أتي لصادومة بزوجة يوسف بك و أختلق تلك النصه التي سمعتها مني بالداخل . ولكنني رفضت في البداية . و لكنه هددني بقتل أولادي إن لم أفعل .

أمونة مستعجبة : و ماذا سيستفيد سليمان ما هذا ؟

الخدمة : هو يعلم أن يوسف بك سينفجر غضبا و يقتل الشيخ صادومة .

فهمت أمونة للدخول علي الشيخ صادومة , فقفرت الخدمة علي رجل أمونة تقبلها و هي تبكي : أقسم لك أنه سيقتل أطفالي . أرجوكي يا سينتي , تصرفي بأي شكل أخر ألا ان توقفي رسم هذا الوشم , و الا سيقتل سليمان أولادي .

فخرجت أمونة من بيت الشيخ صادومة و ركبت فرسها و إنطلقت .

أمام بيت شيخ العميان في الشواشني . أمونة تدخل بفرسها وسط جمع من العميان و تقف أمام المصطبة التي يستلقي عليها سليمان . فقام العميان و شهوروا أسلحتهم فصرخ سليمان : انزلوا أسلحتكم . عندما أمر برفع السلاح فأرفعوه . إجلسوا و إلتفتوا لأشغالكم .

نزلت أمونة من علي الفرس و قالت لسليمان : لم أتصور أن يصل بك الجنون و الغيرة أن تقتل الشيخ صادومة من أجل خرافات في رأسك .

إعتدل سليمان في جلسته و قال في منتهي الهدوء : و من قال لكي أني أريد قتله من أجل الغيرة . بالله عليك , لم أصاب بالغيرة من شباب المماليك الذين كانوا يأتون حانوت أمك , و أصاب بالغيرة من ذلك الأبله ؟

أمونة ترفع يديها إستعجابا : إذا لماذا تريد قتله ؟

سليمان : لأنه سافل , و سيأذيكي كما أذي غيرك .

أمونة : و من أنت لتقرر من يؤذيني و من ينفعني , أنت زعيم عصابة لاعلاقة لك بي .

سليمان : حسنا .

والقي بجسمه مرة أخرى علي المصطبة .

فهمت أمونة بالذهاب , فصرخ سليمان و قال : ايها العميان , اقبضوا عليها وألقوها بالداخل .

فهمج العميان عليها و أمسكوا بها و هي تصرخ و أدخلوها في البيت الخشبي بجانب الشيخ الشبراوي و أغلقوا عليها الباب . فظلت تصرخ و تفرع الباب من الداخل , فصرخ فيها الشيخ الشبراوي من علي السرير خلفها و قال : كفى !!!!!!! ... ففزعت أمونة و نظرت خلفها و قالت : من أنت لعنكم الله .

بعد أيام أمونة جالسة علي الأرض ظهرها علي الحائط و رافعة ركبتيها و مربعة ذراعيها عليها و ملقاة رأسها علي يديها . و فجأة فتح الباب أحد العميان و قال لها : هيا معي .

فنظرت له و عينيها محمרותان و وجهها منهك من التعب , ثم قامت و خرجت فضربت أشعة الشمس عينيها , فأغمضتهما و رفعت يدها لتحجب الاشعة عنها , فوقف أمامها سليمان و قال بصوت عالي : أعد ما قولك لي قبل قليل يا أحمق .

فقال أحمد بصوت عالي : لقد قص يوسف بك رقبة الشيخ صادومة و زوجته .

فقال سليمان لأمونة : أعلم أنك الآن تكرهيني أكثر من أي وقت آخر . ولكن ما الفائدة إذا لم تكرهي , لا بل ما الفائدة إذا أحببتيني , لا شيء . أنت في النهاية تحت طوع أمك , و أمك ترفضني لأنني لست تاجرا أو ابن تاجر . ففي كل الاحوال لا اطمح في الزواج منك لا سابقا و لا لاحقا . و لكن في نفس الوقت , لن أسمح بإقتراب أحدا منك . و لو شعرت بأن كلب من الكلاب يحوم حولك , سيكون مصيره نفس مصير صادومة .

أمونة : إسمع , من الآن فصاعدا سأعتبرك عدوي , ولي ثارين عنك , الأول أنك وضعت نفسك موضع الراصي علي و تدخلت في حياتي بسفالة و قلة أدب و قبضت علي و أهانتني . و الثاني أنك قطعت مصدر رزق لي و لأمي في العمل مع صادومة كان سينقذنا من الهلاك , و ستكون أنت السبب في كارثة ستستمر علي أنا و أمي بعد أن كانت قد إقتربت من الحل .

و مثلت من أمام سليمان و ركبت فرسها و إنطلقت .

عام ١٧٨٨

بدايات العام , فى بيت السيدة صفية , أمونة جالسة علي ركبتيها علي الارض و متكأ برأسها و ذراعيها علي سرير أمها تكاد تنفطر من البكاء و أمها تحاول الكلام و لا تستطيع , فجاءت كبيرة الخدم بشينة و طبطبت علي ظهر أمونة و الأم المشلولة تنظر لبشينة تستغيث بها بالنظرات , فقالت بشينة : يا ابنتي هوني علي نفسك , ستموتين من البكاء هذكي الله .

فدخلت الغرفة السيدة هوي و وقفت في منتهي الإستياء و قالت : كفي يا أمونة , البكاء لن يجني نفعاً , تعالي أرينك بالخارج .

فخرجت السيدة هوي , و نزلت بشينة علي ركبتيها و إحتضنت أمونة و هدأتها و قالت : لا تبكي يا ابنتي , فإن السيدة هوي بالخارج تريدك من أجل أن تعمل معي .

ففرغت أمونة و نظرت لبشينة باشمنزاز , فقالت بشينة بسرعة : لا يا ابنتي ليس الذي يدور في رأسك , أخرجي لها و إسمعي منها فقط , ربما كان عندها ما يفيدك .

فنظرت أمونة لأمها فوجدتها تهز يدها اليسار الغير مشلولة بصعوبة إشارة بالموافقة . فعادت و نظرت لبشينة , فطبطبت أمونة علي كتفها و ساعدتها في النهوض و قالت : هيا يا ابنتي .

فخرجت أمونة فوجدت السيدة هوي جالسه علي كنية و كبيرة خدم زوجة يوسف بك واقفه بجانبها , فإندهمت أمونة و ظهر علي وجهها الغضب من رؤية كبيرة الخدم , و أرادت العودة لغرفة أمها , فقالت السيدة هوي : لم يكن أمامها إلا إنقاذ أطفالها , و في المقابل كانت زوجة يوسف بك و أمها يسومنها العذاب و لا يحترمونها , فكان ما فعلته تحت ضغط تهديد أولادها و ضغط ظلم سادتها , فلا تظلمها أنت أيضا .

فالتفتت أمونة للسيدة هوي و قالت : و ماذا بعد ؟

السيدة هوي : إن صادومة كان يعمل لحسابي , مولته أنا بالمال و الدعايا في الاسواق و المقاهي و بين نساء الامراء , مقابل نصف كل ما يحصل عليه من أموال. و قبل ان يقتل كان قد دربك قليلا علي مهنته , فأرجو أن تكملني عمله , بنفس العقد الذي كان بيني و بينه , أعطيك المال و الدعايا و تعطيني نصف ما تحصلني عليه .

أمونة : و هل تظنين أن الناس سيقتربون من دار صادومة مرة أخرى أو أي أحد من طرفه بعد ما حدث مع زوجة يوسف بك ؟ الناس سيثأثمون و يهربون .

السيدة هوي تشير لكبيرة خدم زوجة يوسف بك و تقول : و هذا هو دور هذه المرأة . سأعطيها كيسا من الذهب لتثيع بين خادمت زوجات الممالك أن الغلطة لم تكن غلطة صادومة . الغلطة كانت من زوجة يوسف بك التي أصرت أن يرسم لها الوشم علي فخذا , بينما صادومة كان يريد رسم الوشم علي كتفها . و هددته بأن تسلط عليه رجال زوجها ليقتلوه إن لم يفعل ما تأمره به . أما أنا سأثيع بين الناس في المقاهي و القصور أنك خليفة هذا الرجل الصالح الذي مات ظلما في سوء تفاهم بينه و بين يوسف بك .

أمونة في قمة الدهشة : أيها الملاحين , من أين جنس أنتم ؟

قامت السيدة هوي و همت بالرحيل : لا تندهشي كثيرا يا حبيبي , فنحن في غاية يأكل القوي فينا الضعيف . و لكي تظلي علي قيد الحياة لابد أن تصبحي قوية , و لكي تكوني قوية , لابد أن تعصري عقلك ليل نهار بالتفكير في التخطيط كيف تستطيعين الانتصار , و كيف تستطيعين المحافظه علي إنتصاراتك .

ثم نظرت هوي للخادمة و قالت : هيا .

ورحلتا .

في سوق الخضراوات و اللحوم يقف أحمد قائد العميان السابق , ينظر إلي اللحوم في الحوانيت , و فجأة تظهر أمونة بجانبه و هي ملثمة

أمونة بصوت منخفض : هل تظن أن سليمان سيترك تشتري ما تشتهي من هذا اللحم و الخضار ؟

فتفاجئ أحمد و قال : من أنت ؟

قالت : أمونة .

أحمد : و ماذا تريدني مني ؟

أمونة : أريد أن أخلصك مما أنت فيه .

أحمد : ابتعدي عني الله يرضي عنك .

أمونة : أعلم أنك كنت قائد العميان قبل سليمان و كنت تنفذ أوامر الشيخ الشبراوي بالحرف الواحد , و لكنك بكل غباء جئت بسليمان , فظهر سليمان عليك و أصبحت أنت مجرد تابع له .

أحمد مستهزئاً : و ماذا بعد ؟

أمونة : أنت تعلم علاقة أمي بنساء المماليك , و تعلم أنني أستطيع تعيينك في رجال أحد المماليك و تصبح سلطان زمانك مثلهم , بدلا من كونك حرامي مع مجموعة من مخابيل العميان , و يقودكم سليمان الذي لا يهتم إلا نفسه ولا يقدر أحدا منكم .

أحمد محتاراً : في مقابل ماذا ؟

أمونة : في مقابل أن تثير مشكلة مع أحد عساكر إسماعيل بك . و فقط .

أحمد مذعوراً : أمجنونة أنت ؟ ألا تعلمين ما سيفعله رجال إسماعيل بك بنا لو أثرنا مشكلة معهم

أمونة : أعلم بالتأكد ما سيحدث , و لكن أعلم أيضا أنك ذكي بما فيه الكفاية لتهرب و تترك رجال إسماعيل بك لسليمان و باقي العميان .

أحمد : و ما يضمن لي أنك ستفي بوعدك بعد هذا .

أمونة و هي تهمة بالرحيل : إنتظر رسول سيالك بموعه مقابلة مع أحد المماليك. فإن جاءك الرسول , إفعل ما قوله لك , و إن لم ياتيك أي رسول , لا تفعل أي شئ .

و ذهبت أمونة .

فناداها أحمد و قال : و ماذا ستستفني من هذا ؟

قالت أمونة و هي تمشي : لا دخل لك .

من أمام بيت العميان في الشنواني . سليمان مستلقي علي المصطبة , واضع جزء من رداءه علي وجهه , و أحت واقف عت فرسه ينظفه و العميان يتحركون يمينا و يسارا في اشغالهم .

و فجأة دخل احد العميان يركض و يصرخ : سليمان , سليمان , رجال إسماعيل بك يتهبون السوق في بولاق و يؤذون الماره من الرجال و النساء .

فنظر أحمد لسليمان و قال : إنها الفرصه الذهبية , فإن الناس ستحاول دفع هذا الاذي , فندخل و ننتظر التصادم بينهم و بين العسكر , و حينها نتهب ما يقف في طريقنا .

فصرخ سليمان : أيها العميان!!!!ان هيا بنا!!!!.

فدخل العميان السوق مترجلين و متفرقين , فوجدوا تجار السوق و الاهالي يحتشدون إستعدادا لصت جنود إسماعيل بك الذين يمشون في السوق بعضهم مترجلين و بعضهم علي الخيول . و المترجلين يسرقون الاشياء و يضعونها في الحقائب علي الخيول و يضربون الرجال او النساء المارين في الشارع او الواقفين أمام البيوت و الحوانيت .

فمر أحمد بجانب أحد الجنود و هو يضرب أحد النساء الواقفه بجانب زوجها المضروب و الملقي علي الارض . فأمسك أحمد الجندي و ضربه من رجله فاسقطه أرضاً , فهجم العساكر علي أحمد , فصرخ سليمان و هو ينظر لهذا المنظر : أيها العميان!!!!ان , أنقوا احمد .

إسماعيل بك مبتسما : أعرف أعرف , فأنت رجلنا , و نقرر مجهوداتك الإستخبارية أنت و رجالك , فمعلوماتك التي تعطينا إياها عن الشعب مفيدة وأغلبها صحيح .

سليم الأغا مبتسما : بالمناسبة , الذي أوقع بك هكذا مساعدك في العميان , المدعو أحمد .

فصدم سليمان : أحمد ؟ كيف ؟ لقد كاد يضحى بنفسه لينقذني .

فضحك الجميع ساخرين و قال إسماعيل بك : مغفل ...

قال سليم الأغا : أولا , هو الذي أصطنع الشبهة و الغيرة علي السيدة المضروبة كي يشعل الصدام , و الدليل أنه لم تبرز فيه الشبهة في أي موقف قبل ذلك و لم يدافع عن أي أحد في عمره .

سليمان : بالفعل . لقد إندهشت من تصرفه , و ظننت أن الشبهة إستيقظت فيه و بالتالي قلت لنفسى لابد أن استنهض الشبهة بداخلي و أثبت أنني أكثر شهامة منه.

سليم الأغا : نعم , كان يعلم مسبقا بإنذفاعك , فإصطنع كل هذا حتي تتهور وتفعل ما فعلت . ثانيا : عندما صرخ و هو يركض نحوك , كان متعمد للفت نظر الجنود حتي يطلقوا عليه و تصبح حجة شرعية أمامك للهروب , و لو كان صادقا لكان إنتظر حتي يذهب الجنود ثم جاء و أنقذك

سليمان : ربما إعتقد أنهم سيسحبوني لو إنتظر .

سليم الأغا : أنت كنت مصاب وسط المصابين , فلولا فعل أحمد , لما إستطاعوا تميزك من بين المصابين .

إسماعيل بك : وبهذا هو ورطك في هذا , و خلق لنفسه صورة بطولية يحمي نفسه بها أمامك في حالة خروجك من هنا .

سليمان : وما الذي سيستفيده بخيانتني ؟

سليم الأغا : إستفاد أنه إنضم لحرس محمد بك صاحب المدرسة المشهور . ولكن ما استغربناه أن محمد بك ليس بينك و بينه عداوه ليغري احمد بتعيينه في حرسه مقابل خيانتك . فعندما تحرينا في الأمر وجدنا أن زوجة محمد بك هي التي نصحته بتعين هذا الرجل في حرسه , و عندما سألها لماذا تتصحي بهذا الرجل قالت أن الشيخة أمونة خايفة الشيخ صادومة ترجتها تعين هذا الرجل المسكين في الحرس .

فنزلت هذه الكلمات علي سليمان كالصاعقة ,

فقال إسماعيل بك : نحن نعلم يا سليمان أنك وراء الواقعة بين الشيخ صادومة و يوسف بك بسبب غيرتك علي أمونة منه . و الآن أمونة ورطتك في صدام معنا إنتقاما منك . و العقل في هذه الحالة يقتضي أن نفتك لأنك جاسوس بدأت رائحتك تفوح بسبب صراعات الحب و الغرام . و لكننا سنتركك حيا لسبب واحد , هو أنك تحولت بطلا عند الناس بسبب شجاعتك في الوقوف ضد جنودنا , و بالتالي سيحتضنك الناس أكثر و يخرجون لك أسرارهم أكثر , بما فيها أماكن سلاحهم و أموالهم . حينها تأتي لنا و تخبرنا بكل كبيرة و صغيرة تعرفها . و إن لم تفعل ...

ونظر لسليم الأغا و قال : سنفتك .

ثم نظر لسليمان و طبطب علي خذه و هو يبتسم ثم رحل هو و من معه .

المولد النبوي , يميز من أمام بيت الشيخ السادات في حي الحسين المضاء بالقناديل من كل مكان مواكب المحتفلين المستمرة علي مدار ١٥ يوما بعضهم يحمل القناديل , و بعضهم يحمل الطبول يدقون عليها و بعضهم يحمل الزمامير يزمزون بها . و فجأة تتوقف مواكب الأحتفال , و تتجمع الجماهير علي جانبي الطريق لفتح طريق أمام موكب إسماعيل بك و سليم الأغا و كبار مساعديهم الذين يتقدمون بهوء إلي أن وصلوا لباب بيت الشيخ السادات الذي خرج علي الباب و معه باقي المشايخ ليستقبلوا المماليك القادمون .

فقال الشيخ السادات : يا مائة أهلا و سهلا يا سادتنا و أمرائنا .

فنزل إسماعيل بك و سليم الأغا و من معهم من علي خيولهم وقال إسماعيل بك : يا أهلا بك يا شيخنا .

فقال الشيخ السادات : تفضلوا تفضلوا .

قال إسماعيل بك : إنتظر يا شيخ , إقرأ هذا علي الناس .

و أعطاه ورقة , فأمسكها الشيخ و قرأ بصوت عالي علي الناس :

فرمان من الباب العالي بالأستانة

من السلطان المعظم المنصور بإذن المولي تعالي عبد المجيد الأول رضي الله عنه و وفقه لما فيه صالح البلاد و العباد إلي جميع المسلمين تحت رعاية جلالتة المعظم :

إن الموسقو(الروس) الكفار لعنهم الله غزو أجزاء كبيرة و من هامة من بلاد السلطان العثماني . و هؤلاء الكفار لا دين لهم و لا خلق و يرتكبون كل ما هو مشروع و غير مشروع في حرب جيوشنا . و لهذا تراجعت بعض جيوشنا أمامهم لجمع الكلمة و توحيد الصف للعودة لحربهم مرة أخرى .

و لذلك نأمر كل المسلمين أن ينكفؤا علي قراءة البخاري لينصر الله جيوش المسلمين المقاتلة . و علي والي كل قطر من الأقطار جمع ٣ مشايخ من كل المذاهب ليجتمعوا كل يوم و يقرأون البخاري في مقابل ١٥٠ قطعة فضية . و علي الوالي أمر كل المشايخ الدعوة للسلطان و جيوش المسلمين علي المنابر بعد كل صلاة جمعة , و علي المآذن بعد كل أذان , في مقابل ١٥٠ قطعة فضية أيضا .

ثم نظر إسماعيل بك للشيخ السادات و قال : هيا تفضل يا شيخنا .

فدخلوا و جلسوا فقال الشيخ عبدالله الشرقاوي لإسماعيل بك : ما مشكلة هؤلاء الموسقو ؟

إسماعيل بك : تولت عليهم إمبراطورة تدعي كاثارين الثانية ...

فذهل المشايخ و نظروا لبعضهم

إسماعيل بك : و هي امرأة ذات تطلع لتوسع إمبراطوريتها , فتحالت مع النمساويين للتوسع في الاراضي العثمانية .

فقال الشيخ السادات : و لماذا لا تنتصر جيوش السلطان عليهم , وهي جيوش جرارة وقوية ؟

فقال أحد الحاضرين : لانه لا إيمان لهم .

فنظر المشايخ مفزوعين للقائل و قام إسماعيل بك و الغضب علي وجهه قائلا : من هذا الوقح ؟

فقال المشايخ للقائل : عمر , إحترم نفسك .

فقام الشيخ عمر مكرم و هم بالرحيل و قال : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله

فهاجم إسماعيل بك علي الشيخ عمر مكرم و أمسكه من ملاپسه و قال : من أنت أيها الأبله ؟

فقام المشايخ يفصلون إسماعيل بك عن الشيخ عمر و قال الشيخ السادات : إعدرنا يا سني , فإنه من رجال الازهر المتعصبين قليلا , لكنه طيب القلب ورجل خير .

إسماعيل بك : رجل خير قليل الادب .

الشيخ السادات : إهده إهده يا سني ..

ثم نظر الشيخ السادات للشيخ عمر مكرم و قال : هيا أغرب وجهك من أمامه الان

فذهب الشيخ عمر مكرم و جلس إسماعيل بك و المشايخ يهدنونه . فتبع سليم الأغا عمر مكرم و أوقفه عند الباب و قال له : يا شيخ عمر .

فوقف الشيخ عمر مكرم و نظر لسليم و قال : نعم .

سليم الأغا : هل لي أن أجلس معك في أي وقت يناسبك ؟

الشيخ عمر مكرم : غدا بعد صلاة الفجر .

سليم الأغا : شكرا يا شيخنا .

ثم عاد سليم إلي المجلس فسمع إسماعيل بك يقول : الإنجليز يحاولون التحالف مع الخلافة , لكن الفرنسيون سبقوهم لإقامة العلاقات الوطيدة معنا . لكن سواء الإنجليز أو الفرنسيون لن يفيدونا عسكريا , فكلهما يتطاحنان , وكل واحد فيهما له منطقة يستولي عليها , الإنجليز يسيطرون تقريبا علي أمريكا القارة البعيدة و الفرنسيون يسيطرون علي جنوب أوروبا .

المشايع مصدومين و فاتحون أفواههم من الدهول , فقال سليم الأغا : أحقا أنتم لا تعرفون شيئا عن هذه الأخبار ؟

فإستفاق المشايخ من الصدمة , فقال سليم الأغا للشيخ السادات : أنت معك مراكب تأتي من الأسكندرية و رشيد , و المفترض أنك متصل بتجار الانجليز و الفرنسيين الذين يأتون بلادنا , فهل من المعقول أن رجالك لا يسألونهم عن أخبار الدنيا , و هل من المعقول أنك لا تسأل رجالك أو علي الأقل تأمر رجالك بجمع الاخبار ؟

فسكت الشيخ السادات و سكت الجميع و نظر المشايخ لبعضهم ثم إبتسموا لإسماعيل بك و سليم الأغا .

بعد صلاة الفجر , الشيخ عمر مكرم في الجامع يقرأ الأذكار بعد الصلاة فجاء سليم الأغا و جلس بجانبه .

الشيخ عمر مكرم : لم أتوقع أن تأتي .

فقال سليم : بالتأكيد لأنني من فسدة القوم .

فسكت الشيخ عمر مكرم .

سليم ينظر للشيخ عمر و علي وجهه علامات الجد : إسمع يا شيخ , أريد أن أتوب .

الشيخ عمر : التوبة بسيطة , فكل المطلوب منك رفع يدك لسماء و تخفض رأسك للأسفل و تغمض عينيك و تقول , اللهم إني عبدك و ابن عبدك و أنا علي عهدك و وعذك ما إستطعت , أبوء لك بشر ما صنعت , و أبوء لك بذنبي , فأغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

فتهلل وجه سليم و قال : هذا فقط .

الشيخ عمر مكرم : نعم .

سليم الأغا : بالتأكيد المسألة ليست بهذه البساطة , و إلا لدخل كل الناس الجنة.

فضحك الشيخ ضحكة بسيطة و قال : صحيح المسألة ليست بهذه البساطة .
التوبة نفسها هي البسيطة كما قلت لك , المشكلة فيما بعد التوبة .

سليم الأغا : و ما المشكلة بعد التوبة ؟

الشيخ : بعد أن يتوب العبد , يرسل الله إختبارات للتائب يسأله فيها , هل أنت صادقاً يا عبي ؟ فإذا تصرف العبد بشكل يجعله ينجح في الإختبارات , تاب الله عليه , و إذا لم ينجح , ظل الله غضباً عليه كأنه لم يتب .

سليم : و ما تلك الإختبارات ؟ و كيف أنجح فيها ؟

الشيخ : اول الإختبارات هو : هل ستتوقف عن الأمور الحرام التي تفعلها ؟
فالسارق , هل ستتوقف عن السرقة ؟ الزاني , هل ستتوقف عن الزنا ؟

سليم : ثم ؟

الشيخ : إذا نجح العبد في الإختبار الاول و هو الإختبار الاساسي , في الأغلب يرضي الله عنه , بعد ذلك يرسل الله إختبار علي كل ح من حدوده , فمثلاً السارق بعد ان يتوقف عن السرقة و ينجح في الإختبار الاول , سيرسل له إختبار الزنا ثم إختبار صلة الرحم ثم إختبار العدل بين الناس ثم إختبار العش

في الميزان , ثم اختبار كذا و اختبار كذا ... فإذا ظل ينجح في كل الاختبارات التي يمر بها يزيد رضا الله عنه درجة بعد درجة , و إذا إستمر هكذا طول حياته , بعد أن يموت يدخل الجنة.

سليم : حسنا , فماذا إذا كان العبد يرتكب كل المحرمات ؟

وإبتسم سليم بسمه خفيفة و قال : أنا مثلا ...

الشيخ عمر : نفس الشيء , سيختبرك الله في أكبر الذنوب التي ترتكبها , ثم الأقل فالأقل حتي تتخلص من كل الذنوب حينها يتوب الله عليك و يرضي عنك .

سليم : و ما هو أكبر الذنوب يا شيخ ؟

الشيخ : الظلم .

فهم سليم ليقوم , فقال الشيخ عمر : أريد أن أسألك سؤالا .

فقال سليم : تفضل .

الشيخ عمر : لماذا تريد ان تتوب ؟

فنزل السؤال علي سليم كضربة مطرقة و رجع فجلس مره أخرى و عينيه تحديق في الأرض : تعبت يا شيخ .

و بدأت الدموع تخرج من عينيه : صدقني يا شيخ أنا لم أستهوي أبدا طقوس الدين , الصلاة و الصيام , و أصعب شئ بالنسبة لي الزكاة . و كنت في شبابي أتصور أن الدين هو العائق الأول لأي شخص يريد الإنتصار في حياته . و بعد أن نجحت في كل شئ في حياتي و أصبحت من أهم الناس علي وجه أرض مصر , نظرت في حياتي و قلت , ماذا بعد يا سليم ؟ منصب و أخت , قوة و أخذت , مال و أخذت , شهرة و نفوذ .. شبع , نساء .. لم أترك إنثي يتكالب عليها عظام الرجال إلا و تزوجتها , زينة التي حفي خلفها كل المماليك منذ أن كبرت و ظهرت انوثتها إلي يومنا هذا , تزوجتها رغم عنها و عن كل رجال المماليك حتي و أنا أعرف أنها تكرهني .

ورفع رأسه لأعلي ربما يعيد دموعه داخل عينيه و تتوقف ثم نظر للشيخ و عينيه تهرب في كل الاتجاهات : بدأت أراجع نفسي و أعيد حساباتي , و بدأت أبحث عن الحقيقة يميناً و يساراً. فوجدت أشياء غريبة. بدأت ألاحظ بعض الناس الذين لا يمتلكون ربع ما أملاكه , مرتاحين جداً من داخلهم . بدأت أشعر و كأنهم يعيشون في جنان خاصه بهم . كل واحد فيهم يعيش في جنه , هذه الجنة ليست في قصر يعيش فيه أو مال و سلاح يملكه أو مجموعه من الرجال تحت أمره , لا , بل هذه الجنة بداخله , في صدره , تصحبه في أي مكان يذهبه. حتي أن بعض المساجين الذين سجنتم بيدي و جنتهم من هؤلاء السعاده . و كنت أستغرب , كيف لمسجون حياته مدمره و حياة اهله مجهولة و لا يملك أي أمل في الحياه , و مع ذلك إذا جلست معه و تكلمت معه , تجد أنه سعيد يعيش في جنة , و أري هذه الجنة في كلامه و نظراته . وليس هذا وحسب , لا بل يحاول أن يشدني في جنته و يسعدني مثل ما هو سعيد .

فبدأت الدموع تنزل من عيون الشيخ عمر و هو ينظر لسليم و قال :
وماذا بعد ؟

سليم و سيل الدموع لا يتوقف : راقبتهم , و حاولت أعرف ماذا يفعلون لكي يصلوا إلي هذه الجنان التي بداخلهم . و جئت أنهم يتسابقون للصلاة عندما يسمعون الأذان . و من كان مسجوناً منهم و لا يري الشمس , يراقب الوقت ويخمن مواعيد الصلاة ويقوم و يأذن لنفسه و ينتظر الإقامة مع نفسه و يقيم الصلاة لنفسه و يصلي مع نفسه . تجدهم يصومون كثيراً قبل و بعد رمضان , كأنهم يعتبرون ان الصيام شيء جميل يحبونه وليس مجرد فرضية تقضي في بعض الاوقات و ينتهي بعد ذلك . قيس علي هذا الزكاه و الصدقات و صلة الرحم بينهم و الصدق و الأمانة و الأخلاق الرفيعة . يعيشون طقوس الدين ليست كأنها فرائض , يعيشونها كأنها رحلات جميله في جنه واسعة مليئه بالسعاده .

فنظر الشيخ أمامه و وضع يده علي جبينه ليخفي دموعه و أكمل سليم : لقد تأكدت من أن حساباتي كانت خاطئه , و أنني ضيعت عمري بعيداً عن السعاده الحقيقيه , و ان هؤلاء البسطاء أنكي مني لأنهم عزفوا موضع السعاده منذ زمن طويل و أنا قضيت هذه السنين الطوال و لم أعرف ما عرفوه . لقد رأيته منكم يا شيخ بمجرد أن تكلمت البارحة مع إسماعيل بك . و كنت قد قررت قبل

أن أراك بأيام أني إذا رأيت واحدا من هؤلاء السعداء , سأذهب له و أقول له ,
و أطلب منه أن يتصدق علي ببعض ما عرفه الله به , و يدلني علي طريق
السعادة .

فقال الشيخ عمر : الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحكم كان
على راحلته بأرض قاحلة , فانفلتت منه , و عليها طعامه و شرابه فيأس منها
فأتى شجرة فجلس في ظلها - قد يأس من راحلته - فبينما هو كذلك إذا هو بها
قائمة عنده فأخذ بلجامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبيدي و إن ربك
..أخطأ من شدة الفرح .

ثم نظر لسليم و قال : إذا كان هذا قدر سعادة الله بتوبة العبد , فكيف تتصور
القدر الذي سيسعد الله هذا العبد به .

فألقي سليم نفسه في حضن الشيخ عمر و كلاهما لا يتوقفان من البكاء .

في سوق باب الشعرية , الحاج محمد المغربي جالس أمام حانوته و سليمان
الجوسقي داخل عليه .

الحاج محمد : تعالي يا سليمان , اجلس .

فجلس سليمان , فقال الحاج محمد : مالك يا ولدي , ما كل هذه الكأبة علي
وجهك ؟

سليمان : لا شئ .

الحاج محمد : حقا ؟

سليمان : ما قصة ذلك الصائغ النصراني الذي ذبحه أحد المماليك ؟ إن قصته
علي لسان الناس في كل مكان .

الحاج محمد : هذا المملوك يدعي حمزة . في ذات يوم ذهبت زوجة حمزة لهذا
الصائغ النصراني . و أشاع الناس أنه غازلها و هي ضحكت له و لم تصده
مما أوحى للناس أنهما علي علاقة . بالطبع طار عقل هذا المملوك عندما سمع
بهذا . فقبض علي الصائغ و نهب كل كبيرة و صغيرة من المجوهرات في

حانوته , و سجنه في داره و عذبه أشد ألوان العذاب . قلع عينيه وأسنانه وقطع أصابعه و أنفه و أذنيه و أطرافه إلي أن مات . أما الزوجة فكاد أن يقتلها إلا إنها هربت و سافرت للصعيد عند زوجة مراد بك الست نفيسة لتحميها .

فجأة دخل رجال إسماعيل بك و هجموا بخيولهم علي حانوت صغير , فقام الحاج محمد و هو يصرخ : أين البسطي ... أتركوه .

فأمسك سليمان بالحاج محمد ليمنعه من الذهاب ناحيتهم . و فجأة سمع الناس عيار ناري , فسقط ابن البسطي قتيلا علي الارض في اللحظات التي دخلت أمه لتحاول حمايته فإلتف الجنود ورحلوا وسط صرخات الأم و الناس علي جوانب الشارع يتفرجون .

فسقط الحاج محمد علي كرسيه مذهول يقول : لا حول و لا قوة إلا بالله , لا حول و لا قوة إلا بالله .

فجلس بجانبه سليمان و قال : من هذا الشاب يا حاج ؟

الحاج محمد : إنه شاب من أجمل ما تراه العين من الشباب , خلقه لا يوصف .

سليمان : و لماذا قتلوه ؟

الحاج محمد : لا أعلم يا ولدي . إنه لم يمر علي فتح حانوته أكثر من شهرين , و لكنه كان عصيبا و ذو رد فعل متهور , فتشاجر مع أحد المماليك كان يشتري منه لان هذا الخنزير كان لا يريد دفع ثمن ما أخذ . فمن المؤكد أن هؤلاء الكلاب أتباع هذا الخنزير .

سليمان : ما هذا , كل يوم في السوق تاجر يقتل , ما هذا الاجرام ؟

فإستلقي الحاج محمد علي كرسيه يائسا : حسبنا الله و نعم الوكيل , أين أيامك يا مراد بك ؟ مهما فعلوا من السرقات لم يقتلوا بهذه الوحشية .

فإبتسم سليمان : بالإضافة إلي ذلك أنك كنت شريك مساعده عبدالله المغربي .

فنظر الحاج محمد لسليمان ثم نظر للسماء : حسبنا الله و نعم الوكيل .

فظهر أمامهما الرجل المختل عقليا ذو الشعر و اللحية المجعدين و هو يصدر أصواتا مرعبة , فصرخ فيه الحاج محمد : هيا يا علي إرحل من هنا .

فصرخ الحاج محمد للأحد صبيانه و قال : يا و لك , يا و لك .

فجاء الصبي سريعا , فقال : نعم سيدي .

الحاج محمد : أبعد هذا الرجل عنا هيا .

فأمسك الصبي بعضا فضرب المجنون فأصدر صوتا مرعبا من ألامه و ابتعد عنهم .

فقال سليمان : من هذا المختل يا حاج ؟ لقد أمسك في قلمي يوما ولم يتركني إلا عندما ضربته هكذا , وأصدر نفس هذا الصوت المخيف .

الحاج محمد : إنه علي البكري , و هو مصاب بمرض في عقله يجعله مختلا كما تري . و كان يمشي عرينا بلا هاتان القماشتان اللتان تغطيان عورتيه , وبدأت الناس تخاف منه و تبتعد عن الشارع و إنخفض البيع بسببه . فاجتمعنا ذات يوم واستعينا أخوه يدعي سعيد البكري , و قد ألزماه بأن يسيطر علي أخيه وأن يكسبه , ولكن أخيه فقير لا يملك مالا , فكل الذي فعله هو أن يشتري قماشتين و ألقاهم علي عورة علي البكري هذا .

سليمان : و ما عمل سعيد هذا ؟

الحاج محمد : حرفي في أحد الورش .

سليمان : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

في إحدى ورش الأخشاب , يدخل أحد الصبيان الحرفين من الخارج و ينادي : سعيد , هناك ما يطلبك بالخارج .

فترك سعيد ذو الجسم الطويل و العريض منشاره و خرج و مر بجانب زميله الذي يناديه و قال له : من الذي يطلبني ؟

فقال زميله و هو يضحك بخبث : إنها تلك التركية الجميلة , أيها المحظوظ .

فخرج سعيد فوجد أمونة فوق فرسها , فقالت : أنت سعيد البكري ؟

قال سعيد : نعم ؟ من أنتي ؟

قالت : إسمي أمونة . كنت أريدك بعيدا عن هنا .

سعيد : ماذا تريدني ؟

أمونة : تعالي و ستعرف .

فمشي بعض الخطوات و ابتعد قليلا عن الورشه و أمونة تتبعه بالفرس .

أمونة : أخوك علي البكري ؟

فظهرت علامات الإستياء علي وجه سعيد : نعم , ماذا ؟ هل وقع في مصيبة مرة أخرى ؟

أمونة : ما قصته ؟

سعيد : لا أعلم , كبرنا فوجدته هكذا , و قد ذهبت به أمي لمشايخ و اطباء الشرق و الغرب و لم يعرفوا له حلا .

أمونة : و هل يسكن معك ؟

سعيد : هو لا يسكن في مكان , هو يهيم علي وجهه في الشوارع و حسب .

أمونة : و أنت أين تسكن ؟

سعيد : في الغورية .

أمونة : هل بيتك كبير ؟

سعيد : إنه بيت أمي . كان يضمني أنا و علي و ٣ أخوتي البنات , ولكنهن تزوجن وذهبن لبيوتهن . و علي كما ترين . و أمي ماتت .

أمونة : و هل لأخوتك نصيب في هذا البيت ؟

سعيد : تستطيعين القول أنني دفعت لهن أغلب نصيبهن . الباقي هو علي .

أمونة : و هل ..

فقاطعها سعيد و توقف عن المشي و نظر لأمونة : لماذا تسألين يا امرأة ؟

فتوقفت أمونة و نزلت من علي الفرس و وقفت أمام سعيد و قالت : إسمع , سأعقد معك إتفاقا .

فاستغرب سعيد و قال : إتفاق ؟

أمونة : سترك عملك في هذه الورشة , و سأعطيك راتبك كالذي كنت تأخذه فيها . و سأعطيك مالا إضافيا تصرفه علي أخيك من مأكّل و مشرب و ملبس و كل شئ , في مقابل أن تحبسه في غرفة في بيتك . و سأعطيك مالا تجد به بيتك لنحوه مزاراً لولي الله الصالح علي البكري الموصول بالأسياذ والأرواح . وإترك الباقي علي أنا .

سعيد مذهول : أخي مجنون , كيف سيكون موصولا بالله والأرواح والأسياذ؟

أمونة : سندعي ذلك يا سعيد .

سعيد : و ماذا سنستفيد من إدعاء ذلك ؟

أمونة : ستأثينا الناس من كل حنب و صوب يرجون رضا علي البكري الموصول بالأسياذ والأرواح , و في مقابل ذلك , سنطلب كل ما يملكون من مال و ذهب و فضة ليرضى عنهم و يدعي لهم و يطلب من الأسياذ العند .

يبتسم سعيد بخبث : و ماذا ستفعلن أنت ؟

أمونة : سأتزوجك .

سعيد و هو متفاجئ : موافق .

فصرخت أمونة وهي تهز رأسها : ماااااااااااااااا يا سيدي علي البكري
ماااااااااااااااا

فقال أحد الرجال المأجورين لسعيد : ألا تعلم أن أصوات هذه الصرخات بهذا الصوت المبحوح من رجل لا يعيش معنا ولا يشعر بنا إنما هو في ملكوت آخر . ألا تعلم أن هذا معناه أنه واصل ؟

فاجتمعت الجماهير في الشارع و تهافت الناس ليعرفوا ما يحدث . فقال أحد الناس : ماذا يحدث ؟

وقالت احد المجورات و هي تشير لسعيد : هذا الرجل لم يكن يعرف أن أخوه
و اصل بالأسناد .

فَقَالَتْ أَمُونَةُ بِصَوْتٍ عَالِيٍّ وَهِيَ تَهْزُ رَأْسَهَا : مَا أَأَلَدًا لِي يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الصَّالِحِينَ

فقال أحد السكان : من هذا الرجل المخيف ومن هذه التي تطلب المند؟

فقال أحد المأجورين : هذه الشيخة أمونة تلميذة الشيخ صادومة ، و قد جاثها في المنام و امرها بالبحث عن رجل بموصفات هذا الرجل الذي يقولون عنه مخيف يدعي علي البكري ، و قد طلبت مساعدتنا فعثرنا عليه ووجدنا أخوه بجانيه .

فقلت إحدى المجاورات : يعني هذا ذو الشعر المنكوش وأصل بالاسياد
والصالحين؟؟

فَقَالَتْ أَمُونَةُ بِصَوْتٍ عَالِيٍّ وَ هِيَ رَافِعَةٌ يَدَيْهَا وَ تَنْظُرُ لِلنَّاسِ بِقُوَّةٍ لِتَرَعِبَهُمْ :
كُنْتُ مَعَ صَادِقَةٍ لَيْلَهُ لَبِيلُهُ إِلَى أَنْ قُتِلَ ظُلْمًا . كَانَ وَرَعًا وَ مُوصُولًا ، وَ كَانَ
يَهْمُهُمْ دَائِمًا بِكَلَامٍ لَا أَفْهَمُ مِنْهُ إِلَّا اسْمَ عَلِيِّ الْبَكْرِ ، وَ لَمْ أَجِزْ عَلَى سِوَالِهِ عَنْ

فغضب الشيخ خليل البكري و هم ليتكلم , فأمسكه الشيخ العروسي وقال
للشيخ السادات : منذ متي و نحن نأخذ بالشائعات ؟

فإستاء الشيخ السادات و قال : إسمع يا شيخ , إذا كنا سنقضي باقي النهار في
تصديق و تكذيب الأخبار , فدع كل حي يذهب في حاله .

فهم الشيخ السادات بالرجوع لمكانه فقال الشيخ العروسي بصوت عالي
مهديدا : لا تنسي أني شيخ الأزهر و أستطيع فعل الكثير .

فقال الشيخ السادات بصوت أعلي : و نحن مشايخ الأزهر و نستطيع فعل أكثر
مما تستطيع فعله .

فقام الجماهير الجالسون أمام الشيخ عبدالله الشرفاوي و هجمو علي الشيخ
العروسي و من معه , فأشار لهم الشيخ السادات ليهدأوا فقال للشيخ
العروسي : أنت تعلم أن الشيخ خليل البكري يقيم السهرات في بيته مع
الحشاشين و الطبالين و المغنين . و هذا لا يتفق لا مع مبادئنا ولا قيم ديننا .
فقال الشيخ خليل : وما لك أنت و ما أفعل في بيتي ؟

فقال الشيخ السادات : وهل منعناك من فعل ما تريد , كل ما فعلناه هو أننا
تجنبناك .

فقال أحد الجماهير : و نحن الشوام و المغاربة سنتجنبك ولن نسمع لك مرة
أخري , ولا نريد رؤية وجهك أنت وشيخ الأزهر الفاسد هذا .
فجأة دخل أحد رجال الشيخ السادات يصرخ : يا شيخ , يا شيخ .

فنظر الجميع لصاحب الصوت الذي يركض نحوهم فقال الشيخ السادات : ماذا
يا ولدي , ماذا حدث ؟

وقف الرجل أمام الشيخ السادات ينهج و قال : إن الروس هجموا علي ثغر
دمياط و دمروا و خربوا كل شئ . و قد أخذوا ١٢ مركبا , نصفهم من
مراكبك , و قد كانوا سيأخذون كل المراكب و ينمرون دمياط عن بكرة أبيها ,

لولا وقفة رئيس الجمارك الشيخ محمد كريم الذي حاربهم و جعلهم يفرون بما
إستطاعوا يغموه .

فصدم الشيخ السادات و ضرب علي رأسه و وتراجع للخلف و وسقط مغشيا
عليه فإلتقطه الناس لكيلا يسقط علي الارض . فضحك الشيخ العروسي
والشيخ خليل البكري بخبث , فهجم الشوام و المغاربة و من معهم علي
الشيخ العروسي و من معه من المشايخ , فهربوا لخارج الجامع . فأغلق
الجماهير أبواب الجامع وظل الشيخ العروسي و من معه يهربون إلي أن
دخلوا أحد الشوارع الجانبية , فتحت بعض البيوت أبوابها و أختبئوا فيها . و
ظلوا علي هذا الوضع إلي المغرب .

بعد المغرب ذهب الشيخ العروسي و من معه إلي إسماعيل بك و دخلوا عليه

الشيخ العروسي وهو يتظاهر بالقهر و ظلم الناس له : سيدي إسماعيل ,
إلحقنا , إن الغوغاء دخلوا جامع الأزهر و تظاهروا فيه ضنك و ضت رجالك ,
و قد دخلت و المشايخ معي لنهأهم فطرّدونا , و كادوا يضربونا , لولا حماية
بعض الطيبين لنا .

إسماعيل بك بكل هدوء : حقا ؟

الشيخ العروسي و هو مصنوم : نعم .

إسماعيل بك : يعني الناس طردوك غضبا مني ؟

الشيخ العروسي : نعم .

إسماعيل بك : يعني لو أرسلت لهم الشيخ السادات الآن سيطرّدونه أيضا ؟

الشيخ العروسي مستغربا : لا أعرف .

إسماعيل بك : لا بل تعرف , سيرحبون به و بالشيخ الشرقاوي و الفيومي
و الصاوي , و سيطيعون أي كلمة يقولها هؤلاء المشايخ , حتي لو أمروهم
بالرضا عني .

ثم قام إسماعيل بك و مشي خطوات تجاه الشيخ العروسي : و ذلك لسبب بسيط جدا , أن الناس تنتظر لهم بإجلال و إحترام , أما أنت , فدائما تصاحب أشخاصا لا تحترمها الناس مثل هذا الذي بجنبك ..

وأشار للشيخ خليل البكري , ثم أكمل : هذا فضلا عن موافقك و تصرفاتك التي تحط من قدرك أمام الناس , و بالتالي مجرد رؤيتهم لك و لمن معك يثيرهم . و بالتأكيد الناس في كل الأحوال غير راضية عني , فثورتهم عليك دائما ما تتطور إلي الثورة علي . و بالتالي بكل بساطة أستطيع القول أنك السبب في إثارة الناس .

فدب الرعب في قلب الشيخ العروسي و من معه من المشايخ . ثم تظاهر بالإستياء و قال : حسنا , شكرا سيدي إسماعيل بك , شكرا شكرا .

وانسحب الشيخ العروسي و من معه و خرجوا من قصر إسماعيل بك والغضب يكاد يفجر وجوهم .

في بيت الشيخ السادات , الشيخ السادات مستلقي علي السرير مريض , و أهله يدخلون الغرفة و يقول أحدهم : تفضلي يا شيخة أمونة , تفضلي .

فدخلت الشيخة أمونة و معها كبيرة خداماتها بثينة و فتاة من المساعدات , فقال أحد الاهل للشيخ السادات : لقد جئناك بأفضل طبيبة و شيخة مباركة في القطر المصري كله , فلا يوجد أحد في القطر كله يستطيع العلاج مثلها و في نفس الوقت تخدم سيدي علي البكري الزجل المبارك , ولذلك كل الأمراء و المماليك و وجهاء القطر لابد أن يزروها و يتوددوا إليها سواء أصابهم مكروه أو لم يصيبهم .

فقالت للشيخة أمونة : سلمك الله يا شيخنا .

الشيخ السادات : سلمك الله يا ابنتي .

الشيخة أمونة : بماذا تشعر يا شيخ ؟

فبدات أمونة بهز جسدها يمينا و يسارا و قالت بصوت عالي : مـــــــــــــــــــــــــــــاداداداد يا
سيني الحسبيين , مـــــــــــــــــــــــــــــاداداداد يا سيني البنوييييييييني , مـــــــــــــــــــــــــــــاداداداد يا سيني علي
الكرى مـــــــــــــــــــــــــــــاداداد .

بعد اسبوعين . الشيخ السادات خارج من الجامع بعد صلاة الفجر , فإستوقفه الحاج محمد المغربي .

الرجل : السلام عليكم شيخنا السادات .

الشيخ : عليكم السلام .

الحاج محمد مبتسما : يبدو أن صحتك تحسنت يا شيخنا .

الشيخ : الحمد لله

الحاج محمد : شيخنا , كنت قد سمعت أن الروس سرقوا ٦ مراكب من مراكبك , وكانت هذه خسارة كبرى وكان تعبك الفترة الماضية بسببها ..

الشيخ : نعم صحيح , خسرت المراكب , و خسرت بضائعي التي تكسبت ولم أجد من يحملها لي للقاهرة و بعثها بالخسارة.

الحاج محمد : الشئخة أمونة بنت تاجرة القطن و الكتان كانت قد قالت لي أنها إشترت ٥ مراكب , و تريد تشغيلها في نقل البضائع , فما رأيك في أن تأخذها و تستخدمها في نقل بضائعك في مقابل جزء من ثمن البضائع .

الشيخ السادات : لا , قل لها أنني سأستاجر منها ال ٥ مراكب بمقابل مبلغ شهري معين نتفق عليه وفقا لأسعار إيجارات المراكب .

الحاج محمد : حسنا , إعتبرها موافقة و أنا سأقتنعهم بهذا .

الشيخ السادات : بارك الله فيك .

الحاج محمد : السلام عليكم .

الشيخ السادات : و عليكم السلام .

و ذهب كل واحد في إتجاهه . و بعد عدة أمتار بعيدا عن الجامع وقف الحاج محمد بجانب فرس عليه امرأة

فنظر للمرأة و قال : لقد إتفقت معه علي ما طلبتي يا أمونة . عرضت عليه بدايةً التقاسم في ثمن البضائع فرفض , فعرض علي إستئجار المراكب في مقابل مبلغ ثابت كل شهر . فوافقت

أمونة : وعلي أي أساس سيحدد المبلغ .

الحاج محمد : علي أساس قيم ايجارات المراكب المتعارف عليها هذه الفترة .

أمونة : حسنا . شكرا جزيلًا يا حاج محمد . بارك الله لك . السلام .

الحاج محمد : السلام .

في الجهة الأخرى , ذهب الشيخ السادات جهة الجامع الحسين و كان قد
إقترب شروق الشمس فوجد ركب من الناس قادمون من سفر بعيد واقفون
منتظرون أمام الجامع الحسين

فقال الشيخ بصوت عالي : يا أهلا و مرحبا بالشيخ محمد كريم الرجل المقاوم
البطل .

فتنحي الناس و خرج من بينهم الشيخ محمد كريم و سلم علي الشيخ السادات
وقال : أهلا بحفيد أبو بكر الصديق , الشيخ العلامة الكبير .

فقال الشيخ السادات : تفضل يا شيخ محمد تفضل , بيتي من هنا , تفضل .

فمشي الشيخ السادات بجانب الشيخ محمد كريم و قال : ماذا حدث يا شيخ
كريم؟ ما الذي جاء بهؤلاء الروس إلي بلادنا .

الشيخ محمد : و الله يا شيخنا الفاضل لا أعرف كل التفاصيل , لكن كل ما جمعته
من معلومات , جمعته من أحد كبار التجار الفرنسيين القدامي في الاسكندرية
يدعي "ماجلون" قال لي أن الروس و النمساويين أعلنوا الحرب علي الخلافة
العثمانية لعدة أسباب , الأسباب النظرية منها هي دعوة البابا لقتال المسلمين ,
ومساعدة الخلافة العثمانية للفرنسيين في غزو إيطاليا . و الأسباب العملية هي
أن الروس و النمساويون يريدون التوسع علي حساب الخلافة العثمانية .

الشيخ السادات : وما علاقة مصر بكل هذا ؟

الشيخ محمد كريم : مصر جزء من الخلافة العثمانية يا شيخ السادات .

الشيخ السادات : آه صحيح .

الشيخ محمد كريم : صحيح يا شيخنا , هل عين الأشراف عمر مكرم نقينا لهم ؟

الشيخ السادات : نعم

الشيخ محمد كريم : ألم يكن من المفترض أن يعينوا خليل البكري ؟ ألم يكن دوره في المنصب ؟

الشيخ السادات : الأشراف رأوه سئ الخلق و لا يلتزم بحدود الله .

الشيخ محمد كريم : علي كل الأحوال الشيخ عمر مكرم ذو سمعة مثل الذهب و رجل يحمل القرآن و العلم الصحيح في قلبه .

الشيخ السادات متجهما : نعم صحيح .

فأستغرب الشيخ محمد كريم من تعبيرات وجه الشيخ السادات : ماذا يا شيخنا , أهنأك مشكلة بينكما ؟

فأبتسم الشيخ السادات و قال : لا أبدا . إنه رجل ذو خلق و علم و كلنا نحبه .

فوصلا إلي باب البيت و قال الشيخ السادات : تفضل يا شيخ محمد , تفضلوا يا سادتنا الأفاضل .

سبتمبر عام ١٧٩٠

في بيت كبير ذو فناء كبير بالموسكى , يدخل الشيخ العروسي و معه الشيخ خليل البكري و بعض المشايخ في فناء الدار , و يستقبلهم العميان ليساعدوهم في النزول من علي خيولهم . و يخرج سليمان الجوسقي من باب الدار الكبير رافعا يده مقبلا عليهم ترحيبا بالمشايخ

سليمان : أهلا أهلا يا مشايخنا

فأقبل علي يد الشيخ العروسي و سلم عليه واضعا يد الشيخ بين يديه و قال : أهلا يا شيخ الأزهر , نورتنا

فنظر الشيخ العروسي للدار من أمامه و من حوله ثم نظر لسليمان و اقترب منه و همس في أذنه : ماشاء الله , يبدو أن موت الشيخ الشبراوي كان فتحة خير عليك يا سليمان

فابتسم سليمان و رد عليه هامسا : ماذا تقصد يا شيخ ؟

الشيخ العروسي : أقصد أن أموال العميان بدأت تصب في جيبيك , بالإضافة لبعض الأموال من إسماعيل بك

سليمان : أفضل يا شيخنا أن لا نتكلم عن أموال إسماعيل بك التي تصب في جيبيك كما تصب في جيبني .

فضحك الشيخ العروسي بصوت عالي و قال : مبارك عليك دارك الجديد يا شيخ سليمان , وسع الله عليك و علي كل العميان .

فقال سليمان : تفضل يا شيخنا تفضل , تفضلوا يا مشايخ تفضلوا .

فمشي الشيخ العروسي بجانب سليمان وهما متقدمان المشايخ , فقال سليمان مستغريا : ما الذي حدث معكم منذ أيام يا شيخ ؟ سمعت أن الناس في منطقة جامع الحسين ثارو , و دخلوا الجامع الأزهر و اعتصموا فيه , ما الذي حدث ؟

الشيخ العروسي و هو يصعد السلالم التي تسبق باب الدار الرئيسي بجانب سليمان : إنه أحمد سالم الجزار شيخ الدراويش البيومية المخبول .

سليمان عند الباب يقول للشيخ العروسي : تفضل يا شيخ تفضل , تفضلوا يا مشايخ .

فدخل الشيخ العروسي و المشايخ صالة الاستقبال الكبيرة فقال سليمان : من هنا يا أهل الخير , تفضلوا تفضلوا

فسبقهم سليمان لغرفة في يمين الصالة مجهزه لإستقبال الضيوف و فتح الباب وقال : تفضلوا يا أهل يا الخير .

فدخل المشايخ غرفة الضيوف و جلسوا علي كنب فخم مجهز للضيوف المهمين . فجلس الشيخ العروسي و جلس بجانبه المشايخ و أشار سليمان لأحد رجاله وقال له : إذهب و جهزوا المائدة .

فجلس سليمان علي كرسي مقابل المشايخ وقال للشيخ العروسي : ها يا شيخ العروسي أكل .

الشيخ العروسي : أحمد سالم الجزار لا يهدأ أبدا عن إثارة الناس ضد المماليك. عجيب أمره هذا الرجل .

سليمان : و ماذا حدث بعد ذلك ؟

الشيخ العروسي : ذهب إليه أحد مساعدي حسن بك يدعي أحمد الأغا و كسر عظامه .

سليمان : يا الله , مره ثانية؟؟ ألم يكسر حسن بك عظام هذا الرجل منذ ٥ سنوات , و ثار الناس حينها و إعتصموا في الجامع الازهر أيضا ؟ ألم يعتبر حسن بك و رجاله من ثورة أهل الحسين دفاعا عن أحمد سالم الجزار هذا ؟

الشيخ العروسي : يا سليمان حسن بك و كل المماليك لن يتغيروا أبدا . المفترض أن يعتبر أحمد سالم الجزار مما حدث له منذ ٥ سنوات .

سليمان : وعلي ماذا إنتهت هذه الأحداث ؟

الشيخ العروسي : ذهبت لإسماعيل بك لأشتكي تجمهر الناس من أفعال أحمد الأغا مع أحمد سالم الجزار , قال لي بعدم إهتمام : لا علاقة لي بهذا , إنه مساعد حسن بك , فإذهب لحسن بك و تفاهم معه .

سليمان : وهل ذهبت لحسن بك ؟

الشيخ العروسي : طبعاً , فماذا أفعل ؟ الناس متجمهرون في الأزهر وأنا مسؤول عن الأزهر , و لو حاولت الإقتراب منهم بدون تحرك مني تجاه المماليك سينبحونني .

سليمان : وماذا قال لك حسن بك ؟

الشيخ العروسي : إشتكيت له من أفعال مساعده أحمد الأغا و قلت له أن الناس تريد إقالة هذا الرجل . فقال لي أن هذا كله الأعب من إسماعيل بك ليطيح بزراله , وإذا أراد إسماعيل بك أن أقيل أحمد الأغا , فليقبل هو رضوان الأغا مساعده .

سليمان : الله , بالتأكيد لم يقبل إسماعيل بك رضوان الأغا , فبعد أن ذبح إسماعيل بك سليم الأغا بعد أن طلب الإستقالة و قال أنه تاب عن عمله مع المماليك , استعاض عنه برضوان الأغا و أصبح لا يستطيع الإستغناء عنه

الشيخ العروسي : بالضبط , و لكن مع ضغوط الجماهير إتفق إسماعيل بك مع حسن بك بإقالة أحمد الأغا و رضوان الأغا , و تعينهما في مناصب أقل في البنك .

سليمان : و هل هذا الناس ؟

الشيخ العروسي : نعم , خرجوا من الجامع مسرورين بهذه الإقالات , وشعروا بقدر المجهود الذي قمت به أنا و المشايخ في سبيل تحقيق هذا .

سليمان : الحمد لله . فأنا أسمع في كل مكان عن بطولة المشايخ في إقالة أحمد الأغا و رضوان الأغا .وأصبحت الناس أكثر ثقة في الشيخ العروسي .

الشيخ العروسي : صحيح .

سليمان : و هل صحيح أن الأشراف عينوا الشيخ عمر مكرم نقيباً لهم ؟

فأنفجر الشيخ خليل البكري : أرايت الفضيحة ؟ رجل كهذا لا مال له ولا وجاهه بين الناس وعلاقته بالماليك و التجار و الوجهاء سيئة , يعينه الأشراف نقيباً عليهم . بينما أنا الذي أملك كل هذا لا يعنوني

سليمان : أسمع أنه صاحب علم و دين و رجل جهاد وإقبال .

الشيخ العروسي : أوقفوا الكلام في هذا الموضوع من فضلكم , فهذه مشكلة لا حل لها , عينوه الأشراف نقيباً و إنتهينا , ولا فائدة من الكلام الآن

فاعتدل سليمان في كرسيه و تنهد و قال : أريد أن أعرف رأيك يا شيخ في هؤلاء الرجال و النساء الذين يتمسحون بالأولياء و قبور الصالحين و يدعون صلتهم بالأولياء و الأسياد و أنهم يستطيعون طلب شفاعتهم في شفاء الناس و زيادة أرزاقهم و الإصلاح بين الرجل و زوجته و هكذا .

الشيخ العروسي : بالطبع التواصل مع الأولياء و زيارة قبورهم و طلب المند من الصالحين , خير و بركة , و إقامة الموائد لهم و تقديم الصدقات في موالدهم أشياء تطرح البركة و تقرب الناس من رضا الله . لكن بعض النجاليين يغالون في هذه المسألة و يدعون أنهم يستطيعون التحكم في القدر و معرفة الغيب و أمور إختصها الله لنفسه , و بالتالي يدخلون في الشرك بالله عز و جل . و يقومون هؤلاء النجاليين بإستغلال جهل الناس و أخذ أموالهم مقابل هذا النجل .

سليمان : أسمع عن الشيخة أمونة ؟

الشيخ العروسي : بالتأكيد . هي دجالة من النجاليين .

سليمان : حسناً لماذا لا تخطب في الجمعة القادمة في الأزهر و في باقي الجوامع عن هذا الموضوع . فإني قد رأيت الناس موهومين بهؤلاء النجاليين لدرجة أنني سمعت أن الشيخ السادات عندما مرض بسبب خسارته المراكب التي سرقها الروس منه , جائوا له بالشيخة أمونة لعلاجها .

فأنتبه الشيخ العروسي بشده و ابتسم و نظر للشيخ خليل البكري الذي نظر له مبتسما . ثم نظر الشيخ العروسي لسليمان و قال : هل فعلا جاء الشيخ السادات بأمانة لعلاجة ؟

فأسترخي سليمان علي الكرسي مبتسما و قال : نعم . و بالطبع بعد ان إستعاد صحته و إستعاد خسارته إدعي أنه ببركته و بركة الشیخة أمانة المبروكه ببركة مقام الشيخ علي البكري .

الشيخ العروسي ضاحكا : ذاك المختل الذي قلبوه ولي من أولياء الله الصالحين و عملو له مقام بعد موته في بيت أخيه سعيد زوج أمانة ؟
سليمان : نعم .

فأستلقي الشيخ العروسي علي الكنبه وسط المشايخ و نظر لهم و ضحك و قال : لا تقلق يا شيخ سليمان , الجمعه القادمة عن أمانة و السادات

فأشار سليمان لرجاله فأحضروا أكياس من الأموال و وضعوها أمام المشايخ فقال سليمان : لا أريدها الجمعة القادمة فقط , بل أريدها الأربع جمع القادمه كلها , الشهر بأكمله لا أريد حديثا دينيا في مسجد من المساجد أو جامع من الجوامع إلا و يتكلم عن بدع النجل و الشیخة أمانة و شعوذتها

في بيت أم أمانة , الشیخة أمانة تنزل من الطابق العلوي علي السلالم و السيدة هوي و سعيد البكري و هم يرتدون أفخم الثياب منتظرين في صالة الاستقبال الكبيرة التي تتوسطها المبخرة الكبيرة و السيدة بثينة كبيرة الخدم واقفه في طرف الصالة .

أمونة : أهلا و سهلا , أهلا و سهلا .

السيدة هوي و هي تبسم : تحية كتحية الأغراب بالضبط

و نظرت لسعيد البكري : كأنها تريد أن تقول لنا قد إنتهت شراكتنا .

سعيد البكري يتجه غاضبا لأمانة التي نزلت من السلم ووقفت بجانب المبخرة : أصبح ما تقوله السيدة هوي .

أمونة بكل قوة : نعم .

سعيد بكل غضب مكتوم : لماذا ؟

أمونة : ليس الذنب ذنبي , الناس لم تعد تأتينا بسبب المشايخ الذين لا سيرة لهم إلا الشيخة أمونة و دجلها و شعوذتها .

السيدة هوي : لا , بل قل لي لأن إيجارات المراكب و مشاركتي للشيخ السادات والحاج محمد في تجارتهم أغنتكي و جعلتكي لا تحتاجين لأموال مقام البكري .

سعيد يلتفت لأمونة و يقول : مع أن مقام أخي وبيتي الذي حولته مزارا هو الذي جلب لك كل هذا المال الذي حولته للتجارة و المراكب .

السيدة هوي : و أنا الذي توسطت لها لتعمل عند الشيخ صادومة الذي علمها كل هذه الأساليب التي جمعت منها كل هذه الاموال .

أمونة : صحيح , كل كلامكم صحيح .

وإستدارت و إتجهت لكتبه بجانب السيدة بثينه و جلست و قالت : وأنت إغتيت و هي إغتت , وأصبحتم من أغني الناس في البلاد . والآن أريد الاعتزال , ما المشكله ؟ وأضيفوا فوق هذا أنني لم أتخذ هذا القرار فجأة , إنما هو بسبب هذه الهجمة الشرسة علي من كبار مشايخ الازهر .

السيدة هوي : أتعلمين من دفع الاموال لتحريك هذه الهجمة ؟

أمونة : أعرف .

سعيد البكري : سليمان الجوسقي , حبيبك القديم .

أمونة بكل هدوء : أولا سليمان لم يكن يوما حبيبي . ثانيا , أنت ليس لك الحق في محاسبتني فيمن أحب و من لا أحب , فأنت عمليا لست زوجي . زواجي بك لم يكن أكثر من صورة أمام الناس لتيسير مصالحنا . و ها قد إنتهي دورك . فلا أسمع صوتك بعد الآن . فضلا أنك لابد أن تطلقني الآن .

سعيد البكري : وهل تظنني مغفلا حتي أطلقك لتهنائي بتجارتك وأموالك ونحن نبكي علي ضياعنا

أمونة : صدقني الذنب ليس ذنبي . ليس ذنبي أن سليمان حرك المشايخ ضدي, وليس ذنبي أنك غبي أضعت كل أموالك في السكر والموجون ولم تحافظ علي أي منها بالإضافة أنك لم تهتم يوما في تعلم أي شئ مني لتحمي نفسك من يوم مثل هذا .

فقامت السيدة هوي وقالت : لا فائدة يا سعيد .

ثم نظرت لأمونة وقالت : لكن ضعي في إعتبارك أن غدرك بنا هذا لن يكون سهلا , فانا سابل قصاري جهدي لأن أجعل سعيد يتوكل المشايخ بان يفتوا له بعودتك لبنت الطاعة , وسابل قصاري جهدي لأجعل المماليك يسلبونك مراكبك و تجارتك

أمونة بإبتسامة : إفعلي ما شئت , فأولا أنا اخترت الشيخ السادات لأنه كبير البركية أكبر فروع في الأشراف , وأنت تعلمين أن هذا الرجل لا يقترب منه أحد , لأنه كبير بين مشايخ الأزهر , ولأنه كبير عند إسماعيل بك وأي أحد يتولي حكم مصر . لذلك , لا المشايخ سيصدرون فتوي بيت الطاعة ضد شريكة الشيخ السادات ولا المماليك سيستطيعون الإقتراب من تجارتي المزوجه بتجارة رجل كهذا , ناهيكي عن تجارتي مع الحاج المغربي نسيب الشيخ عبدالله الشرقاوي من كبار المشايخ مثل الشيخ السادات و في نفس الوقت شريك عبدالله المغربي ذراع مراد بك اليمين و هو الآن كبير الصعي

فنظرت السيدة هوي وسعيد البكري لأمونة بغضب و هما بالرحيل , فصرخت إحدى الخادومات من الطابق العلوي وقالت : سينتي سينتي , السيدة صفية لا تتنفس .

ففرغت أمونة وقامت و انطلقت للطابق الأعلى و خلفها السيدة هوي وخلفهما سعيد البكري , فنظرت السيدة بشئنا لأحد الخادومات بجانبها وهي تهم باللاحاق بهما وقالت لها : إذهبي بسرعة و نادي سليمان .

بعد نصف ساعة . دخل سليمان الجوسقي مفزوعا بيت أمونة فوجد السيدة هوي وسعيد البكري واقفين بجانب السلالم وأمونة علي السلالم تصرخ والسيدة بثينة تحاول إحتوائها , فبمجرد أن رأت سليمان جرت عليه وهي تصرخ و تبكي و دخلت في حضنه بقوة و أغرقت ملابس سليمان بالدموع التي تغطي وجهها و ضربت بكفها علي صدره وفي لحظة توقف الصراخ فجاء وسقطت أمونة من بين يده علي الأرض مغشيا عليها فنزل بسرعه للأمسك بها وحملها و صعد بها لغرفتها بالأعلي و همت بثينة للحاق به

سعيد ينادي علي السيدة بثينة : بثينة , بلغيتها عندما تفيق أني طلقته .

ورحل سعيد و السيدة هوي و صعدت السيدة بثينة خلف سليمان و أمونة .

عام ١٧٩١

فى بيت الشىخة أمونة , فى غرفتها أمام المرآه , تقف أمونة تتزين و تضع الكحل و تدخل عليها السيدة بثينة

أمونة : لماذا يا بثينة لم تخبريني بأن سليمان الجوسقي تزوج ؟ ألا تعلمين أنه أصبح من وجهاء البك ؟ ألا تعلمين أني أهتم جدا بمباركة مناسبات الوجهاء ؟
السيدة بثينة : ظننت أن الأمر ربما يكون محرجا لكي يا سيدتي .

تنظر أمونة لبثينة بغضب مكتوم : إنسي يا بثينة الماضي , إنسيه . وإعتبري سليمان مثله مثل باقي هؤلاء الخزائير وجهاء البك .

تهز السيدة بثينة رأسها : حسنا يا سيدتي .

أمونة : حسنا , خذي هذه الهدايا ..

وأشارت بعينها لصناديق بأحد زوايا الغرفة ثم أكلمت : و إبعثي بها لسليمان .
و اريكي أن تتزيني أنت و الفتيات الزاهبات معكي و تلبسن أفخر الشباب ,
أريده موكبا نساءيا لهدايا الشىخة أمونة , أريدك أنت و الفتيات ترفعن رؤسكن فخرا أمامه وأمام رجاله , مفهوم ؟

السيدة بثينة : مفهوم سيدتي

ثم نظرت السيدة بثينة لأمونة و هي تضع القرط في أذنها اليمين : ولكن إلي أين ستذهبين ؟

أمونة : إلي الشيخ السادات .

السيدة بثينة : و فيما يريذك الشيخ ؟

أمونة : لا أعرف , ولكنه بينو أمرا هاما .

السيدة بثينة : هل أتى معك ؟

أمونة : لا , إذهبي فقط فيما وكناك به .

السيدة بشينة : حسنا .

و خرجت من الغرفة , ولبست أمونة قرطها اليسار و قلاده علي رقبتها و كامل زينتها و وضعت شال علي رأسها و خرجت من الغرفة .

في أرض خلاء صحراء بجانب القلعة بعد صلاة العشاء , الشيخ السادات يقابل الشيخة أمونة يحيط بهما بعض رجاله و بعض رجال السيدة صفية أم أمونة

أمونة : خيراً يا شيخ ؟

الشيخ السادات : أريد إرسالك لأحد التجار الفرنسيين في الأسكندرية يدعي ماجلون .

أمونة : و هل يستحق هذا الأمر أن نتقابل في هذا المكان كالصوص ؟

الشيخ السادات : لابد أن لا نتقابل أمام الناس بعد الآن .

أمونة : و لما ؟

الشيخ السادات : ماجلون هذا أهم تاجر عند الفرنسيين و عنده من البضائع ما يمكن أن يدر علينا ربحاً أكثر مما جمعناه ٥ سنوات فائتة و لهذا تقتضي المصلحة أن نشتري منه بضائعه , و لكن المشكلة أن تعامل رجل أزهرى مثلي مع رجل كبير في الفرنسيين مثل ماجلون , سيسقط مقامي عند الناس . ولهذا كان لابد أن أختار مندوباً عني دون علم الناس . و قد اخترتك أنت لأنك لن تضرري كثيراً بمعرفة الناس بتعاملك معه , أما أنا فسأضرر كثيراً , وفي نفس الوقت لا يمكن أن أقابلني أمام الناس بعد ان يشاع عنكي تعاملكي مع ماجلون .

تبسم أمونة و تقول : لكن أكثر صراحة يا شيخ . أنت عنك عدة أسباب لتتهرب من مقابلتي أمام الناس , أول الأسباب هو ما قولته , والثاني وهو الأهم, أنك تضررت كثيراً من خطب مشايخ الأزهر عن قصة حضوري لبيتك

وأنت مريض لعلاجك , و بالتالي لا تريد مقابلتي أمام الناس لتحاول التقليل من حدة إنتقادات الناس لك .

الشيخ السادات : صحيح . فأنا في مأزق كبير منذ أن بدأت هجمة المشايخ علي من المنابر , فقد وصل الأمر إلي أن التجار بدأوا يتهربوا مني و بعضهم توقف عن بيع بضاعته له , مما أدي إلي خسائر كبيرة . و بضاعة ماجلون هذا هي التي ستعوضني .

أمونة : حسنا , كم نسبتني في هذه العملية ؟

فنظر الشيخ متعجبا و قال : ألا يكفيك إيجارات المراكب التي أدفعها لكي ونسبتك في التجارة التي شاركتي فيها ؟

أمونة : بالتأكيد لا يكفيني . إذا كنت تخاف علي سمعتك التي تضررت و تريد إنقاذها , فأنا أيضا سمعتي تضررت . و لكن أنا عندي ميزة , هو أنني لا أهتم بإنقاذها . و لا يعقل أن أترك هذه الميزة دون الإستفادة منها .

الشيخ السادات : منذ متي يا بنت صفية و انت بهذا الجشع ؟

فغضبت أمونة و قالت : منذ أن ضرب جنود حسن باشا أمي و تسببوا في شلها و انت و المشايخ كنتم تتوددون له و تدعونه للولائم . منذ أن منع النساء من الوقوف في حوائثهن و لم يفكر أحدكم بالوقوف ضد هذا القرار ...

ثم هدأت نفسها : لا داعي في تقليب صفحات الماضي يا شيخنا . ها , قل لي ما نسبتني في هذه التجارة مع ماجلون ؟

الشيخ السادات : العشر .

أمونة : لا , الربع .

الشيخ السادات مفزوعا : ماذا ... الربع ؟

أمونة بكل هدوء : إن لم يعجبك هذا إبحث عن غيري .

الشيخ السادات يتنهد و يقول : حسنا موافق .

في دار الشيخ سليمان الجوسقي . يقف سليمان في فناء البيت و خلفه بعض رجال العميان و السيدة بثينة و فتياتها داخلين الفناء راكبين علي الخيول المحملة بصناديق الهدايا و رؤوسهن مرفوعة في موكب يملئه التباهي , فتوقف الموكب أمام سليمان و نزلت السيدة بثينة من علي الفرس و نزلت بعدها الفتيات

السيدة بثينة لسليمان : ألن تأمر رجالك بحمل صناديق الهدايا , أم ستنتظر إلي أن تحملها الفتيات و رجالك واقفين ينظرون ؟

يبستم سليمان و يتقدم خطوات بإتجاهها و يشير لرجالها بحمل الصناديق و يقف أمام السيدة بثينة و يقول لها بصوت منخفض : عندي فضول لأعرف ما مغزي إرسال هذه الهدايا ؟

السيدة بثينة بصوت منخفض و غضب مكتوب و نظرات عدائية : كانت أملك فرصة ذهبية بعد أن طلقها سعيد بأن تطلبها للزواج , و لكنك بكل سذاجة و غباء ذهبت و تزوجت كأنك تقول لها لقد مات حبك و إنتهي .

سليمان بإبتسامة : هل تتصورين أنها كانت ستوافق علي طلبي بالزواج منها بعد أن أثرت عليها البك كلها و أضعت إسطورة الشیخة أمونة ؟

السيدة بثينة : كلامك صحيح قبل أن تموت أمها . لكنك رأيت بأم عينيك كيف قفرت في حضنك عندما ماتت السيدة صافية .

فطارت الإبتسامة من وجه سليمان , ثم أكملت و قالت : بعد أن تزوجت أمونة سعيد أصبحت لا تثق في حبها لك ولا حبك لها , ولهذا فضلت الهروب علي أن تجرب طلب الزواج بها .

فتوتر سليمان و نظر للسيدة بثينة كالطفل : نعم , كل تجارب الماضي معها لا تثبت أبدا أنها تحبني , و كذلك أنا , أنا لا أعلم فعلا أنا أحبها أو لا ؟ صحيح أنني أنهار أمامها , و إنهرت إنهاراً عظيماً عند علمي بزواجها من سعيد . ولكن كلما أتيت لي الفرصة للإقتراب منها , يسيطر علي أي نوع من أنواع

المشاعر بإستثناء الحب , فتجني مزة بالغيرة , ومره بالإنتقام ,
وبالتالي يزيد الشرخ بيني وبينها ...

ثم نظر يمنيا و يسارا و قال : صدقني الهروب أفضل من دخول تجربة
غير مؤكّد مشاعر أطرافها .

السيدة بثينة بإستياء تهمهم : مغفل .

فنظر لها سليمان بحدة , فتوترت السيدة بثينة و صرخت : هيا يا فتيات ,
إركبوا لنرحل .

فبعد أن ركبت بثينة قال سليمان ضاحكا لها بعد ان رجعت علامات القسوة
علي وجهه : إشكري سينتك علي الهدايا , وبلغها بأنها أول المدعويين في
عقبة المولود القادم بعد أشهر , فقد بلغوني أن حرمنا في شهورها الأولى في
الحمل .

فأبتسمت السيدة بثينة بكل قوة و قالت : لا تقلق سأبلغها , وسأكون أنا وهي
أول الحاضرين.

بعد أيام في الأسكندرية , في أحد البيوت الكبيرة الفخمة , تجلس الشيخة أمونة
علي احد الكراسي في قاعة إجتماعات ذات طاولة طويلة و الكراسي حولها
وبجانبها أحد رجالها و أمامها رجل عربي و بجانبه رجل من تجار الفرنسيين
يتكلم معه . في هذه الأثناء يدخل رجل يلبس لباس النبلاء الفرنسيين و يجلس
بجانب الرجل العربي الذي توقف عن الكلام مع التاجر الفرنسي و إنتبه ونظر
لأمونة .

قال النبيل الفرنسي و الرجل العربي يترجم : اهلا يا شيخة أمونة .

أمونة بإبتسامة و رهبة : اهلا بكم .

النبيل الفرنسي : أنا ماجلون كبير التجار الفرنسيين في مصر .

أمونة : أهلا بك .

ماجلون : أعلم أن الشيخ السادات أرسلك بخصوص البضائع التي طلب شرائها منا . ونحن لا نمانع في بيعها له .

أمونة : حسنا , هذا خير .

ماجلون : ولكن في الحقيقة هناك شيء حدث مع الشيخ السادات لابد أن تعرفه .

أمونة : وما هو ؟

ماجلون : لمدة بضعة أسابيع ماضية كانت هناك مراسلات بيننا وبين الشيخ السادات , وكان أغلبها عن البضائع والتجارة بيننا وبينه . وقد طلبنا منه أن تكوني أنت الوسيط التجاري بيننا وبينه . فاستغرب في البداية وأراد الإستفهام عن سبب إختيارنا لكي للقيام بهذا الدور , فأبلغناه عن أننا رأينا أن أغلب التجار الرجال سيطمعون وربما سيسرقون أجزاءً من البضائع , أما أنت فلدي تجارتك وإيجاراتك ولست بحاجة إلي السرقة والدخول في مشاكل .

أمونة : و هل إقتنع ؟

ماجلون : لا أعرف , المهم أنه وافق .

أمونة : ولكني لست مقتنعة بهذا السبب لإختياري .

ماجلون : في الحقيقة نحن إختارناكي لسببين .

أمونة : الأول ؟

ماجلون : أنك أخذتي قرار بالإعتزال عن عملك مع السيدة هوي وسعيد البركي . والثاني , هو معرفتك القوية بسليمان الجوسقي .

فغضبت أمونة وقامت ودفعت الكرسي للخلف و همت للخروج و تبعها مرافقها . فأغلق أتباع ماجلون باب القاعة وقام ماجلون و المترجم والتاجر الفرنسي ليهدنوها .

ماجلون : سيدة أمونة إهدأي من فضلك .

أمونة غاضبة : ما الذي تريده مني بالضبط ؟

ماجلون : حسنا سنقول لكي كل شيء , و لكن إجلسي و إهدأي .

فجلست أمونة في أقرب كرسي بجانب الباب و بجانبها مرافقها , وجلس
ماجلون بجانبها و خلفه المترجم و التاجر الفرنسي .

ماجلون : سليمان الجوسقي هو شيخ العميان , و هم مجموعه من الحرامية و
الشحاذين و الفواعليه و الخدم و قله من المغنين و المقرئين . و بالتالي هم
متصلون بالطبقات العليا في شعبيكم من خلال هؤلاء المغنين و المقرئين ,
ومتصلين بالطبقات المتوسطة من خلال الفواعليه و الخدم , و متصلين
بالطبقات الفقيرة من خلال الشحاذين و الحرامية , و بالتالي سليمان هذا متصل
تقريبا بالمراكز المهمه في مختلف طبقات الشعب و عنده أغلب اخبارهم .

أمونة في دهشة كبيرة : كيف علمت كل هذه المعلومات عني و عن سليمان
و عن الشيخ السادات . من أين تأتيكم هذه الأخبار ؟

ماجلون : لا نستطيع إخبارك بأسماء من يساعدونا في هذا , و لكن كل ما
نستطيع قوله لكي أن أغلبهم هم من نتعرف عليهم من خلال تجارتنا مثلك تماما

أمونة : وما المطلوب مني ؟

ماجلون : أن تأتينا بالأخبار التي عند سليمان فقط . و إن إستطعتي أن تجمعني
أخبار إضافية من غيره يكون خيرا أكبر .

فسكتت أمونة في دهشة , فأشار ماجلون لرجاله علي الباب بفتح الباب
و قال لأمونة : مقابل كل زيارة مثل هذه تأتينا فيها بكل الأخبار سنعطيك ألف
قطعة من الذهب .

فنظرت أمونة لماجلون باندھاش أكبر ثم نظرت لمرافقها الذي كان ينظر لها
بابتسامة فرحا بالعرض الذي سمعه . ثم قامت أمونة و رحلت .

بعد أيام في القاهرة في بيت الشیخة أمونة , بعد عودة الشیخة أمونة من
الأسكندرية , و هي تتناول الطعام و بجانبها السيدة بشیة

أمونة و هي تأكل : هل ذهبتى بالهدايا لسليمان ؟

السيدة بثينة في توتر : نعم .

أمونة : و لماذا أنت متوترة هكذا ؟

السيدة بثينة : لا شئ .

أمونة : و ماذا كان رده علي الهدايا ؟

السيدة بثينة : فرح كثيرا بها .

أمونة : ها , و بعد ؟

السيدة بثينة : لا شئ .

فتوقفت أمونة عن الطعام و غضبت : ما هذا ؟ هل ستذليلني من أجل أن تحكي ما حصل ؟ تكلمي بالتفاصيل و كفي عن هذا .

السيدة بثينة : دعاني أنا و أنت لعققة مولوده القادم بعد عدة أشهر .

فضحكت أمونة ضحكة تخلطها نغصات البكاء : وما المشكلة في أن تقول لي هذا ؟ شخص تزوج , من المؤكد أنه سينجب , ما المشكلة في هذا ؟

بعد دقيقة من الصمت , رمت أمونة الطعام من يدها و صرخت في مرافقها الذي كان معها في الأسكندرية : أنت ... تعالي معي .

و أخذت مرافقها و ذهبت لطاولة و كرسي في غرفة منفصلة للضيوف وقالت له : اجلس .

فصرخت أمونة : يااااا بثينة ... أنت أيتها العجرووووووز

فجاءت بثينة مهرولة و دخلت : نعم سيدتي .

أمونة : إنتتي بالريشة و دواة الحبر بسرعة .

فجرت السيدة بثينة وجاءت بالريشة و الحبر و وضعتها علي الطاولة أمام مرافقها و قالت أمونة : اكتب ما سأمليه عليك .

فنظرت أمونة للسيدة بثينة و قالت لها : هيا إذهبي لغرفتك .

فخرجت السيدة بثينة و أغلقت الباب , و بدأت أمونة تتمشي خطوات في الغرفة و هي تملي كلامها علي المرافق ليكتبه

أمونة : السيد ماجلون كبير تجار الفرنسيس , سمعنا منكم عرضكم بنقل أخبار الجماهير لكم أول بأول في مقابل ١٠٠٠ قطعة ذهبية في كل مجموعة أخبار هامة ننقلها لكم . و قد فرغنا من طلبكم في البناية . و لكن بعد أيام من التفكير , قررنا قبول عرضكم . و نريد تنبيهكم بأن سليمان الجوسقي لن يكون المصدر الوحيد للأخبار , فنحن لنا علاقات مميزة بعديد من وجهاء البك و كبار تجارها و بعض المشايخ الكبار , و سنبذل مجهودا لا بأس به في جمع تلك الأخبار . وشكرا .

أمونة تنظر للمرافق : غدا صباحا تأخذ هذا الكتاب و تذهب به لماجلون , وإذا لم يصله في غضون يومين , سأصليكَ عذابا لم تري مثله منذ أن ولدتك أمك .

بعد شهر في أحد البيوت الكبيرة البعيدة عن القاهرة في منطقة حلوان , تدخل أمونة مع مرافقها البيت فتجد ماجلون جالس بجوار رجل فرنسي يلبس لباس النبلاء الفرنسيين و المترجم العربي معهما .

فنظرت أمونة للرجل الفرنسي : ما هذا يا أيها الطبيب فيليب ؟ كل مرة كنت أبلغك أنت الأخبار و كنت تنقلها للسيد ماجلون , ما الجديد ؟

ماجلون و المترجم يترجم : سمعت أن إسماعيل بك و عدد من رجالة ماتوا والشيخ العروسي و عدد من المشايخ ماتوا , فكانت هذه الأخبار كفيلا بمجيبني بنفسي .

أمونة : نعم كل هؤلاء ماتوا في زمن متقارب جدا

ماجلون : ومن إستلم السلطة مكان إسماعيل بك ؟ ومن إستلم مثنخة الأزهر بعد العروسي ؟

أمونة : بالنسبة لمثنخة الأزهر فإستلمها الشيخ عبد الله الشرقاوي , وبالنسبة للسلطة , فأتباع مراد بك وإبراهيم بك يجهزون لعودتهم .

ماجلون : هل هذا فعلا بسبب الطاعون فقط ؟ ألم تقم أي إشتباكات بالسلاح أدت لهذا ؟

أمونة : نعم بسبب الطاعون فقط .

ماجلون : حسنا , إذا كان السبب الطاعون , فلماذا مراد بك وإبراهيم بك عائدون إلي القاهرة ؟

أمونة : في الحقيقة لا أعرف تحديدا , ولكن كل ما سمعته عن عودتهم , هو أنهم يريدون إعادة إمبراطوريتهم التي كانت موجودة قبل أن يأتيهم حسن باشا .

ماجلون : ألا يخافون الطاعون ؟

أمونة : هؤلاء عقولهم ضعيفة , لا تستوعب حجم كارثة الطاعون , ربما يتصورون أنهم بإغلاق أبواب قصورهم عليهم لن يصلهم الطاعون .

ماجلون : وهل سيستك الشعب علي عودتهم ؟ فأنا أظن أنه بعد موت إسماعيل بك ومازال إبراهيم بك ومراد بك لم يصلوا من الصعب وحالة فراغ السلطة القائمة سيستغل المصريون هذه الحالة و يمنعون المماليك من الوصول للحكم مجددا ويوصلون أحدا منهم للحكم ليستنهض همم الناس ويظهر بلادهم من المماليك

فضحكت أمونة و الطبيب فيليب وقالت أمونة : عن أي أناس تتحدث أيها السيد ؟ هل تظن أن المصريون يفكرون في أن يتخلصوا من حكم هذا و يمنعوا هذا من الوصول للحكم و يصارعوا لوصول هذا للحكم , و كل هذا الهراء ؟ سأقول لك فيما يفكر المصريون . ٣ أشياء يقومون نهارهم و يبيتون ليلاهم عليها , الاولى : الامان علي ارواحهم , الثانية : الامان علي احتياجاتهم

الاساسية مثل مأكلمهم و مشربهم و مساكنهم و تجارتهم , و ثالثا : استمالة عواطفهم , واكثر ما يستميل عواطفهم هو " المظاهر الدينية " المتمثلة في مشايخهم ومساجدهم و مقامات اوليائهم و طقوسهم الدينية مثل الموائد و الاعياد و شهر رمضان و الحج و هكذا .

فابتسم ماجلون و ألقي ظهره للوراء و رفع يديه مستعجبا : إذا ما هذه الثورات التي نسمع عنها ؟ فقد جائتني معلومات بأن الفقراء في منطقة الأزهر ثاروا في عام ١٧٨٤ ثم ثاروا مرة أخرى بعدها بعام في ١٧٨٥ , وكذلك أهل منطقة الجامع الحسين , ثاروا في ١٧٨٥ ثم بعدها ب ٥ أعوام في ١٧٩٠ . ما هذا كله إذا ؟

أمونة : حسنا , قل لي إذا علي ماذا إنتهت هذه الثورات ؟ هل سمعت عن قتل أو هروب مراد بك أو إبراهيم بك خارج القطر المصري هربا من الثوار ؟ هل سمعت عن محاكمة إسماعيل بك مثلا ؟ يا سيدي هذا الشعب مستكين و ضعيف إلي درجة أن الظلمة من كل الأجناس و الملل يتعاقبون عليه كما يتعاقب عليه فصول السنة .

ثم قامت أمونة و همت بالرحيل و قالت : **والأن هل تريدون مني شئ آخر .**

فأخرج الطبيب فيلب كيسا من النقود و قدمه لأمونة و قال لها : **شكرا علي تعاونك .**

فأخذت أمونة كيس النقود و ذهبت .

بعد أسابيع في بيت الشیخة أمونة , منتصف الليل , الباب يطرق بقوة والخادامات قمن مفزوعات من طرق الباب علي رأسهم السيدة بثينة .
والشیخة أمونة تخرج من باب غرفتها و تنادي من الطابق العلوي : ما الذي يحدث ؟

السيدة بثينة تقترب من الباب و تقول : من الطارق ؟

الطارق بصوت ينتفض من الرعب : أنا سليمان يا بثينة , أفتحي الباب أرجوكي .

فنظرت بشينة لأمونة فهزت أمونة رأسها بالموافقه علي فتح الباب , ففتحت بشينة الباب , فدخل سليمان يحمل طفلا علي يديه و وجهه يملأه العرق والأحمرار من الركض , أما أنفاسه فلا يكاد يلطقتها , وينظر للطابق العلوي لأمونة ويقول : أمونة أرجوكي أنقذي إبني .

فصعقت أمونة من الموقف و إرتبكت أشد إرتباك و دخلت غرفتها و أخذت شال و ضعته علي رأسها و نزلت علي السلالم مسرعه و البكاء و الفزع يتصارعان علي ملامح وجهها و إنطلقت نحو الباب و تبعها سليمان و علي يده إبنه و قالت : تعالي يا سليمان معي .

فصرخت بشينه : سأتي معكم .

فقال أمونة : هيا .

في بيت الطبيب فليب في حلوان , سليمان منهار من الزعب علي ولده جالس بجانب أمونة التي تصارع دموعها لتتوقف و بجانبها السيدة بشينه التي تبكي علي الطفل و أمامهم الطبيب فليب يمسح بالماء البارد علي جسم الطفل ليخفض من درجة حرارته ثم يصب له الدواء في فمه

سليمان : لا تقل لي أيها الطبيب أنه الطاعون ؟

أمونة : لا قدر الله يا رجل

فالتفت لهم الطبيب فليب و قال و المترجم يترجم لهم : سنفعل ما باستطاعتنا والباقي للقر , كل ما أريده منكم أن تذهبوا لبيوتكم لأنه ربما يحتاج إلي عدة أيام ليتعافي .

أمونة : لا أيها الطبيب سنظل بجانب الطفل إلي أن يتعافي .

فابتسم الطبيب إبتسامة المواساه : أقدر مشاعر الأم في مرض كهذا , ولكن لا فائدة فعلا من الإنتظار .

فنظر سليمان و بشينة لأمونة , ثم نظر سليمان للطبيب : لن نبرح مكاننا إلا أن نأخذه متعافي أو جثه , لكن لن نخرج من هنا بنونه .

الطبيب : حسنا , سياخذكم مساعدي لغرفة الضيوف لتقضوا فيها الوقت إلي أن يحدث جديد .

بعد يومين , سليمان يضحك مع أمونة و بشينه تقوم من جانبيهما و تقول :
حسنا , بما أن الوك تعافي و إنتهت فترة النقاهة أيضا سأذهب الآن وأحضره لنذهب لبيوتنا .

أمونة و سليمان : حسنا يا بشينه .

سليمان ينظر لأمونة : كم أنا ممتن لكي يا أمونة , لولاك بعد فضل الله لكان مات هذا الوك .

أمونة تبسم له و عينيها تهرب في كل الإتجاهات : الحمد لله علي نجاته .

سليمان : و لكن لماذا لم تعالجه أنت ؟ أنا أعرف عنك أنك علي دراية كبيرة بهذه الأمور !!

أمونة : لم أستطع أن أفعل ذلك .

سليمان مستعجبا : لماذا ؟

أمونة في حزن : شعرته إبني .

فطارت علامات الضحك و السرور من علي وجهه سليمان وقال : ماذا تقولين؟

أمونة : كما قلت لك , شعرته إبني .

سليمان : و هل تشعرين بكل الأطفال أنهم أولادك ؟

أمونة : بالتأكيد لا .

سليمان : هل تريدن أن تلمحي أنك تشعرين أن أمه وأنكي ...

أمونة تستعيد قوتها و تقول : نعم , كنت أتمني ذلك , كنت أتمني أن أكون أمه وأن أكون ..

سليمان و مشاعر الغضب و الفرحة و الحزن يعتصرون وجهه : هل تقولين هذا الآن ؟

تشير أمونة بإصبعها لسليمان و تحديق به بقوة و تقول : لا تحاول إتهامي بأنني أنا فقط الذي ضيعت الفرص .

سليمان : من الذي أضاع أول فرصة ؟

أمونة : أمي

سليمان : اااه قللي لي أنه لم يكن بإستطاعتك إقناعها ؟

أمونة : و من الذي أضاع أهم فرصة ؟

سليمان : و متي كانت تلك الفرصة ؟

أمونة : عندما أصيبت أمي بالشلل , و بدأت عملي مع صادومة , فبلا من أن تستغل هذا الوضع و تطلبني للزواج و كانت كل الظروف مواتية أمامك , لا , ذهبت و قتله . قتلت مصدر رزقي الوحيد حينها .

سليمان فاتحا فاه : حقا ؟

أمونة تهز رأسها مبتسماً : دائماً غبي .

سليمان : ماذا تقصدين ؟

أمونة : اقصد أن ها نحن ذا في ثاني فرصة ذهبية لأن تعوض ما فاتك .

تدخل بشينة و علي كتفها ابن سليمان و تقول : يعني تطلبها للزواج أيها الرجل .

فأحمر وجه أمونة و إتجهت نحو الباب و أمسكت ببثينه و قالت : هيا هيا .
سينظل سنة حتي يفهم .

فخرجتا و ظل سليمان متسمرا مكانه فاتحا فاه .

عام ١٧٩٥ قبل الإحتلال الفرنسي ب ٣ سنوات

بعد صلاة الظهر , و الناس خارجون من أبواب الجامع الأزهر ,
إستوقف الحاج محمد المغربي الشيخ عبد الله الشرقاوي و هو خارج من أبواب
الجامع ومعه الشيخ السادات و سليمان المنوفي و مصطفى الصاوي

الحاج محمد : إنتظر يا شيخ عبد الله , فهناك أمر جلل .

فأستغرب الشيخ الشرقاوي : ماذا هناك يا بني ؟

الحاج محمد : إنتظر فهؤلاء سيشرحون لك .

وأشار الحاج محمد لوف من بلبيس من الشرقية بك الشيخ الشرقاوي

فوصل الوف أمام الشيخ الشرقاوي فقال كبيرهم : سلام عليك يا شيخ عبد الله .

الشيخ الشرقاوي : سلام الله عليكم يا أهل بلدي , بينو أن هناك أمر فيه شر ,
ما الأمر ؟

كبير الوف : إن محمد بك الألفي وزير مراد بك و إبراهيم بك جاء عندنا في
بلبيس وعاث في الأرض فسادا , كانه ينتقم من الناس , و بعد أن سرق و نهب
كل ما لدي الناس , فرض عليهم فزده لا يطيقها الميسور منا قبل المعسور ,
فجئناك لتجد لنا حلا , فأنت ابن بلبيس و الآن أنت شيخ الأزهر ,
وتستطيع إسترجاع حقنا .

فأستشاط الشيخ الشرقاوي غضبا علي غير عادته و هدونه وقال : هذا
الخزير لعنة الله عليه و علي أمثاله .

**فهم الشيخ الشرقاوي لينا في الناس ليحشدهم , فأمسك الشيخ السادات
والشيخ الفيومي بالشيخ الشرقاوي و قال الشيخ الفيومي :** الصبر يا شيخ
عبد الله , فلنذهب لمراد بك و إبراهيم بك قيل أن نحشد الناس , حتي لا يتهمونا
بأننا نشير الناس قبل رفع شكوانا لهم .

فقال الشيخ السادات : صدقت يا شيخ الفيومي .

فقال الحاج محمد مستغربا : و هل تنتظران من هذان الظالمين أن ينصفوكم علي وزيرهما الظالم ؟ ما بكم يا سادة ؟ إن مراد بك و إبراهيم بك يعيثون في الأرض الفساد أكثر من محمد بك الألفي , فكيف سينصرونكم عليه ؟

الشيخ الفيومي : حسنا , إذا لم يستجبان سنأتي هنا و نحشد الناس وسندعوهم للاعتصام و هكذا . لكن لابد من أن نعمل الذي علينا أولا .

الشيخ الشرقاوي : حسنا يا سادة , لن يضيرنا أن نحاول معهما أولا . هيا بنا .

بعد ساعات , عاد الشيخ الشرقاوي و خلفه المشايخ في منتهي الغضب للجامع الأزهر , فدخل الشيخ الشرقاوي الجامع متوجها للمنبر و خلفه جمهور من الناس علي رأسهم الحاج محمد و وفد بلبيس و إثنين من المشايخ واقفين عند أبواب الجامع يكبران لحشد الناس , و ظلوا هكذا نصف ساعة حتي إكتظ الجامع الأزهر عن بكرة أبيه

الشيخ الشرقاوي من علي المنبر : يا أيها الناس , بعد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين , إن وفداً من بلبيس أتانا مستجذنا بشيوخ الأزهر علي ظلم محمد بك الألفي . ذلك الرجل الذي عاث في الأرض خرابا وسرق و نهب الناس وفرض عليهم فردة لا يطيقها الغني من الناس ولا الفقير . و قد ذهبنا قبل أن نحشدكم لمراد بك و إبراهيم بك نشكي لهم ظلم وزيرهم لم يعطونا وجهاً و أهملوا شكوانا . فالأن يا أهل الإسلام و الشهامة والمروءة , دعونا نوصل صوتنا بكل قوة لهؤلاء , دعونا نقول لهم بأصوات تصرعهم بأننا لن نسكت علي الظلم و الفساد في الأرض . فكبروا معي ,

الله أكبر ...

فردد الحشود : الله أكبر .

فردها مره أخري الشيخ : الله أكبر .

فصرخ الناس وراءه : الله أكبر .

فأغلقت الحشود أبواب الجامع و صعدوا علي أسواره و مأذنه , و هلّوا
وكبروا و شتموا المماليك و إنطلقت الهتافات من قلب الإعتصامات داخل
الجامع .

في اليوم التالي , إستقظ الناس علي الأسواق كلها مغلقة وأصوات التهليل
والتكبير تكاد تخلع أسوار المدينة بعدما خرجت الحشود في مظاهرات في
الشوارع المحيطة بالجامع الأزهر و جامع الحسين . وبينهم الشيخ الشرقاوي
والسادات و باقي المشايخ و الوجهاء و التجار و مختلف طوائف الشعب.

فدخل بين الحشود مجموعه من مساعدين إبراهيم بك وتوغّلوا إلي أن وصلوا
أمام الشيخ الشرقاوي والسادات

قال الشيخ الشرقاوي لقائد مساعدين إبراهيم بك : من أنت ؟

القائد بكل غرور : أنا أيوب بك .

الشيخ السادات : ماذا تريد ؟

أيوب بك : أنا الذي أسألكم هذا السؤال , ماذا تريدون ؟

الشيخ الشرقاوي بغضب : نريد العدل و رفع الظلم و إقامة الشرع و إبطال
البدع التي إختزعتوها لنا .

أيوب بك بكل إستياء و إستعلاء : لا يمكن إجابة كل هذه الطلبات , فإننا لو
ألغينا هذه البدع و أقمنا الشرع كما تريدونه ستضيّق علينا المعاش و النفقات .

الشيخ السادات بصوت عالي : هذا ليس بعذر عند الله و لا عند الناس ,
وما الباعث علي الإكثار من نفقات المماليك . فإن الأمير يكون أميرا بإعطاء
الناس و ليس الأخذ منهم

أيوب بك : حسنا حسنا , سأبلغ إبراهيم بك .

وذهب عاندا . ورجع المتظاهرون مع المشايخ لجامع الأزهر و إعتصموا فيه
وقضوا يومهم و باتوا فيه.

فى اليوم التالى . عاد أيوب بك ووجهه متغير يستعطف المشايخ ويسترضيهم

أيوب بك : يا مشايخنا الكرام , إن إبراهيم بك يبلغكم أنه معكم , وأن كل ما حصل لم يكن بموافقة منه , و كان دائما ما كان يحذرهم بعدم الإفراط حتي لا تغضبوا . وقد أرسلني إبراهيم بك لمراد بك أحذره من العواقب الوخيمة لما يحصل , فأمرني أن أبلغكم أنه سيجيب كل مطالبكم و يطلب منكم أن يأتي معي أربع مشايخ حندهم بالأسم ليفاوضهم .

الشيخ الفيومي : قل من هم .

أيوب بك : الشيخ الشرقاوي , الشيخ السادات , الشيخ البكري , الشيخ عمر مكرم .

فتجهم وجوه المشايخ و قال الشيخ الشرقاوي : و لماذا يريد عمر مكرم ؟
أيوب بك : لا أعرف .

الشيخ السادات : ولماذا يريد هذا الفاسد البكري ؟

أيوب بك : صدقوني أن ما قلته هو ما حدث و لا أعرف أي شئ أكثر من هذا .

الشيخ الفيومي للشيخ الشرقاوي : يا شيخنا , إذا كان الأمر سيحل بمجرد أن تذهبوا أنتم الأربعة عندهم , فافعلوا , فليس المهم إذا كان عمر مكرم سيذهب أو الشيخ البكري , المهم أن تنتهي هذه الأزمة .

فتحرك أيوب بك و تحرك خلفه الشيخ الشرقاوي و الشيخ السادات

فقال الحاج محمد : نذهب معكم يا شيخ الشرقاوي لنكون في ظهوركم

فقال الشيخ الشرقاوي : لا يا ولدي , لا نحتاج لهذا . فقط أرسل للشيخ البكري وعمر مكرم .

في قصر مراد بك . مراد بك و إبراهيم بك جالسان علي رأس قاعة الضيوف
وبجانبهم قاضي البلد و علي الجانب الأيمن المماليك و أيوب بك علي رأسهم
، وعلي الجانب الأيسر الأربعة مشايخ جالسين .

فقام مراد بك و إبراهيم بك و قالا بصوت واحد بعد أن رفعأ أيدهما اليمنى
للحلف بالله : نقسم بالله العظيم أن نرفع المظالم عن الناس و نتعهد بكبح أتباعنا
عن الوقوع في أي ظلم لأي أحد في أي مكان .

فابتسم الشيخ البكري و نظر للشيخين الشرقاوي و السادات الغير مبتسمان ،
فقال الشيخ الشرقاوي : وما يضمن لنا ذلك ؟

الشيخ عمر مكرم : وهل أرضاك هذا القسم حتي تبحث عن الضمان ؟

مراد بك غاضبا للشيخ عمر : وماذا تريد فوق هذا ؟

فقام الشيخ عمر مكرم والشرار يتطاير من عينه ، ففزع مراد بك وإبراهيم بك
والمشايخ وكل الجالسين ، وتراجع مراد بك إلي أن سقط من علي كرسية

الشيخ عمر مكرم صارخا : أتظننا أطفالا تضحك عليهم بتمره يا هذا ؟ إعرف
مقامك يا هذا وإعرف مقام المشايخ .

إبراهيم بك يهدأ الشيخ عمر مكرم و هو يبتسم : إهدأ يا شيخنا وشيخ السادة
الأشراف الكرام ، إهدأ إهدأ .

وحاول وضع يده علي ذراعي الشيخ عمر ليهدأه فصرخ فيه الشيخ وقال :
أبعد يدك النجستين عني .

فطأطأ إبراهيم بك رأسه و تراجع للوراء إلي أن جلس علي الكرسي

فنظر الشيخ عمر للقاضي وقال : أكتب يا هذا ..

فقال عمر مكرم بصوته كالجبال : المطلب الأول : تدفعون ٧٥٠ كيسا من
الأموال تعوضوا بهم من سرقتموهم في بلبيس ..

فمشي الشيخ عمر خطوات باتجاه القاضي وقال : **المطلب الثاني** : ترسلوا الغلال لبلاد الحرمين التي كنتم قد قطعتموها بظلمكم ..

ثم إستدار تجاه المشايخ وقال وهو يمشي خطوات : **المطلب الثالث** : صرف الغلال و الزواجب التي كنتم قد قطعتموها عن الناس ..

ثم عاد و نظر لمراد بك وإبراهيم بك اللذان يرتجفان رعبا : **المطلب الرابع** : إغلاق ديوان بولاق الذي أشبع الناس ظلما .. **والمطلب الخامس** : لا تظلمون الناس أنتم ولا أتباعكم ولا نسمع يوما من الأيام أن أحدا من جهتم ظلم أحدا من العامة لأي سبب .

فقال إبراهيم بك مرعوبا : كل هذا سنوافق عليه , لكن إغلاق ديوان بولاق صعب جدا , فهو الذي نجم من خلاله رواتب موظفينا وموظفين السلطان .

فقام الشيخ الشرقاوي و الشيخ السادات يتسمنون و يسترضون الشيخ عمر مكرم , فقال الشيخ الشرقاوي : حسنا يا عمر , هذا عدل والرجل وافق علي مطالبنا كلها كما تري .

وقال الشيخ السادات : لا تزيد النار إشتعالا يا عمر وإهدأ وهذا الوضع بين الناس .

فنظر لهم الشيخ عمر بإستياء ثم نظر للقاضي وقال : هل سجلت هذا ؟

فقال القاضي : نعم .

فهجم عليه الشيخ عمر مكرم وأخذ الورقة التي كتبها وأعطائها للشيخ الشرقاوي وقال له : إذهب الآن و أخطب في الناس وأتلوا عليهم هذا الأتفاق .

بعد ساعة . عاد المشايخ للجامع الأزهر وصعد الشيخ الشرقاوي المنبر وخطب في الناس و قال : بسم الله صاحب المن والفضل علينا و علي بلادنا , والصلاة و السلام علي سيد الرسل و الخلق أجمعين محمد صلي الله عليه و سلم , أما بعد , فقد أجبر مشايخ الأزهر الكرماء المماليك علي كتابة ميثاق ينظم العلاقة بين الحاكم و المحكوم , يرفع الظلم عن العباد و يعيد للمظلومين حقهم .

فقد إتفقنا علي أن يلتزم المماليك بدفع ٧٥٠ كيسا للمتضررين من أهل بلبيس أصحاب المظلمة الأخيرة , وأن يلتزموا بإرسال غلال بلاد الحرمين التي كانوا قد قطعوها , وأن يعيدوا صرف الغلال و رواتب العامه التي كانوا قد قطعوها منذ زمن , وان يمتنعوا هم و أتباعهم عن ظلم أي أحد من العباد تحت أي ظرف من الظروف . وقد صدق علي هذا القاضي و أخذنا نسخة هذا الميثاق لنقرأه عليكم . والحمد لله رب العالمين.

فصرخ الناس : ﷺ أكبر , ﷺ أكبر .
فخرج من بين الجماهير الشيخ عمر مكرم حزينا , فرأه الحاج محمد المغربي وخرج وراءه , فإستوقفه خارج أبواب الجامع بعيدا عن الجماهير , فقال له **الحاج محمد وعلي وجهه علامات السعادة :** أفي هذا الموقف أنت حزين يا شيخ , الناس كلها فرحين بما حدث و أنت من المشاركين في هذا الإنجاز حزين ؟

فنظر الشيخ عمر للحاج محمد بإستغراب : أي إنجاز , مجرد ورقة عليها بعض الوعود من بعض الصعاليك الحرامية الذين لم يلتزموا بكلمة في حياتهم , هذا تسميه إنجاز ؟ والمصيبة أن الناس فرحون يكبرون ويهللون . الإنجاز بالنسبة لي أن أري هؤلاء المماليك يهربون أمام سيف هذه الجماهير بعد أن يهبوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله و سبيل كرامتهم و حقوقهم .

الحاج محمد بعد صدمته من كلام الشيخ عمر : ولكن كيف سيكون هذا ؟ الناس ضعاف والمماليك أقوياء وموحدين .

الشيخ عمر مكرم : ومن يتق الله يجعل له مخرجا . لو أتقي كل واحد في هذه الجماهير ربه , وعزم النيه و الجهد عن الدفاع عن أرضه وعرضه ضد المماليك , لن ينتصر هؤلاء الصعاليك أبدا . أنظر , لمجرد بعض المظاهرات و الإعتصامات تحول هؤلاء المماليك إلي فئران من خوفهم من الناس , فما بالك لو حمل كل واحد سلاحه و خرجوا علي قلب رجل واحد إلي قصور هؤلاء المماليك ؟ صدقني لن ينتظر هؤلاء الصعاليك في بيوتهم ساعه واحدة .

فتسمر الحاج محمد مكانه و توقف عن الكلام فإشتد حزن الشيخ عمر و ذهب .
فخرج الناس من الجامع الأزهر فرحين يهتفون بأسماء المشايخ و فضوا إعتصامهم و فتحوا حوانيتهم و أسواقهم و عادت الحياة الطبيعية .

في السجن بعد ثورة القاهرة الأولى ١٧٩٨

يدخل الجنود الفرنسيون و ينظر قائدهم لشولكوسكي , فينظر له شولكوسكي ويهز رأسه إشارة بإتمام مهمته , فأشار قائد الجنود لشولكوسكي و للرجل المغربي المترجم بالخروج من السجن فجمعوا أغراضهم و خرجوا فأشار قائدهم للجنود بالإمساك بسليمان و تقيده و جره , فهجم الجنود علي سليمان و هو مستسلم تماما بدون أي مقاومة. فسحبوه إلي الخارج و أخرجوه في ساحة خلاء خلف سجن القلعة و أركعوه علي ركبتيه بجانب الشيخ عبد الوهاب الشافعي و أمامهم الجنود بالبنادق إستعدادا لرميهم بالرصاص

فقال الشيخ عبد الوهاب لسليمان : قل يا ولدي .. لا إله إلا الله , محمد رسول الله

فهز سليمان رأسه و كاد يقولها فصرخ قائد الجنود للجنود بتعمير البنادق فعمروها بأصوات مرعبة فارتعد سليمان و لم يقلها و بجانبه أولاد الشافعي يرددونها و فجأة ظهر فرس عليه فارس ملثم يحمل مسدس يحمله بصعوبة و يده تهتز به فأطلق النار علي العسكري الواقف أمام سليمان مستعدا لإعدامه فجرح العسكري و سقط علي الأرض و هاجت الدنيا و أمر قائد الجنود بإطلاق النار علي المحكوم عليهم و إتجه هو تجاه الفارس المقل عليهم بمنتهي السرعة و أطلق عليه النار فإختل توازن الفارس و تمسك قليلا بالفرس إلي أن مر بجانب القائد ثم سقط بجانب سليمان و هو متمسك بالمسدس في يده و أنفكت عنه اللثام و إذا بها أمونه و قد أصابها العيار الناري فأصاب سليمان الصاعقه و لم يتكلم كلمة و هو ينظر لها بصدمة. فنظر سريعا للقائد فوجده يصوب تجاه أمونه , فسبقته أمونة و أطلقت علي قدمه فأصيب القائد و سقط علي الأرض . وسليمان من هول ما يراه.

فجأة ظهر العميان من خلف القائد المصاب و هم يهربون من العيارات النارية الخارجة من بنادق قوات حراسة السجن الذين يركضون خلفهم باتجاه سليمان وأمونة . فالتفت العميان حول سليمان و أمونة محاولين إنقاذهم و تهريبهم وسط تبادل إطلاق نار و إشتباكات مع القوات الفرنسية .